التفسير الإشاري ودوره في تقويم السلوك الإنساني دراسة تحليلية لنماذج من التفاسير في العصر العباسي

2023

أطروحة دكتوراه

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

Ömer ALALİ

المشرف

Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU

التفسير الإشاري ودوره في تقويم السلوك الإنساني دراسة تحليلية لنماذج من التفاسير في العصر العباسي

Ömer ALALİ

المشرف

Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU

بحث أُعدّ لنيل درجة الدكتوراه في قسم العلوم الإسلامية الأساسية بمعهد الدراسات العليا بجامعة كارابوك في تركيا

كارابوك

نيسان/2023

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات 1
صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية) 5
صفحة الحكم على الرسالة..... 6
DOĞRULUK BEYANI..... 7
تعهد المصداقية..... 8
الإهداء 9
شُكر..... 10
المقدمة..... 12
الملخص..... 19
ÖZET..... 21
ABSTRACT 22
ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ 24
بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية)..... 25
ARCHIVE RECORD INFORMATION 26
الاختصارات..... 27
موضوع البحث 28
أهداف البحث وأهميته: 28
منهج البحث: 29
مشكلة البحث:..... 30
حدود البحث ونطاقه: 30
الصعوبات التي واجهت الباحث:..... 31
الدراسات السابقة 31
مخطط توضيحي للفصل التمهيدي وأقسامه..... 37
الفصل التمهيدي: التفسير الإشاري أصوله وأنواعه، وشروط قبوله، ومدى ارتباطه بالتصوف. 38
المبحث الأول: أصول التفسير الإشاري، وأنواعه، وارتباطه بالتصوف. 41
المطلب الأول: أصول التفسير الإشاري في القرآن والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين. 42
المطلب الثاني: أنواع التفسير الإشاري. 45
أما التفسير الإشاري اللفظي:..... 46
أما التفسير الإشاري المعنوي:..... 47

أما التفسير الإشاري الرمزي: 49
المطلب الثالث: ارتباط التفسير الإشاري بالتصوف.....51
أولًا: تعريف التصوُّف والصوفي لغة: 51
ثانيًا: تعريف التَّصوُّف والصوفي اصطلاحاً: 51
ثالثًا: التصوف بين الرفض والقبول:.....53
مخطط توضيحي لأنواع التفسير الإشاري.....58
المبحث الثاني: آراء العلماء في التفسير الإشاري، وشروط قبوله. 59
المطلب الأول: آراء العلماء المجيزين للتفسير الإشاري. 59
المطلب الثاني: آراء العلماء الرافضين للتفسير الإشاري.....68
المطلب الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري. 73
مخطط توضيحي للفصل الأول وأقسامه.....78
الفصل الأول: العصر العباسي (132هـ- 656 هـ)، وتعدد التفاسير الإشارية 79
ودورها في الإصلاح.....79
المبحث الأول: الحياة الاجتماعية والسياسية في العصر العباسي 79
المطلب الأول: الحياة الاجتماعية، وبيئة الترف.....80
المطلب الثاني: البيئة السياسية في العصر العباسي في ظل تغلب العجم.....84
المطلب الثالث: الدعوة إلى الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة. 87
المبحث الثاني: دور التفاسير الإشارية في نشر الوعي الديني، والإصلاح الأخلاقي.....92
المطلب الأول: ظهور التفاسير الإشارية الهادفة إلى إصلاح المجتمع العباسي 92
المطلب الثاني: تعدد التفاسير الإشارية وتنوعها في العصر العباسي.....97
المطلب الثالث: عزوف شريحة من المجتمع العباسي عن الدنيا والإقبال على 101
مخطط توضيحي للفصل الثاني وأقسامه 111
الفصل الثاني: أشهر المفسرين الإشاريين في العصر العباسي وتفاسيرهم.....112
المبحث الأول: سهل بن عبد الله التُستري (ت: 283هـ) وتفسيره. 114
المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية. 114
أ-اسمه ونسبته ومولده ووفاته:.....114
ب- نشأة التستري وبداية سلوكه طريق التصوف: 115
أما شيوخه الذين أخذ عنهم الطريق:.....116
أما تلاميذه وأصحابه فهم كُثُرٌ منهم: 116
أما مؤلفاته: 117
المطلب الثاني: منهجه في التفسير 119
المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية 124

المبحث الثاني: أبو عبد الرحمن السلمي (ت: 412هـ) وتفسيره..... 132
المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية 132
شيوخه:..... 133
تلاميذه: 134
تَصانِيفه:..... 135
أقوال العلماء في السلمي وتفسيره:..... 136
المطلب الثاني: منهجه في التفسير 138
المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية 141
المبحث الثالث: عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: 465هـ)، وتفسيره 148
المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية 148
شيوخه:..... 149
تلاميذه: 149
آثاره العلمية:..... 149
أقوال العلماء فيه: 150
المطلب الثاني: منهجه في التفسير 152
المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية 156
المبحث الرابع: محي الدين بن عربي (ت: 638هـ)، وتفسيره 162
المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية 162
أما شيوخه الذين أخذ عنهم:..... 164
تلاميذه: 164
آثاره العلمية:..... 165
آراؤه الفقهية:..... 166
أقوال العلماء فيه: 166
المطلب الثاني: منهجه في التفسير:..... 170
المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية 173
مخطط توضيحي لأشهر المفسرين الإشاريين في العصر العباسي وتفاسيرهم..... 181
مقارنة موجزة بين مناهج أعلام المفسرين الإشاريين:..... 182
مخطط توضيحي للفصل الثالث وأقسامه..... 187
الفصل الثالث: دور التفاسير الإشارية في تقويم السلوك الإنساني..... 188
المبحث الأول: دور التفاسير الإشارية في تعزيز العقيدة الصحيحة..... 189
المطلب الأول: توثيق الصلة بالله تعالى:..... 189
المطلب الثاني: تعزيز الإيمان بالغيب: 203

المطلب الثالث: الإيمان بالرسل واتباع نهجهم..... 214
المبحث الثاني: دور التفاسير الإشارية في إصلاح النفوس وتزكيتها. 225
المطلب الأول: أنواع النفوس ودرجاتها 227
أ-النفس الأمارة بالسوء: 227
ب- النفس اللَّوَّامَةُ: 230
ج - النفس المطمئنة: 234
المطلب الثاني: مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، ومعالجتها 237
المطلب الثالث: تزكية النفس البشرية وترقيتها 243
مخطط توضيحي لأنواع النفوس ودرجاتها..... 255
المبحث الثالث: دور التفاسير الإشارية في الاستقامة، وحسن التعامل مع الخالق والمخلوق..... 256
المطلب الأول: تعزيز القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة..... 257
المطلب الثاني: صحبة الأخيار والتخلق بأخلاقهم..... 267
المطلب الثالث: حسن المعاملة مع الخالق والمخلوق 273
1-حسن التعامل مع الخالق:..... 275
2-حسن التعامل مع المخلوق: 281
الخاتمة..... 286
المصادر والمراجع..... 289
السيرة الذاتية..... 309

صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية)

Ömer ALALİ tarafından hazırlanan "İŞÂRÎ TEFSİR VE İNSAN DAVRANIŞLARININ DÜZELTİLMESİNDEKİ ROLÜ (ABBASİ DÖNEMİNDEKİ BAZI TEFSİRLER ÜZERİNE BİR İNCELEME)" başlıklı bu tezin Doktora Tezi olarak uygun olduğunu onaylarım.

Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU .....

Tez Danışmanı, Temel İslam Bilimleri

Bu çalışma، jürimiz tarafından Oy Birliği ile Temel İslami Bilimlerinde Doktora tezi olarak kabul edilmiştir 06.04.2023.

Ünvanı، Adı SOYADI (Kurumu) **İmzası**

Başkan : Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU (KBÜ) .....

Üye :Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI (KBÜ) .....

Üye :Dr. Öğr. Üyesi Mustafa YILDIZ (KBÜ) .....

Üye :Dr. Öğr. Üyesi Hidayet ZERTÜRK (ÇAKÜ) .....

Üye :Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin YUSUF (İ29MÜ) .....

KBÜ Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Yönetim Kurulu، bu tez ile، Doktora Tezi derecesini onamıştır.

Prof. Dr. Müslüm KUZU .....

Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Müdürü

صفحة الحكم على الرسالة

أصادق على أن هذه الأطروحة التي أعدت من قبل الطالب عمر العلي بعنوان "التفسير الإشاري ودوره في تقويم السلوك الإنساني دراسة تحليلية لنماذج من التفاسير في العصر العباسي" في برنامج العلوم الإسلامية الأساسية هي مناسبة كرسالة دكتوراه.

Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU .....

مشرف الرسالة، العلوم الإسلامية الأساسية

قبول

تم الحكم على رسالة الدكتوراه هذه بالقبول بإجماع لجنة المناقشة بتاريخ.

06.04.2023

التوقيع **أعضاء لجنة المناقشة**

رئيس اللجنة :Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU (KBÜ) .....

عضواً :Dr. Öğr. Üyesi Mohamed Amıne HOCINI (KBÜ) .....

عضواً :Dr. Öğr. Üyesi Mustafa YILDIZ (KBÜ) .....

عضواً :Dr. Öğr. Üyesi Hidayet ZERTÜRK (ÇAKÜ) .....

عضواً :Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin YUSUF (İ29MÜ) .....

تم منح الطالب بهذه الأطروحة درجة الدكتوراه في قسم العلوم الإسلامية الاساسية من قبل مجلس إدارة معهد الدراسات العليا في جامعة كارابوك.

Prof. Dr. Müslüm KUZU .....

مدير معهد الدراسات العليا

DOĞRULUK BEYANI

Doktora tezi olarak sunduğum bu çalışmayı bilimsel ahlak ve geleneklere aykırı herhangi bir yola tevessül etmeden yazdığımı‹ araştırmamı yaparken hangi tür alıntıların intihal kusuru sayılacağını bildiğimi‹ intihal kusuru sayılabilecek herhangi bir bölüme araştırmamda yer vermediğimi‹ yararlandığım eserlerin kaynakçada gösterilenlerden oluştuğunu ve bu eserlere metin içerisinde uygun şekilde atıf yapıldığını beyan ederim.

Enstitü tarafından belli bir zamana bağlı olmaksızın‹ tezimle ilgili yaptığım bu beyana aykırı bir durumun saptanması durumunda‹ ortaya çıkacak ahlaki ve hukuki tüm sonuçlara katlanmayı kabul ederim.

Adi Soyadi: Ömer ALALİ

İmza :

تعهد المصداقية

أقر بأنني التزمت بقوانين جامعة كارابوك، وأنظمتها، وتعليماتها، وقراراتها السارية المفعول المتعلقة بإعداد بحوث الماجستير والدكتوراه أثناء كتابتي هذه الأطروحة التي بعنوان:

التفسير الإشاري ودوره في تقويم السلوك الإنساني دراسة تحليلية لنماذج من التفاسير في العصر العباسي

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة البحوث العلمية، كما أنني أعلن بأن أطروحتي هذه غير منقولة، أو مستله من أطروحات أو كتب أو بحوث أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أية وسيلة إعلامية باستثناء ما تمت الاشارة اليه حيثما ورد.

اسم الطالب: عمر العلي

التوقيع: .....

الإهداء

- إلى أول من بيَّن للناس فحوى كلام الله، وفسر لهم معناه، سيِّدنا محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
- إلى العلماء الربَّانيِّين العاملين، الذين اصطفاهم الله، وأورثهم الكتاب، ففهموا معانيه، وفقهوا مقاصده، فبينوها للناس.
- إلى والدي ووالدتي، وزوجتي وأولادي، وإلى أخوتي وأخواتي، وإلى كل راغب في فهم مقاصد الرسالة الإلهية، المنزلة إلى الخلق كافة، أُهدي جهدي هذا.

شُكر

بداية أشكر الله –جلَّ في علاه– على ما مَنَّ به عليَّ من الهداية والتوفيق، وسهل لي سبيل إنجاز هذه الرسالة. ثم أتوجه بالشكر إلى والدي الذي وقف إلى جانبي، وتابع عملي في كل مراحله. وأخص بالشكر أستاذي الدكتور "إبراهيم إمام أوغلو"، الذي أشرف على هذه الأطروحة، ولم يبخل بتوجيهاته وإرشاداته، والدكتور "محمد أمين الحسيني"، الذي كان له بالغ الأثر في إثراء هذا العمل وإتمامه.

والشكر موصولٌ للأساتذة الأفاضل "أعضاء لجنة المناقشة" الذين سيتحمَّلون عناء قراءة هذه الرسالة، وإسداء النصائح، وإبداء الملحوظات التي تثريها وتغنيها. ولا يفوتني شكر القائمين على كلية الإلهيَّات، المتمثِّلين بالعميد ومعاونِيه، ورؤساء الأقسام والمدرِّسين، والموظَّفين كافة.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

آية كريمة

بِسم الله الرحمَن الرحيم

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[النحل: 89]

المقدمة

القرآن الكريم، كلام الله المعجز الذي لا يمله العلماء ولا يشبع منه الحكماء، تحدى فصحاء العرب أن يأتوا بمثله فأعجزهم. وقد تضافرت جهود العلماء منذ القدم على خدمة كتاب الله – سبحانه وتعالى– وبرع في كل عصر ثلّة من العلماء الربّانيين الذين نذروا أنفسهم لخدمة هذا الكتاب، شرحًا وتفصيلًا، وتدبرًا وتفسيرًا؛ وأصبح تفسير القرآن المجيد علمًا من أفضل العلوم وأشرفها، لما فيه من البركة والمعرفة، ولحاجة كل مؤمن إليه، وذلك لأنّه يسهم في فهم كلام الله –تعالى– وبيان أوامره ونواهيه، وحلاله وحرامه، و يقص علينا ما كان من أخبار السابقين، وما سيكون من أخبار اللاحقين، ويبيّن لنا طريق الوصول إلى السعادة الأبديّة، ويبصرنا بأسباب التفكر في ملكوت الله –تعالى–، وفهم آياته.

وتحثّنا الآيات الكثيرة على تدبر معانيه، والتفكر في مقاصده؛ كقوله –سبحانه–: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ [ص:29]. ولذلك بذلت الجهود لتدبر آيات القرآن الكريم، والوقوف على المقاصد من أوامره ونواهيه؛ والتعرف إلى مراضي الله –تعالى– للعمل بها، والبعد عن مساخطه وتجنبها. ولأنَّ علم التفسير ينير للناس طريقهم في الحياة الحرّة الكريمة. ويمثّل الحق المبين الذي لا يعتريه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولأنّ فيه بيانًا للأحكام، التي تكفل للناس السعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة.

فقد بذل النبي الكريم– صلى الله عليه وسلم– وصحابته الأخيار الكثير من جهدهم ووقتهم؛ لتفسير معاني القرآن الكريم وكشف أسراره، عملًا بقوله –تعالى–: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44]. وكثرت الآيات التي تجيب عن استفسارات الصحابة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ...﴾ [البقرة: 189] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ...﴾ [البقرة: 219] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ...﴾ [البقرة: 222].

واجتهد التابعون ومن تبعهم بإحسان في تفسير آيات القرآن وفهم معانيها، وإدراك مقاصدها ومراميها، للعمل بمرضاة الله، واتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه، لتيقنهم أن السعادة الأبدية السرمدية في الدنيا والآخرة مقترنة بطاعة الله ومرضاته، والعمل بأحكام دينه وشريعته. وازدادت الحاجة بعد عصر التابعين، لفهم كلام الله، وبيان مقاصده ومراميه؛ وذلك بسبب قصور بعض المسلمين وجهلهم باللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وهي اللغة العربية؛ فالمسلمون الأوائل كانوا على دراية تامّة بهذه اللغة، بل كان الصحابة يسألون النبي –عليه الصلاة والسلام– فيما استشكل عليهم، فيفسّر لهم، أو يصبر حتى ينزل الوحي بالتفسير.

وبعد عصر الصحابة والتابعين تأكّدت أهمية التفسير في حياة المسلمين، لأنه الطريق الموصل إلى فهم كلام الله

–تعالى– وتطبيقه في الحياة، ولقد عدَّه العُلماء من فروض الكفاية؛ ويعد وجود المفسرين في كُل زمان ومكان من أحد المعلومات من الدين بالضرورة. ولم يقتصر فهم السلف الصالح للقرآن على المعرفة دون العمل، فقد كانوا يقرنون الفهم بتطبيق الأحكام، والعمل بمقتضى الأوامر والنواهي التي فيه. فعَن أَبِي عَبْد الرَّحْمَن السلمي، قال: " إنما أخذنا القرآن عَن قوم أخبرونا: أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخر حتى يتعلموا ما فيهن من العمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعا "[1].

ولقد حرص الأولون من علماء هذه الأمة على فهم معاني القرآن، وتدبر آياته، وتجشّموا لذلك المشاق، وضربوا أكباد الإبل ليتعلموا فهم آية، ويتلقّوا معناها على من سبقهم إلى فهمها. ولقد رحل مسروق[2] إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: الذي يفسرها رجع إلى الشام، فتجهز ورحل إليه حتى علم

[1] عبد الرحمن بن أحمد الرازي، **فضائل القرآن وتلاوته**، تحقيق: حسن صبري (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1994م)، 127.

[2] مسروق: هو مسروق بن الأجدع بن مالك الوادعي الهمداني، من كبار التابعين ومن المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي –صلى الله عليه وسلم، سكن الكوفة وأصله من اليمن، حدّث عن: أبي بن كعب، وعمر، وعن أبي بكر الصديق وعن أم رومان، وكان أعلم بالفتوى

تفسيرها. وأيقنوا أن رِضَا الله ومحبته مقرون بفهم القرآن، وإدراك معانيه؛ قَالَ مُجَاهِدٌ: "أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل".

ولقد قرن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بين الفقه في الدين وفهم وجوه المعاني في القرآن الكريم، فقال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة»[3]. لذلك نشط علماء الأمة لتدبر آي القرآن، والتفكر في دلالات معانيه، فازدهر التأويل في التفسير، وتنافس المفسرون في فهم الوجوه الكثيرة لإشارات المعاني التي تحملها الآيات، جليها وخفيها. وكان للصوفية قدم السبق في تدبر آيات القرآن الكريم، والتفكر في معانيها، لإدراك قيمها الأخلاقية، ودلالاتها الروحانية عن طريق التأويل والإشارة[4].

ولقد ظهر هذا اللون من التفسير بصورة جلية في العصر العباسي، بعدما فتحت الدنيا على المسلمين، فأقبلوا عليها يغرفون من لذائذها وشهواتها، حيث كثر اللهو والترف، وفشت الغفلة، وزاد الإعراض عن الله تعالى، وانتشر الفساد وجاهر الناس بالفاحشة وشربت الخمور، وانحرفت الطبائع والمسالك، وانجرف عامة الناس وراء حظوظ أنفسهم، فانبرى علماء الصوفية يستنبطون الإشارات من محكم الآيات ومتشابهها، لتذكير الناس وإيقاظهم من رقدة الغفلة، وترغيبهم بالزهد في الدنيا، والإقبال على أعمال الآخرة؛ ومقصدهم في ذلك تقويم سلوكات الناس، وتزكية أنفسهم، والعودة بهم إلى الفطرة السليمة، والطبيعة القويمة[5].

من شريح، توفي سنة 63هـ. انظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م)، ج4، ص63. خير الدين بن محمود الزركلي، **الأعلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، 2002م)، 215/7.

[3] عبد الله بن محمد، ابن أبي شيبة، **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت (الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ)، 142/6.

[4] انظر: محمد بن محمد الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، تحقيق: مجدي باسلوم (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م)، 58/1.

[5] انظر: الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 58/1.

وتعددت التفاسير الإشارية، وتنوعت وتتالت، واختلف العلماء في قبول هذا اللون من التفسير أو رده، وترجح لدى المنصفين من العلماء قبول الإشارات الخفية في التفسير، بشرط أن تتوافق مع المعنى الظاهر للآية، ولا تعارضه. واتفقوا على أنَّ هذا الفن من العلوم إنما هو: تفسير للقرآن بغير ظاهره، لإشارة تظهر لأرباب الصفاء، مع عدم إبطال الظاهر. وتتأكّد الحاجة إلى التفسير الإشاري لآيات القرآن الكريم في هذا الوقت الراهن، بعدما ظهر الكثير من عجائب القدرة الإلهية على صفحات الكون، في ضوء التقدم العلمي والتكنولوجي للحضارة المعاصرة، ومع طوفان الاكتشافات، ودوي الانفجار المعرفي، ونضج التفكير البشري، وانعتاق الإنسان وتطوافه في فضاءات العلوم المختلفة؛ نجد في القرآن الكريم طوقًا لنجاة البشرية، وسراجًا منيرًا للإنسانية، يُبَصِّرُها طريق الحق، ويهديها سبيل الرشاد. حتى تسلك المسلك الأمثل والأرشد في ضوء المعاني الربانية، والفيوضات الإلهية. وعند كل آية من آيات القرآن الكريم يجد المسلم بغيته في المنهج الأمثل والأقوم، للتعامل مع سائر شؤون الحياة. وقد عزمت على تناول هذا اللون من التفسير لكتاب الله –عز وجل– ببحث أربط فيه بين الإشارات القرآنية، والسلوكات الإنسانية، أملًا في المساهمة بإشعال شمعة مضيئة في زمان تتالت فيه الفتن، وتتابعت المحن، وتراكمت أسداف الظلام.

وجاءت خطة البحث على الشكل الآتي:

الفصل التمهيدي: التفسير الإشاري أصوله وأنواعه، وشروط قبوله، ومدى ارتباطه بالتصوف

المبحث الأول: أصول التفسير الإشاري، وأنواعه، وارتباطه بالتصوف

المطلب الأول: أصول التفسير الإشاري في القرآن والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين.

المطلب الثاني: أنواعِ التفسير الإشاري.

المطلب الثالث: ارتباط التفسير الإشاري بالتصوف.

المبحث الثاني: آراء العلماء في التفسير الإشاري، وشروط قبوله.

المطلب الأول: آراء العلماء المجيزين للتفسير الإشاري.

المطلب الثاني: آراء العلماء الرافضين للتفسير الإشاري.

المطلب الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري.

الفصل الأول: العصر العباسي (132هـ- 656 هـ)، وتعدد التفاسير الإشارية ودورها في الإصلاح.

المبحث الأول: الحياة الاجتماعية والسياسية في العصر العباسي.

المطلب الأول: الحياة الاجتماعية، وبيئة الترف.

المطلب الثاني: البيئة السياسية في العصر العباسي في ظل تغلب العجم.

المطلب الثالث: الدعوة إلى الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة.

المبحث الثاني: دور التفاسير الإشارية في نشر الوعي الديني، والإصلاح الأخلاقي.

المطلب الأول: ظهور التفاسير الإشارية الهادفة إلى إصلاح المجتمع العباسي.

المطلب الثاني: تعدد التفاسير الإشارية وتنوعها في العصر العباسي.

المطلب الثالث: عزوف شريحة من المجتمع العباسي عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

الفصل الثاني: أشهر المفسرين الإشاريين في العصر العباسي وتفاسيرهم.

المبحث الأول: سهل بن عبد الله التُستري (ت: 283هـ) وتفسيره.

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية.

المبحث الثاني: أبو عبد الرحمن السلمي (ت: 412هـ) وتفسيره.

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية.

المبحث الثالث: عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: 465هـ)، وتفسيره.

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية.

المبحث الرابع: محي الدين بن عربي (ت: 638هـ)، وتفسيره.

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية.

الفصل الثالث: دور التفاسير الإشارية في تقويم السلوك الإنساني (شريعة وحقيقة)[6].

المبحث الأول: دور التفاسير الإشارية في تعزيز العقيدة الصحيحة.

المطلب الأول: توثيق الصلة بالله تعالى.

---

[6] الشريعة: أمر بالتزام العبودية، والحقيقة: مشاهدة الربوبية فَكُل شريعة غَيْر مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول وكل حقيقة غَيْر مقيدة بالشريعة فغير محصول فالشريعة جاءت بتكليف الخلق والحقيقة إنباء عَن تصريف الحق، فالشريعة أَن تعبده والحقيقة أَن تشهده، والشريعة قيام بِمَا أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر. انظر: عبد الكريم بن هوازن القشيري، **الرسالة القشيرية**، تحقيق: عبد الحليم محمود (القاهرة: دار المعارف، 1994م)، 195/1. زين الدين أبو يحيى السنيكي، **الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة**، تحقيق: مازن المبارك (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1411هـ)، 70. علي بن محمد الشريف الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء (بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ)، 137. وباختصار: الشريعة: مجموعة الأحكام العملية التكليفية، وهي أعمال الجوارح، والحقيقة: ما وراء هذه الأحكام من إشارات وأسرار، وهي أعمال القلوب.

المطلب الثاني: تعزيز الإيمان بالغيب.

المطلب الثالث: الإيمان بالرسل واتباع نهجهم.

المبحث الثاني: دور التفاسير الإشارية في إصلاح النفوس وتزكيتها.

المطلب الأول: أنواع النفوس ودرجاتها.

المطلب الثاني: مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، ومعالجتها.

المطلب الثالث: تزكية النفس البشرية وترقيتها.

المبحث الثالث: دور التفاسير الإشارية في الاستقامة، وحسن التعامل مع الخالق والمخلوق.

المطلب الأول: تعزيز القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة.

المطلب الثاني: صحبة الأخيار والتخلق بأخلاقهم.

المطلب الثالث: حسن المعاملة مع الخالق والمخلوق.

الخاتمة وفيها: نتائج البحث، وتوصيات الباحث.

الملخص

هذه الأطروحة بعنوان "التفسير الإشاري ودوره في تقويم السلوك الإنساني" وفيها: دراسة تحليلية لنماذج من التفاسير في العصر العباسي؛ وقد تضمنت مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، ذكر الباحث فيها أصول التفسير الإشاري المقتبسة من القرآن والسنة، ومن أقوال الصحابة والتابعين. وعدَّد أنواع التفاسير الإشارية، وبين علاقتها بالتصوف. ثم عرض آراء العلماء بهذا النوع من التفاسير وشروط قبولها، ثم عرض لمحة موجزة عن الحياة الاجتماعية والسياسية في العصر العباسي، ونشاط العلماء في ذلك العصر، وقيامهم بالدعوة إلى الإصلاح، في ظل انغماس الناس في حياة الترف واللهو، وأثناء تغلب العنصر الفارسي على القرار السياسي، حيث اتسمت مجالس العلماء الربانيين في ذلك العصر بالدعوة إلى الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة. مما أدى إلى انتشار الوعي الديني والأخلاقي في المجتمع العباسي، وعزوف شريحة كبيرة من الناس عن زخارف الدنيا، والإقبال على شؤون الآخرة.

ثم ذكر أشهر المفسرين الإشاريين في ذلك العصر، وقدم نُبَذًا موجزة عن حياتهم الشخصية والعلمية، ومناهجهم في التفسير. وعرض بعض تفسيراتهم الإشارية ودلالاتها السلوكية والتربوية، وبين دورها في توثيق العقيدة الصحيحة من تقوية الصلة بالله –تعالى– وتعزيز الإيمان بالغيب، والإيمان بالرسل. واختار بعض التفسيرات التي تسهم في تزكية النفوس وإصلاحها ومعالجتها وترقيتها، وأخرى تبرز أهمية الصحبة الصالحة، في اكتساب القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة.

كما بين الباحث مدى تأثير التفاسير الإشارية في حسن التعامل مع الخالق بالافتقار إليه، والتذلل لديه، والصبر على مقاديره، والانقياد لأوامره ونواهيه، وكذلك حسن التعامل مع الخلق، بالكلمة الطيبة وصنائع المعروف، ودرء السيئة بالحسنة. وأخيرًا ختم البحث باستنتاج يؤكد أهمية التفسير الإشاري

في إصلاح النفوس وتقويم السلوك، وأوصى بإعداد مناهج تربوية تعنى بالقيم السلوكية، تتمثل بطباعة كتب دراسية تتوافق مع المراحل العمرية المختلفة للناشئة.

الكلمات المفتاحية: التفسير الإشاري، التصوف، تقويم السلوك، تزكية النفس، العصر العباسي.

ÖZET

"İşârî Tefsiri ve İnsan Davranışlarının Düzeltilmesindeki Rolü" başlığını taşıyan bu tezde, Abbasiler döneminde yazılan bazı tefsirler incelenmiştir. Tez, mukaddime, dört bölüm ve sonuçtan oluşmaktadır. Araştırmacı bu tezde ilk olarak, temel kaidelerini Kur'an'dan, sünnet'ten, sahabe ve tabiin sözlerinden alan işârî tefsirin ne olduğunu açıklamış, işârî tefsirlerin çeşitlerinden bahsetmiş ve işârî tefsirin tasavvuf ile ilişkisine değinmiştir. Alimlerin bu tür tefsirler hakkındaki görüşlerini ve kabul şartlarını ortaya koymuş, sonra Abbasiler dönemindeki siyasi ve ictimai hayattan kısaca bahsetmiştir. Aynı zamanda alimlerin o dönemdeki gayretleri, insanları daldıkları dünyevi zefk-ü sefa konusunda uyararak ıslaha çalıştıkları, rabbani alimlerin meclislerinin genel olarak dünyanın şaşasını terk ederek ahirete hazırlanmayı konu edindiğini vurgulamıştır. Alimlerin bu gayretleri Abbasi toplumunda dinî ve ahlâkî bilincin yaygınlaşmasına, geniş bir kesimin bu dünyanın tuzaklarından çekinmesine ve ahiret işlerine ilgi duymasına neden olmuştur. Daha sonra o dönemin en meşhur işârî tefsircilerinden; onların şahsi, ilmi hayatlarından ve işârî tefsirdeki metotlarından bahsetmiştir. İşârî tefsirlerden; onların terbiye yöntemlerinden ve sahih akideyi; Allah ile aramızdaki bağı sağlamlaştırma, gayba ve elçilere imanı güçlendirme konusundaki etkilerine değinmiştir. Araştırmacı nefis tezkiyesi ve ıslahı temel alan tefsirlerden bahsettiği gibi, güzel ahlak ve üstün erdemlere sahip olmak için güzel dostlar edinmenin önemine vurgu yapan bazı tefsirleri de zikretmiştir. Araştırmacı ayrıca işârî tefsirin, insanın yaratıcı karşısındaki acziyeti, O'nun çizdiği sınırlarda durmasının gereği, O'nun emir ve yasaklarına boyun eğmesi ve kötülüğün iyilikle nasıl defedilmesi gerektiği konularındaki başarısını ortaya koymuştur. Araştırmacı sonuç olarak, insan davranışlarını düzeltme konusunda etkili olan ilkelere yönelik eğitim metotlarının hazırlanması ve eğitim gören kişilerin seviyesine uygun kitapların basılmasını tavsiye etmiştir.

Anahtar Kelimeler: İşârî tefsir,Tasavvuf, Davranışların ıslahı, Nefis tezkiyesi, Abbasi Dönemi.

.

ABSTRACT

This thesis is entitled as, "The indicative interpretation and its role in evaluating human behavior" Which includes The following: an analytical study of models of interpretations in the Abbasid era. This study included an introduction, Four chapters, and a conclusion where the researcher quoted the rules and basics of the indicative interpretations from Qur'an Kareem and Prophet Muhammed p.b.u.h's sunnah. He also presented the indicative interpretation branches, and their relationship to mysticism. The researcher then presented this type of interpretation and its conditions for acceptance, A brief overview of the social and political life in the Abbasid era. The activities of scholars in that era and their call for reform in light of the people's immersion in a life of luxury and amusement while the Persian element overcame the political decision and councils of the divine scholars in that era, who were characterized by the call to asceticism in this world and desire for the hereafter. This led to the spread of religious and moral awareness in the Abbasid society, Reluctance of many people from the trappings of this world and interest in the affairs of the afterlife.

The researcher then mentioned the most famous commentators of that era, and gave brief descriptions of their personal and scientific lives. Moreover He also presented their methods of interpretation, some of their indicative interpretations, behavioral and educational implications and Explained their role in confirming the correct belief by strengthening the connection with Allah s.w.t, in the unseen and the messenger's presence as well. He chose some interpretations that contribute to recommending, reforming, treating, promoting souls and highlighting, The importance of good companionship in acquiring noble values and good morals. The researcher also showed the extent of the influence of indicative interpretations on dealing respectfully Allah s.w.t by lacking and groveling to him, being patient with his decrees, compliance with his commands or prohibitions, and dealing respectfully with people with kind words and good deeds and warding off evil with goodness, finally, The researcher concluded by confirming the importance of indicative interpretation in reforming souls and behavior assessment. He also recommended the preparation of educational

curricula concerned with behavioral values, Which are represented in printing textbooks that correspond to the different age stages of young people.

Keywords: Tafsir al-Ishari, Mysticism, Behavior Correction, Self P urification, Abbasid Era.

ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ

Tezin Adı	İşârî Tefsir ve İnsan Davranışlarının Düzeltilmesindeki Rolü (Abbasi Dönemindeki Bazı Tefsirler Üzerine Bir İnceleme)
Tezin Yazarı	Ömer ALALİ
Tezin Danışmanı	Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU
Tezin Derecesi	Doktora
Tezin Tarihi	06.04.2023
Tezin Alanı	Temel İslam Bilimleri
Tezin Yeri	KBÜ/LEE
Tezin Sayfa Sayısı	309
Anahtar Kelimeler	İşârî tefsir,Tasavvuf, Davranışların ıslahı, Nefis tezkiyesi, Abbasi Dönemi.

بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية)

عنوان الرسالة	التفسير الإشاري ودوره في تقويم السلوك الإنساني (دراسة تحليلية لنماذج من التفاسير في العصر العباسي)
اسم الباحث	عمر العلي
اسم المشرف	الأستاذ المشارك د. إبراهيم حقي إمام أوغلو.
المرحلة الدراسية	الدكتوراه
تاريخ الرسالة	2023.04.06
تخصص الرسالة	العلوم الإسلامية الأساسية
مكان الرسالة	جامعة كارابوك– معهد الدراسات العليا
عدد صفحات الرسالة	309
الكلمات المفتاحية	التفسير الإشاري، التصوف، تقويم السلوك، تزكية النفس العصر العباسي.

ARCHIVE RECORD INFORMATION

Name of the Thesis	Ishari Tafseer And Its Role In Correcting Human Behaviors (A Study On The Analysis Of Some Tafsirs In The Abbasid Period)
Author of the Thesis	Ömer ALALİ
Advisor of theThesis	Assoc. Prof. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU
Status of the Thesis	PhD
Date of the Thesis	06.04.2023
Field of the Thesis	Basic Islamic sciences
Place of the Thesis	UNIKA/IGP
Total Page Number	309
Key words	Tafsir al-Ishari (Indicative Interpretation), Mysticism, Behavior Correction, Self Purification, Abbasid Era.

الاختصارات

المختصرات	الكلمة
ت	المتوفى
ج	جزء
د. م	دون مكان
د.ت	دون تاريخ للنشر
ص	صفحة
م	ميلادي
هـ	هجري
د. ط	دون طبعة

موضوع البحث

التفسير الإشاري ودوره في تقويم السلوك الإنساني

(دراسة تحليلية لنماذج من التفاسير في العصر العباسي)

أهداف البحث وأهميته:

أما أهداف البحث فتتمثل في بيان مقاصد الشريعة من تدبر الآيات القرآنية التي لا يدركها إلا العالمون، ثم التعرف إلى مفهوم التفسير الإشاري، وأصوله وأنواعه، وشروط قبوله، وكذلك إبراز أثره الإيجابي، ودوره الفاعل في تزكية النفس البشرية، وتقويم السلوك الإنساني، وعلاج أمراض القلوب، ومساهمته في بيان ما خفي من مقاصد الشريعة. وكذلك التعريف ببعض أَعلام التصوف من علماء العصر العباسي، وإثبات سبقهم لهذا النوع من التفسير، من خلال تفهم مناهجهم في التفسير، ومدى مساهمتهم في إثراء الذوق الإنساني، لتدبر كلام الله تعالى، وفهم مراميه، وإدراك مكامن أسراره.

والأهم من هذا كله استفادة العلماء المعاصرين من هذا اللون من التفسير، لإثراء المكتبة الإسلامية، بمفاهيم ودلالات جديدة لمعاني القرآن الكريم، الذي لا تنقضي عجائبه. وبيان دور هذه التفاسير في إفراز منهج أخلاقي عملي، يهدف إلى إصلاح ما أفسده الترف واللهو في ذلك العصر وفي كل عصر، وإرشاد الناس إلى الفطرة السليمة التي فطرهم الله عليها. ويكون ذلك بخلق آليات عملية تطبيقية في المناهج الدراسية الحديثة المعاصرة؛ بحيث تتخذ من هذه الإشارات اللطيفة، والاستنباطات الطريفة منارات مضيئة، تكشف معالم الطريق لهذا الجيل الواعد.

وأما أهمية البحث:

فتتمثل في الكشف عن مفهوم التفسير بالإشارة، الذي اهتم به علماء التصوف خاصة، حيث أغفلت أكثر الدراسات الحديثة العناية بهذا الجانب من تدبر كلام الله، وفهم مقاصده ومراميه، ومدى تأثيره، ودوره في تهذيب النفس الإنسانية، وتقويم السلوك البشري؛ وإسقاط هذا الجانب من تأويل التنزيل على الواقع المعاصر لرسم ملامح تربوية قائمة على فهم مرادات الله في رسالته السماوية الخاتمة.

وبعدما تبين للباحث عدم السبق لربط التفسير الإشاري للقرآن الكريم بالسلوك الإنساني، عزم على ولوج هذا الباب، والخوض في هذا المجال من هذا العلم الشريف، وبيان أثر هذا اللون من التفسير، ودوره في تهذيب النفوس، وتقويم السلوك، وعلاج العيوب التي تعتري الحياة البشرية، والعثور على كنوز التربية الأخلاقية، والقيم الروحية. وبتوفيق من الله، قام الباحث بدراسةٍ مستقلةٍ، تسهم في إبراز هذا الجانب من العلم، خدمة لكتاب الله تعالى، وإثراءً للمكتبة الإسلامية برافد جديد.

منهج البحث:

لقد أعد الباحث الدراسة في هذا البحث على المنهج التاريخي في عرض موجزٍ لأشهر المفسرين وحياتهم في العصر العباسي، وأهم تفاسيرهم، واختار نماذج من تفسيراتهم؛ بحيث تتجلى من خلالها مناهجهم في التفسير.

كما اتبع منهج الاستقراء في تتبع نماذج من الإشارات التي استنبطها المفسرون الإشاريون، من خلال الوقوف على بعض التفاسير، ومناهج أصحابها. ثم اعتمد منهج التحليل في دراسة نماذج من التفاسير الإشارية للآيات القرآنية، والوقوف على دور هذه الإشارات في تهذيب النفوس وإصلاح القلوب، وإبراز أثرها في تقويم السلوك الإنساني.

مشكلة البحث:

التفسير الإشاري له دور مؤثر في تقويم السلوك الإنساني، ونظرية تحتاج إلى برهان عقلي، وتحليل علمي، لإثبات صحتها، من أجل الوصول إلى رأي واضح، وقاعدة ثابتة، تقوم على أساس دراسة نماذج من التفاسير الإشارية، لتلمس مدى تأثيرها في نفس المتأمل في معانيها، والمتدبر للإشارات المتولدة منها.

وهناك تساؤلات يقتضيها البحث، منها:

- ما مدى ارتباط التفسير الإشاري بمنهج التصوف؟
- ماهي آراء العلماء بالتفسير الإشاري؟
- ما هو دور التفاسير الإشارية في نشر الوعي الديني والأخلاقي في العصر العباسي؟
- من هم أشهر المفسرين الإشاريين في العصر العباسي، وما هي تفاسيرهم؟

حدود البحث ونطاقه:

وتُعنى هذه الدراسة ببيان مفهوم التفسير الإشاري، وضوابطه المشروعة، وأثره في تزكية النفس وتقويم السلوك، والتعرف إلى أشهر المفسرين الإشاريين في العصر العباسي (132هـ – 656 هـ) وهم: سهل التستري الذي كان جل نشاطه في تُسْتُر قرب شيراز في بلاد خوزستان، وأبو عبد الرحمن السلمي، والذي عاش في الكوفة وكان مقرئها، وعبد الكريم القشيري، الذي يُعد أستاذ بلاد خراسان بدون منازع، ومحي الدين بن عربي الأندلسي الذي استقر في دمشق من بلاد الشام. وتبين مناهجهم من خلال تفسيراتهم الإشارية.

الصعوبات التي واجهت الباحث:

لقد واجهت الباحث صعوبات جمة، تتمثل بحل بعض الرموز والمصطلحات الصوفية، وفهمها وتفسيرها، والتي تزخر بها كتب التفاسير الإشارية؛ وذلك لارتباط هذا اللون من التفسير بالعلماء المتصوفة، الذين يمتازون بالشفافية والروحانية، حيث تتطلب المصطلحات والرموز المبهمة، والمعبرة عن الفيوضات النورانية، والأحاسيس الوجدانية، إلى طول تأمل وعمق تدبر وتفكير، لفهم المقاصد والمرامي البعيدة التي أشار إليها المفسر الصوفي.

الدراسات السابقة

لقد اهتم قدماء المفسرين بتأويل آيات القرآن الكريم، لاستنباط الأحكام الشرعية، والاسترشاد بالمعاني القرآنية، في فهم معالم الدين، وقيمه النبيلة. وكان أكثرهم اهتمامًا علماء الصوفية، الذين برعوا في الاستنباط من آيات الذكر الحكيم وتأويل معانيها، والذي عرف فيما بعد بالمنهج الإشاري للتفسير.

قد انقسم المفسرون السابقون في تفاسيرهم الإشارية إلى أقسام أربعة:

الأول: ما كان أكثر تفسيره يُعْنَى بالظاهر من المعاني القرآنية مع إشارات قليلة؛ مثل تفسير النيسابوري.

الثاني: ما كان غالبه التفسير الإشاري، لكنه يتضمن القليل من التفسير الظاهر، مثل تفسير سهل التُسْتُرِيّ.

الثالث: ما كان التفسير الإشاري سمته العامة، ولا يعنى بظاهر التفسير، مثل تفسير أبي عبد الرحمن السلمي؛ لكنه لا يخالف ظاهر التفسير ولا يعارضه.

الرابع: ما أعرض كل الإعراض عن التفسير بالظاهر، وساد منهجه الكثير من الرمز والإبهام، والفيوضات الصوفية، كما شاعت فيه المصطلحات والمفاهيم الفلسفية، ويمثل هذا الجانب محي الدين بن العربي

الطائي في تفسيره. وقد أفدت من هذه التفاسير الصوفية في عرض القيم السلوكية التي تمثلها الإشارات واللطائف المستنبطة من الآيات القرآنية.

واهتم كثير من العلماء بطرح تنظيرات وتأصيلات ضابطة لمسلك التفسير الإشاري، نجد ذلك في بعض المؤلفات المختصة بتفسير القرآن وعلومه، مثل:

- (مناهل العرفان) للزُّرقاني، (والإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، و(التفسير والمفسرون) للذهبي، وغير ذلك.

وجاء من بعد هؤلاء المفسرين بعض العلماء المعاصرين، فصنفوا الكثير من التفاسير في هذا الفن الإشاري من علوم القرآن، منها على سبيل المثال:

- تفسير القرآن العظيم لعثمان بن محمد شطا البكري (ت: 1310هـ)[7] إلى سورة "المؤمنون.

وفي هذا التفسير تناول المؤلف المنهج التأويلي، إلى جانب تفسير ظاهر النص المتوافق مع قواعد اللغة وأصولها، وكان التفسير غنيًا بالتأويلات المفيدة، والإشارات اللطيفة، لكنه لم يتجاوز سورة المؤمنين، حيث توقف عندها.

- ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد "والمشهور بـ"التفسير المنير لمعالم التنزيل" لمحمد نووي الجاوي (ت: 1316هـ)[8] وهذا التفسير في مجلدين، صدرت طبعته الثالثة سنة (1374هـ).

---

[7] عُثْمَان بن محمّد شَطا البكري الشافعي، أبو بكر ولد: سنة (1266 هـ)، فقيه شافعي، مفسر، متصوف من أهل دمياط بمصر، استقر بمكة، وفاته: سنة (1310 هـ). من مصنفاته: "تفسير القرآن العظيم" وصل فيه إلى سورة المؤمنون، و"تحفة الأذكياء" شرح قصيدة سلوك طريق الأولياء المليباري و"كفاية الأتقياء" تصوف". انظر: وليد بن أحمد الحسين الزبيري وآخرون، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (مانشستر-بريطانيا: مجلة الحكمة، 1424هـ)، 1526/2.

[8] هو محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا، مفسّر، متصوّف، من فقهاء الشافعية. هاجر إلى مكّة المكرّمة وتوفي بها سنة 1316 هـ، عرّفه «تيمور» ب «عالم الحجاز»، له مصنّفات كثيرة منها: «مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» مجلدان، «مراقي العبودية»، شرح لبداية الهداية للغزالي، «وقائع الطغيان على منظومة شعب الإيمان». وغيرها. انظر: محمد أمين الصناوي، **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ)، المقدمة، 4/1.

وقد ذكر المؤلف –رحمه الله – في خطبة الكتاب أنه قد طُلب منه أن يكتب تفسيرًا للقرآن المجيد، فتردد في ذلك زمانًا طويلًا، ثم أجاب اقتداء بالسلف في تدوين العلم إبقاء على الخلق، وليكون ذلك عونا للقاصرين، وقد اقتبسه من تفاسير السابقين من أهل التأويل: كالفتوحات الإلهية، ومفاتيح الغيب، والسراج المنير، ومن تنوير المقباس، ومن تفسير أبي السعود. وسماه مع الموافقة لتاريخه «مراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد» معتمدًا في تسميته على حساب الجُمَّلِ في التأريخ. وقد جمع منهجه بين تفسير الظاهر والتأويل الإشاري، ووقف على تأويل الآيات التي يستفاد منها في تزكية النفوس وإصلاح القلوب. لكنه لم يربط بين هذا اللون من التفسير، وبين المنهج التربوي للسلوك الإنساني.[9]

– نفحة الرحمن في تفسير القرآن لمحمد بن حسن الصيادي "أبو الهدى" (ت: 1328هـ) .[10] ولم أعثر على نسخة من هذا التفسير، وقد أثبت هذا التفسير بين التفاسير الإشارية، في سياق ترجمة الصيادي رحمه الله.[11]

- الواردات الإلهية :لمحمد بن عبد الغني البيطار (ت: 1328هـ).[12]

---

[9] انظر: محمد أمين الصناوي، **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**، المقدمة، 5/1.

[10] محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني، أبو الهدى: صوفي، شاعر، كان أشهر علماء الدين في عصره. ولد في خان شيخون من أعمال معرة النعمان، وتعلم بحلب وبغداد. وعاد إلى سورية، فولي نقابة الأشراف لعموم ولاية حلب، ثم اتصل بالسلطان عبد الحميد، فأكرمه وأغدق عليه وقلده مشيخة المشايخ. ولما خلع السلطان عبد الحميد، نفي أبو الهدى إلى جزيرة الأمراء في "رينكيبو" فمات فيها...انظر: عادل نويهض، **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»** (بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1988م)، 518/2.

[11] انظر: عادل نويهض، **معجم المفسرين**، 518/2.

[12] محمد (بهاء الدين) بن عبد الغني البيطار: فاضل، له نظم ونثر وعلم بالتصوف. دمشقي المولد والوفاة. حفظ القرآن، وجوّده على أبيه. وقرأ عليه جملة من كتب العربية وعلوم الدين، وقرأ بعض كتب الفلك، وأكثر من مطالعة كتب المتصوفة. (الواردات الإلهية) ثلاثة أجزاء، و (فيض الواحد الأحد في معنى خلود الأبد وكتبه المخطوطة، كلها عند ابنه الأستاذ محمد بهجة البيطار بدمشق. انظر: الزركلي، **الأعلام**، 211/6.

وقد طبع الكتاب بعنوان: " الواردات الإلهية في التفسير على طريقة الصوفية بالإشارة وصريح العبارة " في ثلاث مجلدات، من تحقيق الشيخ أحمد فريد المزيدي، وهو يُعنى بالإشارات واللطائف الصوفية، إلى جانب التفسير بظاهر النص.

- قرة العين من البيضاوي والجلالين ليوسف بن إسماعيل النبهاني (ت: 1350هـ).[13]

حوى هذا التفسير صفوة ما في تفسير البيضاوي وتفسير الجلالين، متميزاً بوضوح العبارة وبساطة الأسلوب. متجاوزًا الكثير من الإسرائيليات الواردة في التفسيرين، كما امتاز بتمحيص الروايات وتفنيدها، والابتعاد عن كل ما خالف الشرع الحنيف، واعتمد التأويل والإشارة في تفسير الكثير من الآيات؛ ولم يتعارض في أي من إشاراته مع ظاهر النص في التفسير. إلا أن الشيخ رحمه، لم يربط بين المعاني السامية للتوجيهات القرآنية وبين السلوك الإنساني.

- تفسير القرآن، للحسن بن محمد بوجمعة البعقيلي (ت: 1368هـ)[14]. ولم يتسن لي مطالعة هذا التفسير.
- ضياء الأكوان في تفسير القرآن، لأحمد سعاد العقاد[15] (ت: 1203هـ). صدر منه تفسير الجزء الأول والجزء الثاني، وقد صدرت الطبعة الأولى سنة 1391 هـ، وضح المؤلف منهجه بقوله" :فقد عزمت – بحول الله

---

[13] يوسف بن إسماعيل النبهاني، الملقب ببوصيري عصره (ت: 1849– 1932 م) نسبته إلى بني نبهان من عرب البادية بفلسطين، استوطنوا قرية إجزم التابعة لحيفا في شمال فلسطين. وفي هذه القرية ولد يوسف ونشأ وتوفي بعد أن تعلم بالأزهر واستنبول، وتنقل في أعمال القضاء، له كتب كثيرة منها: هذا التفسير، وغيره الكثير، انظر: محمد أحمد درنيقة، **معجم أعلام شعراء المدح النبوي** (بيروت: دار الهلال، 2003م)، 444 باختصار.

[14] الحسن بن محمد ابن بوجمعة البيضاوي البعقيلي: فقيه متصوف. أصله من بعقيلة في سوس، تعلم بها ثم بفاس (1318) واستقر في الدار البيضاء (1348) إلى أن توفي. قال المختار السوسي: من أعظم مزايا المترجم أنه يشتغل دائما بقلمه فقها وأصولا وتاريخا وتفسيرا وحديثا، فقد طبع من مؤلفاته 21 كتابا في مطبعته الخاصة زيادة على كتب سوسية متنوعة نشرها. انظر: الزركلي، **الأعلام**، 222/2.

[15] أحمد سعد عثمان علي العقاد. ولد بمدينة الفيوم سنة 1307، التقى بالسيد محمد ماضي أبي العزائم فوجهه نحو الاستقامة. والتحق بالأزهر سنة 1324 ولما انتهت دراسته فيه عينته وزارة الأوقاف إماما وخطيبا في أحد المساجد، فاشتغل فيه بالتدريس للعامة. وله عدد من المؤلفات منها ما طبع، ومنها ما لم يزل مخطوطا منها: الدين النصيحة– كنوز العارفين في ميراث الأنبياء والصالحين– كتاب الهجرة النبوية. وغيرها الكثير. انظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر** (الرياض: طبع بإذن رئاسة إدارات

تعالى وقوته– على كتابة تفسير للقرآن الكريم، ليكون سهل العبارة ريّق الإشارة، يجمع بين جمال تفسيره، وأسرار تأويله، متحرّيًا في ذلك الصحيح من الأقوال مجتنبًا الحشو والتطويل" [16]، وكتب الدكتور عبد الحليم محمود مقدمة للجزء الثاني، جاء فيها: "ولصاحب الفضيلة الشيخ أحمد في تفسيره أنفاس مباركة، ولمحات روحية طيبة، نابعة من ممارسته للتصوف علما وعملا. وقد شاعت هذه الأنفاس واللمحات في تفسيره؛ فزادته بهجة إلى بهجة ونوراً على نور"[17].

- كما صدرت بعض البحوث المعاصرة التي تعنى بهذا الجانب من التفسير، منها: (**مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسِّر**) لمساعد الطيار، ناقش فيه **مسألة التفسير الإشاري وفوائده،** كما أفرد مقالًا مطوّلًا بعنوان: (**الاستفادة من التفسير الإشاري في تدبر القرآن**) أكّد فيه أهمية هذا النوع من التفسير بشرط الالتزام بالضوابط الأصولية، والتوافق مع مفهوم ظاهر الآيات، وعدم التعارض مع الأحكام الشرعية. وقد أفدت من هذا الكتاب، ومن منهجه في بيان مفهوم التفسير والتأويل والتدبر، لكن هذا المؤلف لم يسهب في شرح الإشارات التي استشهد بها في مصنفه، وإنما اكتفى في بسردها دون تعليق عليها.
- كتب فيصل محمود آدم بحثًا مطولًا في (التفسير الإشاري للقرآن: مفهومه، أصوله، أقسامه، شروطه)فصّل فيه مفهوم هذا النوع من التفسير، فذكر نبذة من العلماء الذين كتبوا في هذا الجانب، ثم قسّمه إلى مقبول متوافق مع ظاهر النص القرآني، ومرفوض يحكمه الهوى والشطط، والتعصب للمذاهب الفاسدة والضالة. ووضع شروطًا وضوابط محكمة للتفسير الإشاري المقبول. وقد أفدت من هذا المصنف في الوقوف على التفاسير الإشارية المقبولة المتوافقة مع ظاهر الشريعة.

البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية، 1406هـ)، 395/1 باختصار.

[16] انظر: منيع عبد الحليم محمود، **مناهج المفسرين** (القاهرة: دار الكتاب المصري، 2000م)، 362.

[17] انظر: الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، 1/ 396.

- كما ألف الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ت:2004 م)، تفسيرًا سماه: (**معارج التفكر ودقائق التدبر**) وهو تفسير إشاري للقرآن الكريم في خمسة عشر مجلدًا، بناه المفسر على التدبر والتفكر في آيات الذكر الحكيم، واستنباط الإشارات منها؛ إلا أنَّ هذا التفسير تضمن الكثير من الإسرائيليات التي ليس لها سند في روايتها؛ إضافة إلى الاستطرادات التي لا طائل منها، ولهذا التفسير قيمة علمية كبيرة؛ فهو مع اهتمامه بالمأثور، والقراءات المتواترة واللغة والمناسبات، والوحدة الموضوعية للنصوص القرآنية، فقد زخر بالعلوم الكثيرة والمعاني الجليلة.

ولكن كل من كتب في هذا المجال من التفسير، لم يربط بين هذه الدلالات الإشارية للآيات القرآنية، وبين السلوك الإنساني، وعلاج النفس البشرية وتهذيبها في بحث مستقل، يوثق العلاقة بين اللطائف والإشارات المستنبطة من آيات الذكر الحكيم، وبين حياة الإنسان وسلوكاته في كل المجالات؛ وقد عزمت على استثمار هذا الجانب من التفسير، وبيان أثره في تزكية النفس، وتقويم السلوك فاستعنت بالله أولًا، ورجعت إلى كل ما تصله يدي من المصادر والمراجع ثانيًا؛ متتبعًا أثر هذا اللون من التفسير، ودوره في إصلاح القلوب، وتزكية النفوس، وتعديل السلوك الإنساني وتقويمه؛ لعلّي أسهم في خدمة كتاب الله عز وجل، وأقدم الفائدة والنفع لهذه الأمة؛ في زمن تغلبت فيه الأهواء، وفسدت الطبائع، واندست النفوس في غمرات الشهوات، وغرقت في بحار الظلمات.

مخطط توضيحي للفصل التمهيدي وأقسامه

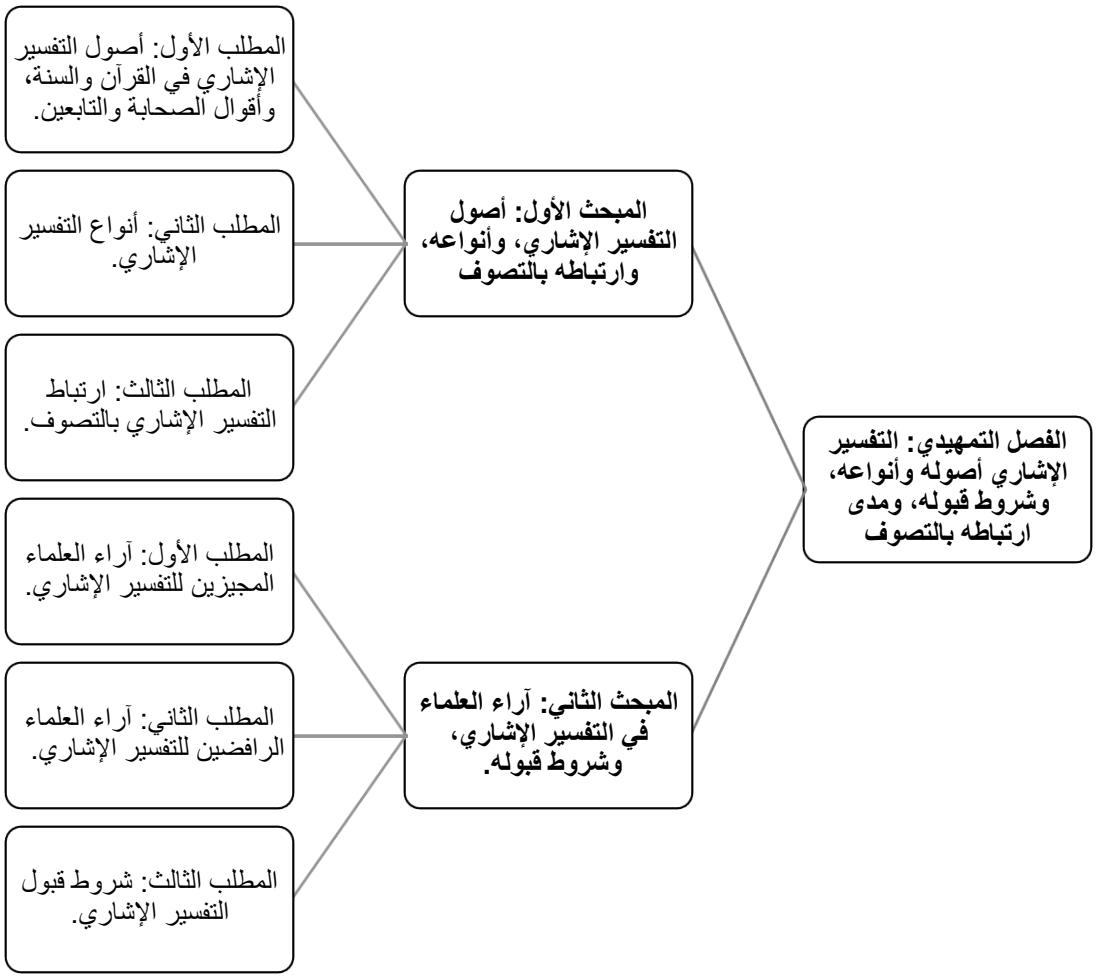

الفصل التمهيدي: التفسير الإشاري أصوله وأنواعه، وشروط قبوله، ومدى ارتباطه بالتصوف.

إنَّ الآيات القرآنية تحمل في طياتها دلالات وإشارات، حفزت العلماء الربانيين للاجتهاد في استنباط مقاصدها، وكشف أسرارها ومراميها. وسنقف في هذا الفصل على معنى التفسير الإشاري وأصوله وأنواعه، وشروط قبوله، ومدى ارتباط هذا النوع من التفسير بالتصوف ورجاله.

والإشارة لغة: قد ورد معناها في المعجمات اللغوية بمعنى الإيماء والتلويح والتوجيه يقول ابن منظور[18] في اللسان: "وأَشار الرَّجُلُ يُشِيرُ إِشارَةً إِذا أَوْمَأَ بيديْه... وأَشارَ عَلَيْهِ بالرَّأْيِ. وأَشار يُشِير إِذا مَا وَجَّه الرَّأْي".[19] **الإشارة اصطلاحًا:** قد ورد معناها في روح المعاني للآلوسي مقترنًا بالتأويل، حيث يقول: "التأويل إشارة قدسية ومعارف سبحانية تنكشف من سجف[20] العبارات للسالكين وَتَنْهَلُّ من سحب الغيب على قلوب العارفين".[21] وفي معنى **التفسير الإشاري** يقول الإمام الماتريدي: "يقصد بالتفسير الإشاري: تأويل القرآن على خلاف ظاهره؛ لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس...".[22]

وقد حملت بعض الآيات القرآنية دليلًا على دعوة الله –سبحانه– عباده للتأويل والاستنباط في تدبر آيات كتابه العزيز، والتفكر في معانيها ومقاصدها؛ وحضهم على كشف أسرارها؛ حيث يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

---

[18] ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري، ويكنى أبا الفضل، وهو عالم وإمام باللغة، ولد بمصر سنة 630 هـ، وقيل بطرابلس الغرب، ولي القضاء بطرابلس، وعمل بديوان الإنشاء بالقاهرة، له مؤلفات كثيرة، بلغت نحو خمسمائة مجلد من أشهرها: **لسان العرب**، مختار **الأغاني**، مختصر مفردات ابن البيطار وغيرها، توفي بمصر سنة 711 هـ. انظر: الزركلي، **الأعلام**، 108/7.

[19] محمد بن مكرم، ابن منظور الأنصاري، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، 1414هـ)، مادة (شور).

[20] السجف: الستر. ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (سجف).

[21] محمود بن عبد الله الآلوسي، **تفسير الآلوسي (روح المعاني)**، تحقيق: علي عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ)، 6/1.

[22] الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 281/1.

كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، إنه يدعوهم ليعلموا ويتبينوا أن كلام الله –سبحانه– متّسق منتظم، ليس فيه اضطراب ولا خلل، وأن إعجازًا إلهيًا مستكنًا في كل سورة، وفي كل آية، وفي كل كلمة؛ يحمل في طياته كل معاني الحياة. وفي قوله –سبحانه–: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[النساء: 78] يجد المتأمل في هذه الآية الاستفهام الإنكاري الذي يوحي باللوم والتوبيخ لكل من لا يتفكر في معاني الآيات القرآنية، ولا يدرك مقاصدها ومراميها.

إنه يحض على التدبر في آياته، وليس المراد بذلك أنهم لا يفهمون الكلام العربي نفسه، أو أنهم لا يفهمون ظاهره، لأن القوم عرب والقرآن لم يخرج عن لغتهم، فهم يفهمون ظاهره ولا شك، وإنما أراد بذلك: أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، فحضهم على تدبر آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولن يصلوا إليه بغير تأمل وتدبر. وفي قوله: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: 24] يحض المولى –سبحانه–خلقه على تدبر آيات القرآن الكريم، والتفكر في معانيها، بالقلب والعقل، والإنكار على المعرضين عن ذلك، فيصمهم بعمى القلوب، وإقفال منافذها.

قال الهرويُّ (ت: 481هـ)[23]: في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ معناه: أفلا يتفكَّرُون فيعتبرون، يُقَالُ: تَدَبَّرْتُ الأمر: إذا نظرتَ في أدباره وعواقبه، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[المؤمنون: 68]، أَيْ: لَمْ يَتَفَهَّمُوا مَا خُوطِبُوا بِهِ فِي الْقُرْآنِ.[24] فالتفكر والتدبر أصل في التفسير الإشاري الناتج عن فهم الدلالات السياقية للآيات القرآنية. ولكنه لا يقبل حتى يتفق مع المعنى الظاهر للنص الذي هو الأصل، ويكون المعنى الإشاري فرعًا عنه، وتابعًا له، تحكمه الضوابط والشروط التي لا تخل بالمعنى الظاهر للآيات.

ويرى سعد الدين التفتازاني (ت: 792هـ)[25]: في شرحه للعقائد النسفية، أن التفسير الإشاري الذي يذهب إليه أرباب السلوك، والذي يمكن التوفيق بينه وبين ظاهر المعنى المراد، هو من كمال الإيمان، وتمام العرفان، فيقول: "وأما ما يذهب إليه بعض المحققين بأن النصوص على ظاهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تكشف عن أرباب السلوك، يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهي من كمال الإيمان ومحض العرفان..."[26]

---

[23] الهروي: عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، ويكنى أبا إسماعيل، ولد سنة 396 هـ، وهو عالم باللغة والحديث، ويدعى شيخ خرسان في عصره، اهتم بالعلم حتى تبحّر فيه، وتتلمذ على عدة شيوخ منهم: أَبو الفضل الجارودي، يحيى بْن عمار السجزي، وسمع من أصحاب أَبِي العباس الأصم وغيره، له مؤلفات عديدة منها: ذم الكلام، منازل السائرين، "تفسير القرآن" بالفارسية، توفي سنة 481 هـ. انظر: محمد بن محمد، ابن أبي يعلى، **طبقات الحنابلة** (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، 247/2. محمد صديق خان بن حسن القِنَّوجي، **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول** (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007م)، 175.

[24] أحمد بن محمد الهروي، **الغريبين في القرآن والحديث**، تحقيق: أحمد فريد المزيدي (الرياض: مكتبة نزار مصطفي الباز، 1999م)، 615/2.

[25] التفتازاني: مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، ويعرف بسعد الدين، ولد بتفتازان سنة 722 هـ، وهو من كبار أئمة العربية، أخذ العلم عن كبار العلماء، حتى أصبح عالماً متبحراً بالعلم، وكانت له دروس علمية يحضرها عدد من الطلبة، قضى حياته بسرخس، حتى أبعده تيمورلنك إلى سمرقند، له مصنفات عديدة منها: تهذيب المنطق، المطول، المختصر، توفي بسمرقند سنة 792هـ، ودفن بسرخس. انظر: القِنَّوجي، **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**، 464. الزركلي، **الأعلام**، 219/7.

[26] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، 224/4.

كما يُعَرِّف الشيخ الصابوني (ت: 1442هـ)[27] هذا النوع من التفسير بقوله: " التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك ..."[28]. فالتفسير الإشاري الذي يُعنى باستنباط مدلول النصّ القرآني، ولا يقتصر على المعنى الظاهر للآيات، هو استجابة عملية لدعوة الحق – سبحانه– لتدبر كتابه، وفهم معاني آياته.

المبحث الأول: أصول التفسير الإشاري، وأنواعه، وارتباطه بالتصوف.

ليس منهج التفسير الإشاري بدعًا في الدين، ولا غريبًا عن مقاصد الشريعة، فقد عرف ذلك الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان، من خلال النصوص القرآنية والتوجيهات النبوية. فقد ظهرت لهم إشارات خَفيّة، عبروا عنها عند تلاوة بعض الآيات القرآنية، وتبعهم في استنباط هذه الإشارات أصحاب السلوك من الصوفية الربانيين، فجعلوا منها منهجًا متميزًا في تفسير كلام الله العزيز الحميد؛ ولم يغفلوا المعنى الظاهر المتوافق مع قواعد الشريعة ومقاصدها؛ حيث جمعوا بين هذه الإشارات وبين التفسير الظاهر للنصوص، حسب ما تقتضيه اللغة، وتقره الأحكام. ولم يتكلّفوا لِيّ أعناق الآيات، ليفسروا القرآن الكريم حسب أهوائهم، بل كانت المعاني الظاهرة التي تحكمها القواعد اللغوية والمقاصد الشرعية، هي الأصل في تفسيراتهم.

---

[27] الصابوني: هو محمد علي بن جميل الصابوني، أحد أبرز العلماء المفسرين المعاصرين، وُلد في مدينة حلب السورية سنة 1928م، تلقّى تعليمه على يد والده الشيخ جميل الصَّابوني، عمل بالتدريس ثماني سنوات في الثانويات العامة، ثم انتدب للتدريس بمكة المكرمة في كلية الشريعة، من أهم مؤلفاته: النبوة والأنبياء، صفوة التفاسير، **التبيان في علوم القرآن**، توفي في تركيا سنة 2021م. انظر: الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، 446/2. محمد عدنان كاتبي، **رابطة العلماء السوريين**، (https://islamsyria.com/site/show_cvs/1268).

[28] انظر، محمد علي الصابوني، **التبيان في علوم القرآن** (كراتشي: مكتبة البشرى، 2010م)، 115.

المطلب الأول: أصول التفسير الإشاري في القرآن والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين.

إن تدبر القرآن الكريم والتفكر في آياته، ومقاصد أحكامها، مطلب إيماني ناتج عن الاستجابة لمراد الله وأمره، عرفه النبي وأصحابه، فتفكروا في الآيات، وتدبروا معانيها، ولربما قضى أحدهم ليله كله يردد آية من كتاب الله، ويكرر تلاوتها ممعنًا في التفكر فيها، مستغرقًا في تدبر عبارتها وإشارتها؛ فعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها - قَالَتْ: «قَامَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً».[29]

لقد كان يُشّرِعُ لأصحابه، بل ولأمته حقيقة التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم، فيستغرق في معنى آية طوال ليله حتى يصبح، فيتأسى به الصحابة الكرام متدبرين متفكرين، لا يمرون بآية حتى يحفظوها ويفهموا معانيها ومراميها. فعَنْ أَبِي ذَرٍّ[30]-رضي الله عنه- قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَيْلَةً فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 7/118]، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ... ».[31] هذه الآية الكريمة يستصحبها في سائر أركان صلاته، قد ملأت وجدانه، فعاشها سائر ليله متدبرًا متفكرًا.

---

[29] محمد بن عيسى بن الضحاك الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975م)، 310/2، رقم 448.

[30] أبو ذر: هو جندب بن جنادة بن سفيان الغفاري ويكنى أبا ذر، صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، من بنى غفار، وهو من أعيان الصحابة قديم الإسلام، أسلم بمكة قبل الهجرة، ثم هاجر إلى المدينة وشهد جوامع المشاهد، ولم يشهد مع رسول الله بدرا، وقد حدّث عنه بأحاديث كثيرة، روى عنه: أبو سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري وابن عباس وابن عمر، هاجر إلى المدينة وشهد جوامع المشاهد، مات بالربذة في خلافة عثمان بن عفان سنة اثنتين وثلاثين. محمد بن حبان بن أحمد التميمي، **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار** (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م)، 31/1. علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م)، 174/66.

[31] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 257/35.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قرأت الليلة آية أسهرتني: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ما عنى؟ ..."[32]. وتتوالى الأخبار وتتوارد عن النبي وأصحابه ومن التابعين، كلها توحي بتدبرهم آيات القرآن الكريم، والتفكر في معانيها، واستنباط إشاراتها. وقد تنبه لهذا اللون من التفسير علماء الأمة من لدن الصحابة الكرام، الذين فهموا أن هذا القرآن حمّال وجوه، وأنَّ معانيه لا حصر لها ولا حد؛ فتدبروا آياته وتفكروا في معانيها، وقاسوا الخفي على الجلي، واعتبروا بأسباب نزوله وقصصه ومواعظه.

فهذا عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس أوَّلُ من أَوَّلَ الآيات القرآنية، وقاس النص على المناسبة، وفهم من مدلوله مالم يفهمه الكثير من الصحابة يومئذٍ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَأْذَنُ لِأَهْلِ بَدْرٍ، وَيَأْذَنُ لِي مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَأْذَنُ لِهَذَا الْفَتَى مَعَنَا، وَمِنْ أَبْنَائِنَا مَنْ هُوَ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ. قَالَ: فَأَذِنَ لَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَأَذِنَ لِي مَعَهُمْ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[النصر: 1]، فَقَالُوا: أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فُتِحَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ وَيَتُوبَ إِلَيْهِ. فَقَالَ لِي: مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - بِحُضُورِ أَجَلِهِ... فَقَالَ لَهُمْ: " كَيْفَ تَلُومُونِي عَلَى مَا تَرَوْنَ؟"[33]. لقد اجتاز معنى ظاهر النص البين الواضح، إلى معنى آخر فهمه، هداه إليه عقله، وأرشدته بصيرته، فرأى مالم يره غيره.

إنه لم ينكر الظاهر ولم يغفل عنه، لكنه تجاوزه إلى ما يحتمله النص من معنى ربما لم يخطر ببال أحد سواه، فلما سمعوه منه وافقوه وأثنوا عليه. ولعل عبد الله بْن مَسْعُودٍ[34] فهم مقاصد الشريعة من تفسير

---

[32] علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981م)، 256/2، رقم 4228.

[33] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 232/5.

[34] ابن مسعود: عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، يكنى بأبي عبد الرحمن، إمام عظيم من فقهاء الصحابة، عرف بحبر الأمة نسبة إلى غزارة علمه، سكن الكوفة، وكان من السابقين الأولين للإسلام، فهو سادس ستة في الإسلام، شهد بدرا واليرموك، وهاجر الهجرتين، حدّث عن:

القرآن بتأويل آياته، وأدرك إشاراته، حينما أفصح عن ذلك بقوله: " مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَعَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ فِيهِ خَبَرَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ " وفي رواية أخرى: "فَلْيُثوّر الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ".[35]

ولقد اهتم التابعون بتأويل معاني الآيات القرآنية وفهم مدلولاتها، واشتهر من علمائهم مجاهد بن جبر المخزومي (ت: 104هـ)، والعز بن عبد السلام[36](ت: 660هـ) وعكرمة (ت:723هـ)، والزهري[37](ت: 124هـ) وغيرهم. ففسر مجاهد قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾[المسد: 4] فقَالَ: «يَعْنِي حَمَالَةَ النَّمِيمَةِ، تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[38] حيث قاس سعيها بالفتنة التي تؤدي إلى الوقيعة بين الناس، والفساد في الأرض بحمل الحطب وإيقاده في المواقد، التي تؤجج بها النيران.

كما استنبط العز بن عبد السلام من الآية السابقة صحة نكاح الكفار."[39] لأن الآية أثبتت العلاقة الزوجية بتسمية أم جميل بنت حرب "امرأته" وتسمية آسية بنت مزاحم بـ " امرأة فرعون" في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾[التحريم:11].

النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه: أبو موسى الأشعري، وأبو هريرة، وابن عباس وغيرهم، مات وهو ابن بضع وستين سنة قبل قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 32هـ ودفن بالبقيع. انظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، 33/51-58. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 461/1.

[35] أحمد بن الحسين البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، 2003م)، 347/3، رقم1808.

[36] ابن عبد السلام: هو عبد العزيز بن عبيد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، عالم وفقيه بلغ رتبة الاجتهاد، ولد سنة 578هـ، عرف بعلمه حتى قصده الطلبة من شتى البلاد، وتخرج به أئمة بالعلم، من أهم شيوخه: عبد اللطيف الصوفي، والقاسم بن عساكر، وابن طبرزد، ومن تلاميذه: تقي الدين بن دقيق العيد، والدمياطي، وأبو الحسين اليونيني وغيرهم، من أهم مؤلفاته: الفتاوى السديدة، القواعد الكبرى والقواعد الصغرى، توفي سنة 660هـ. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 318/18.

[37] الزهري: هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، يكنى بأبي بكر، وهومن فقهاء التابعين في المدينة ومن المحدثين فيها، ولد في أواخر عصر الصحابة سنة 50 هـ، روى عن: عبد الله بن عمر وأنس بن مالك، سمع منه: سهل بن سعد، والسائب بن يزيد، وعبد الله بن ثعلبة، توفي الزهري سنة 124هـ، وقبر بأدما وهي خلف شغب وبدا. انظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، 55/294. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 5/17-18.

[38] مجاهد بن جبر المخزومي، تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل (القاهرة: دار الفكر الإسلامي الحديثة، 1989م)، 759.

[39] الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، 409/1.

وبالإشَارَةِ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَتخرج الْحَيّ من الْمَيِّت وَتخرج الْمَيِّت من الْحَيّ وترزق من تشَاء بِغَيْر حِسَاب﴾[آل عمران: 27] قَالَ مُجَاهِد: تخرج الْحَيّ، مَعْنَاهُ النُّطْفَة تخرج حَال كَونهَا ميتَة، وَيخرج من تِلْكَ الْميتَة الْحَيّ. وقد اعتمد هذه الإشارة كل من ابن مسعود، والضَّحَّاك[40]، والسدي[41]، وإسماعيل بن أبي خالد[42]، وقتادة[43]، وسعيد بن جبير، لكن الحسن البصري[44] فهم من تلك الآية معنًى أبعد، حيث اعتبر الحياة هي الإيمان، والموت هو الكفر، فقال: "يخرج الْمُؤمن الْحَيّ، من الْكَافِر الْمَيِّت."[45] وهكذا يتضح لكل متأمل مدى اهتمام الصحابة والتابعين بمقاصد الشريعة ومآلات الأحكام في تدبر المعاني وتأويلها وفهم مراميها، مع الاحتفاظ بالمعنى الظاهر للنص القرآني.

المطلب الثاني: أنواع التفسير الإشاري.

---

[40] الضحّاك: هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، ويكنى أبا القاسم، وهو تابعي جليل، ومفسر مشهور عرف بعلمه، كان يتردد بين بلخ وسمرقند، روى عن: أنس وابن عمر وأبي هريرة، وجماعة من التابعين، حدث عنه: عمارة بن أبي حفصة، وأبو سعد البقال، وجويبر بن سعيد، كان يؤدب الأطفال، وكان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي، له "تفسير" استخدمه الثعلبي والطبري عن طريق الرواية أو بواسطة النقول، توفي بخراسان سنة 105هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 598/4-600. عادل نويهض، **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»**، 237/1.

[41] السدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، تابعي، وأصله من الحجاز، وهو إمام ومفسر عرف بعلمه، سكن الكوفة، حدث عن: أنس بن مالك، وابن عباس، وعبد خير الهمداني وغيرهم، حدث عنه: شعبة، وسفيان الثوري، وزائدة وآخرون، توفي سنة 128هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 264/5. الزركلي، **الأعلام**، 317/1. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، 1413هـ)، 68/9.

[42] إسماعيل بن أبي خالد: إسماعيل بن أبي خالد البجلي الأحمسي، إمام حافظ كبير، ومحدث في الكوفة أيام زمانه، وهو من صغار التابعين، كان يعمل طحّانا، أثنى عليه العلماء فقالوا هو: ثقة وحجة، حدث عن: عبد الله بن أبي أوفى، وأبي جحيفة وهب السوائي، وعمرو بن حريث المخزومي وغيرهم، روى عنه: الحكم بن عتيبة، ومالك بن مغول، وشعبة وآخرين، مات سنة 146هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 176/6.

[43] قتادة: هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي، يعد من كبار التابعين، وهو مفسر ومحدث وفقيه، ولد سنة 60هـ، كان يضرب به المثل في قوة حفظه، روى عن: عبد الله بن سرجس، وأنس بن مالك، وأبي الطفيل الكناني، كما روى عنه: أيوب السختياني، وابن أبي عروبة، ومعمر بن راشد، من مؤلفاته: تفسير القرآن، وعواشر القرآن، توفي بالطاعون سنة 118 هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 269/5-270. نويهض، **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»**، 435/1-436.

[44] الحسن البصري: الحسن بن يسار البصري، يكنى بأبي سعيد، عالم وفقيه، وهو من كبار التابعين وساداتهم، ولد بالمدينة سنة 21هـ، رأى بعض الصحابة وسمع منهم، كان يهتم بالعلم حتى لقب بحبر الأمة، سكن البصرة وولي قضاءها، له تفسير يعد من أشهر التفاسير القديمة رجع إليه كثير من المفسرين كالطبري والثعلبي، ومن كتبه أيضا: نزول القرآن والعدد في القرآن، توفي بالبصرة سنة 110 هـ. انظر: الزركلي، **الأعلام**، 2 /226-227. نويهض، **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»**، 148/1-149.

[45] انظر: محمود بن أحمد العيني، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، 136/18.

إن التفسير الذي يستمد مقوماته من النص الماثل أمام المتأمل في الآية القرآنية، من غير تحريف ولا تأويل، ولا خروج عن حدود الدين واللغة، وهو ما تحمله النصوص التي استدلوا بها لصحة التفسير الإشاري. وقد قسم بعض العلماء التفسير الإشاري أنواع ثلاثة: التفسير الإشاري اللفظي، التفسير الإشاري المعنوي، التفسير الإشاري الرمزي.

أما التفسير الإشاري اللفظي:

فيتأمل المفسر الكلمة في الآية ليستنبط منها الإشارة التي تفهم من سياقها العام، فمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ [البقرة: 233] الذي يحكم بوجوب النفقة على الرجل؛ استدل المفسرون على أن الوالدات إنما ولدن للآباء ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم"[46]. ففي هذا التفسير الإشاري السليم الذي لا يعكر المعنى الظاهر للنص، ولا يخالفه ولا يجافيه، يعتبر التفسير الإشاري اللفظي مقبولاً عند عامة المفسرين من العلماء.

فنجد ابن عجيبة[47] صاحب تفسير "البحر المديد" يقف عند كلمة **"قاموا"** في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ...﴾[الكهف: 14] فيستنبط من هذه الكلمة إشارات ولطائف، لا تنقض الظاهر من معنى النص، فيقول: " إنَّا إذا حملنا القيام على الحسي ففيه دليل لأهل البداية على القيام في الذكر والسماع. وإذا حملناه على القيام المعنوي، وهو النهوض في الشيء، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية على السكون وعدم التحرك".[48]

---

[46] الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، 409/1.

[47] ابن عجيبة: أحمد بن محمد بن المهدي، ابن عجينة، الحسني الأنجري، عالم ومفسر صوفي، ولد سنة 1160هـ، وهو من أهل المغرب، له مصنفات كثيرة من أهمها: **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، أزهار البستان، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) سنة 1224هـ. الزركلي، **الأعلام**، 245/1.

[48] أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي (القاهرة: الدكتور حسن عباس زكي، 1419هـ)، 254/3.

وفي تفسير الآية: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ. أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: 26]، يقف أبو منصور الماتريدي[49] عند قوله تعالى: ﴿فَقُولِي﴾ فيستنبط منها أحكامًا شرعية تتعلق بالإشارة، تمضي الطلاق، وتجيز النكاح، فقال: "ليس على القول نفسه، ولكنه إشارة، أشارت إليهم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فإن كان على هذا، ففيه دلالة أن الإشارة إذا كانت بحالة مُفْهِمَة المراد تعمل عمل القول نفسه والكلام؛ ولذلك وقع الطلاق بالإشارة والنكاح، وكل عقد من الأخرس وغيره، إذا كانت الإشارة مفهومة معقولة"[50].

ولسهل التستري وقفات عند الكلمات فنجده يقف عند كلمة وسوس في الآية: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطان﴾[الأعراف: 20] ليستنبط من معناها إشارات متعددة فيقول: "الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهمّ والتدبير...".[51]

أما التفسير الإشاري المعنوي:

وهو التفسير المرتبط بالمعنى العام للآية، ولعلماء الصوفية مضمار واسع في هذا الجانب من التفسير الإشاري. لذلك نجد للإمام القشيري وقفات رائعة في تفسيره. فعند تدبر هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَاّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً﴾[الفرقان: 68] يفهم من قوله تعالى: «إِلهاً آخَرَ»: إشارات شتى فيقول: " ففي الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من

---

[49] أبو منصور الماتريدي: محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، ويكنى أبا منصور، وهو من أئمة علم الكلام، وينسب إليه الماتريدية، يلقب بإمام الهدى وإمام المتكلمين، ومصحح عقائد المسلمين، عاش في "ماترید" وهي محلّة بسمرقند، له عدة مؤلفات من أهمها: التوحيد، أوهام المعتزلة، والرد على القرامطة، مات بسمرقند سنة 333هـ. الزركلي، **الأعلام**، 19/7. نويهض، **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»**، 611/2.

[50] الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 231/7.

[51] سهل بن عبد الله التُستري، **تفسير التستري**، تحقيق: باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، 1423هـ)، 65.

الأحجار، والمنحوتة من الأشجار. وكما تتصف بهذا النفوس والأبشار، فكذلك توهّم المبارّ والمضارّ من الأغيار شرك."[52]

إنه يرى إلى جانب المعبودات الحسية كالأصنام والأوثان معبودات معنوية وهي توهم ما ينال الإنسان من الضرر والنفع مصدره من عند غير الله. كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالحَقِ﴾ أن تمكينها من اتباع الهوى هو الذي يتسبب بهلاكها في الآخرة.

ويستدل على وجوب قتلها بالحق، أن يذبحها بسكين المخالفات، ويعقب على ذلك بقوله: "فما فلاحك إلا بقتل نفسك التي بين جنبيك". [53]

[52] انظر: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، **لطائف الإشارات**، تحقيق: إبراهيم البسيوني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت)، 650/2.

[53] انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**، 650/2.

أما التفسير الإشاري الرمزي:

فهو تفسير مصدره الذوق والوجد، ومنبعه الفيوضات النورانية التي تعتري السالك السائر في طريق التصوف، الذي طوى أكوان الأغيار، واستغرق في بحار الأنوار، فوصل إلى مقامات تجلت له فيها أسرار المعرفة، وأُكرم بفيض مكنونات العلم، وكنوز العطاء؛ فأشرقت روحه بشموس الوصال، وفاضت على قلبه جليل المعاني، وغزير الأفكار، فترددت عنده عبارات العشق، والمحبة، والوجد، والشوق، وطلب القرب. فنجد الإمام القشيري يقف متدبرًا متأملاً قوله تعالى: ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾[الحج: 19].

فيُفَصِّل في ماهية اللباس، لباس الكفر ولباس الإيمان لكل من الكافر والمؤمن، في الدنيا والآخرة، فيقول: "أما الذين كفروا فلهم اليوم لباس الشرك وطرازه[54] الحرمان، ثم صدار[55] الإفك وطرازه الخذلان. وفي الآخرة لباسهم القطران وطرازه الهجران. .."[56] لقد تجاوز الشيخ اللباس الحسي ليعبر إلى اللباس المعنوي، فالكافر يتخذ من الشرك لباسًا في الدنيا، يجازى بالحرمان والهجران في الآخرة، ولباس التقوى للمؤمن في الدنيا يكافأ بالقرب من الله ومحبته في الآخرة.

أما سهل التستري فيقف عند قول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ ... ﴾[البقرة: 273]. ليرى فقرًا غير الفقر المعهود للناس؛ فالفقر عنده انكسار لجلال الله، وافتقار لعظمته، فيقول:"فهذه أحوال أقوام مدحهم الله تعالى لشدة الافتقار إليه، لا استطاعة لهم ولا قوة إلا به ومنه، هو حولهم وقوتهم ..."[57]. لقد فهم من الآية فقرًا معنويًا غير الفقر المحسوس، عبر عنه

---

[54] الطِّراز: الشَّكل. الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة (طرز).

[55] الصدار: هو ثوب يُغطّى به الصدر والمنكبان. نشوان بن سعيد الحميرى، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وغيره (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1999م)، 3696/6.

[56] القشيري، **لطائف الإشارات**، 535/2.

[57] التستري، **تفسير التستري**، 43.

بالانكسار والتذلل لعظمة الله، واستكانتهم لمقاديره، فلايرون سوى تصاريفه بهم، فتسكن قلوبهم إليه، ولا يلتفتون إلى ما سواه.

لكن التفسير الرمزي المغرق في الرمزية يبدو جليًا عند الشيخ أحمد سعد عثمان علي العقاد[58]، في تفسيره "ضياء الأكوان في تفسير القرآن"، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[البقرة: 238]، يقول: "وللعارفين مشاهد، فصلاة الجسم بالحركات الظاهرة، وصلاة القلب بالحضور والخشية، وصلاة النفس بالخوف والأدب، وصلاة الروح بشهود الحق متجليا مشهودا بأنواره، حيث أشار لذلك رسول الله بقوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فالمؤمن لا تقر عينه وينشرح صدره إلا بشهود مولاه قريبا حاضرا جميلا جليلا".[59]

بل نجده يُغرق في الإشارة والرمز عندما يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة: 196] فبعد أن يتحدث عن الحج المعروف عند المسلمين يذكر نوعا آخر من الحج هو الحج عند من سماهم العارفين، فيقول: "ولكن للعارفين حج آخر يحجونه متى اشتاقوا لحبيبهم، وهو حج الروح، لا يتكلفون سفرًا ولا انتقالا؛ لأن مطلوبهم في أنفسهم وهو القلب الذي هو بيت الله العامر بأسرار الله وأنواره "[60].

لقد نقلنا إلى مناسك غير المناسك المعهودة، وسعي غير سعي العامة، وطواف غير طوافهم، حول كعبة غير كعبة العامة، تتمثل بالقلب العامر بالأنوار الربانية، والأسرار الرحمانية. ويرى الباحث: أن هذا النوع من التفسير، إن كان صاحبه يعتبر أن في الحج إشارة إلى توجه الروح إلى الله –سبحانه– قصد

---

[58] العقاد: هو أحمد سعد عثمان علي العقاد، أحد علماء التفسير، ولد بمدينة الفيوم عام 1307 هـ، نشأ في بيئة صالحة فاهتم بتعلم القرآن الكريم حتى حفظه وتعلم تجويده، وبعدها التحق بالأزهر الشريف ليواصل تعليمه، وبعد تخرجه عيّن إمامًا وخطيبًا في مسجد من كبار المساجد، من أهم شيوخه: محمد ماضى أبو العزائم، من أهم كتبه: الدين النصيحة، الهجرة النبوية، مواهب الإنسان، توفي عام 1373 هـ. انظر: منيع محمود، **مناهج المفسرين**،361.

[59] أحمد سعد العقاد، ضياء الأكوان في تفسير القرآن (الإسكندرية: مطابع عابدين، 1970م)، 149/2. الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، 397/1.

[60] العقاد، ضياء الأكوان في تفسير القرآن، 84/2. الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، 398/1.

مرضاته وحبه، من غير تعطيل لمعنى ظاهر الآية، أنَّ الحج إلى بيت الله الحرام، الذي هو ركن الإسلام الخامس هو الأصل في معنى الآية، يكون ذلك مقبولًا، باعتباره فهمًا قيميًا أخلاقيًا، لا يخرج النص عن معناه الحقيقي من ظاهر المعنى. أما أن يقف المفسر على الإشارة، ليعدها أصل المعنى، ويفهم القارئ منها أن حج الخاصة يقتصر على حج الروح وسيرها، وهو مختلف عن حج العامة؛ فهذا لا يقبل البتة؛ لأنه يتعارض مع العقيدة السليمة.

المطلب الثالث: ارتباط التفسير الإشاري بالتصوف.

أولًا: تعريف التصوُّف والصوفي لغة:

من هم الصوفية؟ وما هو التصوف؟

يقول الزمخشري في (مادة: ص و ف): (فلان يلبس الصوف والقطن، أي ما يعمل منهما ... أو إلى أهل الصُّفَة، فقيل: مكان الصُّفِّية الصُوفيَّة، ...أو إلى الصوف الذي هو لباس العُبَّاد، وأهل الصوامع). [61] وفي المعجم الوسيط: "(مادة: ص و ف) تصوف فلَان صَار من الصُّوفِيَّة، (التصوف) طَرِيقَة سلوكية قوامها التقشف، والتحلي بالفضائل، لتزكو النَّفس وتسمو الرّوح ..."[62].

ثانيًا: تعريف التَّصوُّف والصوفي اصطلاحاً:

ولتعريف التصوف اصطلاحاً نرجع إلى العلماء من أهل التصوف لنعلم من أين اشتق اسم الصوفي والتصوف. قال القاضي زكريا الأنصاري[63]-رحمه الله تعالى-: (التصوف: علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية).[64]

---

[61] محمود بن عمر، الزمخشري، **أساس البلاغة**، تحقيق: باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م)، 546/1.

[62] إبراهيم مصطفي/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار، **المعجم الوسيط**، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إستانبول: دار الدعوة، د.ت)، باب الصاد، مادة (صوف).

[63] زكريا الأنصاري: هو قاضي القضاة زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، ولد بسنيكة سنة 826هـ، وهو عالم وفقيه، برع في الفقه والنحو، أخذ العلم عن: الشهاب بن المجدي، والزين رضوان، والشرف المناوي، أخذ عنه: أحمد الرملي، محمد بن الكفرسوسي، عبد القادر

وقال الشيخ أحمد زروق[65]–رحمه الله–: "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه.."[66]. وقال أبو الْقَاسِم الجنيد [67] –رحمه الله–: التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني".[68]

بن النقيب، من مؤلفاته: ت فتح الوهاب شرح الآداب وغاية الوصول في شرح الفصول وشرح الروض مختصر الروضة، وفي سنة 926هـ. انظر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت)، 234/1. نجم الدين محمد بن محمد الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، تحقيق: خليل المنصور (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م)، 144/2. محمد بن علي بن محمد الشوكاني، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، 252-253/1.

[64] زكريا بن محمد الأنصاري، **على هامش الرسالة القشيرية** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت)، 7.

[65] أحمد زروق: هو أحمد بن أحمد بن محمد البرلسي، الفاسي، المالكي، الشهير بزروق، عالم وفقيه ومحدّث ويعد من أشهر علماء التصوف، ولد في المغرب بفاس سنة 846هـ، من مؤلفاته: شرح الحكم العطائية، قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة، شرح مختصر خليل في فروع الفقه المالكي، من شيوخه: أحمد بن يونس القسنطيني، توفي سنة 899هـ. عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين** (بيروت: مكتبة المثنى، 1376 هـ)، 155/1. محمد محفوظ، **تراجم المؤلفين التونسيين** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994م)، 419/2 – 84/4.

[66] أحمد بن أحمد بن زروق الفاسي، **قواعد التصوف**، تحقيق عبد المجيد خيالي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م) القاعدة 13، 26.

[67] الجنيد: هو ابن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي القواريري، ووالده الخزاز، عالم وفقيه ويعد من أشهر علماء التصوف، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، من شيوخه: أبو ثور، السري السقطي، الحسن بن عرفة، من تلاميذه: جعفر الخلدي، وأبو محمد الجريري، وأبو بكر الشبلي. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 66/14.

68 الجنيد البغدادي، **تاج العارفين**، تحقيق: سعاد الحكيم (القاهرة: دار الشروق، 2004م) 151.

ثالثًا: التصوف بين الرفض والقبول:

1- الرافضون للتصوف جملة وتفصيلاً:

يرى بعض الباحثين: أنه لا صلة للإسلام بالتصوف، معتبرًا انه نتاج تأثيرات دينية وعرقية لأقوام وحضارات دخلت في الإسلام، وتأثر بها بعضهم، وأنتج مزيجًا من التصورات، والنظريات المتداولة؛ فيرفض هذا المصطلح- التصوف- جملة وتفصيلاً، بل ويرفض الحوار والمناقشة حول تلك القضايا، بحجة أن مناقشتها قد يثبت وجودها، ويضفي عليها نوعاً من الشرعية المرفوضة من أساسها. فهذا أحد العلماء المعاصرين يجعل الصوفية فرقة ضالة كافرة، كالنصارى وغيرهم من الديانات والفرق التي لا تنتمي إلى الإسلام، فيقول: " فمن حاد عما بينته الرسل، ونزلت به الكتب من عبادة الله، وعَبَدَ الله بما يملي عليه ذوقه، وما تهواه نفسه، وما زينته له شياطين الانس والجن، فقد ضل عن سبيل الله..."[69].

نلاحظ أن هذا الباحث عد الصوفية من جملة الضالين عن الهدى، كالنصارى وغيرهم من الفرق الضالة. كما نجد باحثاً آخر ينفي وجود تصوف شرعي، أو وجود متصوف يلتزم الكتاب والسنة، فيقول: " أين هي الطرق الصوفية القائمة على التقيد بالكتاب والسنة؟! مع العلم أن عامة المتصوفة قديما وحديثا يقولون: إن طريقتهم متقيدة بالكتاب والسنة..."[70]. من أقوال هؤلاء يتبين لنا أن هناك من الباحثين من لا يثق بالصوفية جملة وتفصيلاً، ولا يفرق بين الغلاة والمعتدلين، ولا يميز بين القائمين على الشريعة والمفرطين فيها. بل ينسف كل قواعد التصوف التي أقر بها أئمة السلف من أهل الحديث: كالإمام

[69] صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، **حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العبادة والدين** (الرياض: دار العاصمة، 1412هـ)، 7-8.

[70] لطف الله عبد العظيم خوجه، **موضوع التصوف** (مكة المكرمة: مجلة جامعة أم القرى 1427هـ)، 69.

أحمد[71](ت: 241هـ)، وسفيان الثوري[72](ت: 161هـ)، وابن تيمية[73](ت: 728هـ)، وابن القيم[74](ت:751هـ)..

2-أما أنصار التصوف والمدافعون عنه:

فيرى كثير منهم أن التصوف منهج اسلامي نشأ من ذلك الزهد الذي عرف به النبي الكريم وصحابته واتباعه، وانسجاماً مع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي حملت معاني الزهد في الدنيا، وحب لقاء الله تعالى في الآخرة، وانتصروا للصوفية، وعذروهم في شطحهم، وأوَّلوا كل أقوالهم ومصطلحاتهم بما يوافق الشريعة والدين.[75]

---

[71] أحمد: هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد أبو عبد الله الشيباني، عالم ومحدث وفقيه، وهو واحد من الأئمة الأربعة، وإمام المذهب الحنبلي، ولد ببغداد سنة 164هـ، وأصله من مرو، نشأ منكبا على طلب العلم، من أهم شيوخه: إسماعيل بن علية، وسفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون، ومن تلاميذه: علي بن المديني، ومحمد بن يحيى الذهلي، وأبو مسعود أحمد بن الفرات، توفي سنة 241هـ. انظر: محمد بن عبد الغني، ابن نقطة الحنبلي البغدادي، **التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد**، تحقيق: كمال يوسف الحوت (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)، 158. الزركلي، **الأعلام**، 203/1.

[72] سفيان الثوري: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الكوفي (أبو عبد الله)، عالم وفقيه ويعد من أعلام المحدثين، ولد سنة 97هـ، ونشأ في الكوفة، طلب العلم وهو صغير برعاية والده المحدث سعيد بن مسروق الثوري، وكان والده من أصحاب الشعبي، وخيثمة بن عبد الرحمن، ومن ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين. من أهم كتبه: الجامع الكبير، الجامع الصغير، الفرائض، مات سنة 126هـ. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 229/7-230. كحالة، **معجم المؤلفين**، 234/4.

[73] ابن تيمية: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، عالم ومحدث وفقيه، برع في شتى أنواع من العلوم، ولد بحران عام 661هـ، وبعدها قدم مع أبوه إلى دمشق وهو صغير، حدث بدمشق ومصر، والثغر، من أهم مصنفاته: **مجموع الفتاوى**، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، توفي سنة 728هـ. شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، تحقيق: محمد حامد الفقي (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت)، 28. كحالة، **معجم المؤلفين**، 261/1.

[74] ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، ابن قيم الجوزية الحنبلي، عالم ومحدث وفقيه، برع في شتى أنواع من العلوم، ولد سنة 691، من أهم شيوخه: التقي سليمان وأبي بكر بن عبد الدائم والمطعم وابن الشيرازى، ومن أهم مصنفاته: أعلام الموقعين، وبدائع الفوائد، وطرق السعادتين، توفي سنة 751هـ. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان (حيدر أباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1972م)، 137/5-140.

[75] انظر: مجموعة من الباحثين بإشراف عَلوي بن عبد القادر السقاف، **موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام** (نشر: موقع الدرر السنية، https://dorar.net)، 448/6

والإمام السيوطي[76]، وجميع أئمة التصوف وعلمائهم، يؤولون كل ما تردد على ألسنة بعضهم، مما يوحي ظاهره بعقيدة الحلول والاتحاد، أو وحدة الوجود، ويدافعون عن كل ما يوهم ظاهره مخالفاً الشريعة الإسلامية، إما باعتباره دس عليهم، أو بحمله على وجه من وجوه اللغة.

3- العدل والإنصاف في الحكم على الصوفية والتصوف:

لا يحملنا بغضنا للخصم، أو خلافنا معه في الرأي أو المعتقد على ظلمه، وعدم العدل معه، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: 8].

قال ابن تيمية رحمه الله: "وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف بمن يبغض مسلماً، بتأويل وشبهة، أو بهوى النفس؟ فهو أحق ألا يظلم، بل يعدل عليه"[77].

ويرى الباحث أن أما ما توصل إليه بعد النظر في كتب الصوفية، ودراسة رموزهم وإشاراتهم في تفسير الآيات القرآنية، أن ما وافق ظاهر النص من هذه الإشارات وتلك الرموز يعد إثراء وإغناء للمعاني القرآنية ودلالاتها ومقاصدها، ولعل من الإجحاف رفضها وعدم قبولها جملة وتفصيلًا. ولا يرفض من إشارات الصوفية إلا ما خالف ظاهر النص أوما كان بعيد التأويل لا يدرك إلا بتكلف وتمحل.

4- الصوفية والتفسير الإشاري:

---

[76] السيوطي: هو عبد الرحمن بن أبي بكر ابن سابق الدين السيوطي، ويعرف بالجلال السيوطي، عالم مشهور تضلع في مجالات شتى كالفقه والتفسير والأدب، ولد في القاهرة سنة 849هـ، لقب بابن الكتب لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب، له نحو 600 مصنف من أهمها: **الإتقان في علوم القرآن**، وإتمام الدراية لقراء النقاية، الأحاديث المنيفة، توفي سنة 911هـ. انظر: الزركلي، **الأعلام**، 301/3.

[77] أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق: محمد رشاد سالم (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1986م)، 127/5.

لا يخفي على المتأمل في علم التفسير، وخصوصًا جانب الدراية والتأويل والإشارات، أن من عُني بهذا المنهج من التفسير، ومن كانوا فرسان هذا المضمار، هم علماء الصوفية من العارفين، الذين تنورت بصائرهم، وأشرقت سرائرهم بفيوضات ربانية، ترجموها بعبارات تفصح عن ملامح وإشارات، فهمها من فهمها، وجهلها من جهلها؛ بل إن بعضها واضح بَيِّنٌ، وبعضها الآخر مبهم مغرق في الإبهام، لا يعيه إلا من سلك مسلكهم، ونهج نهجهم. وكان من أبرز هؤلاء الأئمة الأعلام من المفسرين: سهل التُسْتُري، وعبد القادر الجيلاني[78]، وأبو منصور الماتريدي، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الكريم بن هوازن القشيري، ومحي الدين بن العربي، الذين لمع نجمهم في سماء العصر العباسي، وكان لتفاسيرهم الأثر البالغ في إقبال الكثير من الناس على الدين، بعد شيوع اللهو والترف، وتفشي الفساد وانحراف الطباع، بسبب سكرة العيش التي اجتاحت الناس، وانفتاح الدنيا عليهم، وإقبالهم عليها؛ في زمن انكفائهم عن الجهاد، وإخلاد هم إلى الأرض، تطلبًا للدعة والراحة.

[78] الجيلاني: هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي الحسني، محيي الدين الجيلاني، ويكنى أبا محمد، من كبار الزهاد والمتصوفين ومؤسس الطريقة القادرية، ولد في جيلان 471 هـ، رحل إلى بغداد في شبابه، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، من أهم كتبه: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، وفتوح الغيب، توفي ببغداد سنة 561هـ. الزركلي، **الأعلام**، 47/4.

وهكذا وقف الباحث في هذا المبحث على أصول التفسير الإشاري، وأنواعه، فعرَّف التفسير، وعرَّف الإشارة لغويًا واصطلاحيًا، وتطرق لأصول التفسير الإشاري في القرآن والسنة، مع ذكر الأمثلة، واستشهد بأقوال بعض الصحابة والتابعين، وعرض بعض تأويلاتهم، ثم ميز ما بين المقبول والمردود من أنواع التفسير الإشاري.

وربط بين التفسير الإشاري ومنهج التصوف. فعرف التصوف وذكر أشهر رجاله، وعرض أقوال العلماء وآراءهم ومواقفهم من التصوف ورجاله، ما بين مادح وقادح، ووقف أخيرًا على الراجح عنده من الأقوال، فأيد منهج التصوف القائم على الاتباع للكتاب والسنة، وذكر أخيرًا أشهر المفسرين من علماء التصوف، ومدى التزامهم بظاهر النص إلى جانب تأويلاتهم.

مخطط توضيحي لأنواع التفسير الإشاري

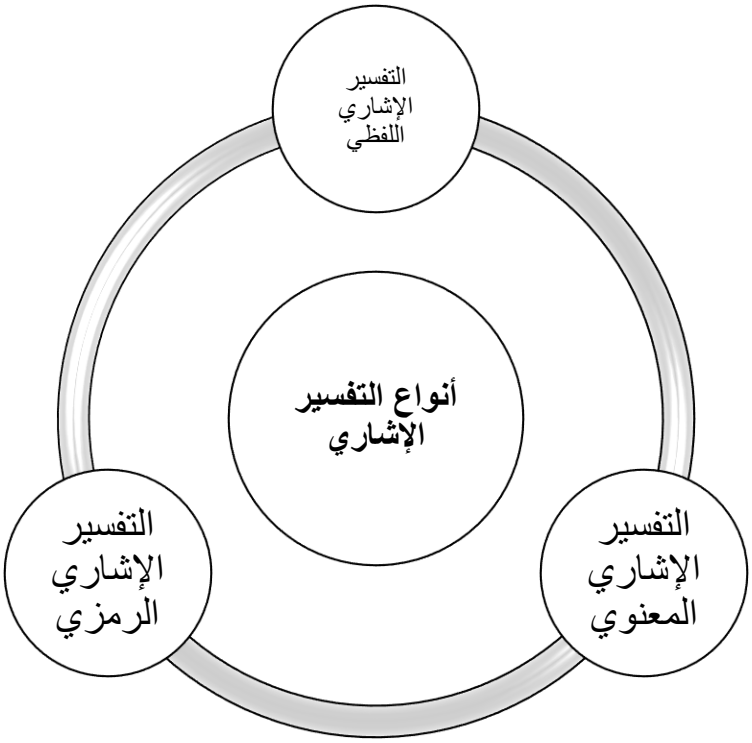

المبحث الثاني: آراء العلماء في التفسير الإشاري، وشروط قبوله.

المطلب الأول: آراء العلماء المجيزين للتفسير الإشاري.

المطلب الثاني: آراء العلماء الرافضين للتفسير الإشاري.

المطلب الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري.

المبحث الثاني: آراء العلماء في التفسير الإشاري، وشروط قبوله.

اختلف العلماء في قبول هذا النهج من التفسير فمنهم من عده المقصد الأسمى، للرسالة الإلهية، واعتبره ثمرة التفسير وغايته، ومنهم من عده من كمالات الفهم لمعاني القرآن بعد تفسير الظاهر الذي تنبني عليه الأحكام الشرعية، وتُقَعَّدُ القواعد الفقهية، ولم يقبله إلا بقرينة تثبت موافقته للمعنى الظاهر، والمعتمد على المنقول المأثور، وقواعد اللغة ودلالات السياق، ومنهم من عده تحديفًا وإلحادًا وكفرًا، فرفضه جملة وتفصيلًا. وسيقف الباحث على كل فريق ودليله ليميز الحق والصواب من الباطل والضلال.

المطلب الأول: آراء العلماء المجيزين للتفسير الإشاري.

المجيزون للتفسير الإشاري لهم وجهات مختلفة، فمنهم الذين اعتبروا التفسير الإشاري أصلًا في فهم مراد الله في كتابه العزيز، كالشيخ محي الدين بن عربي، وأبي عبد الرحمن السلمي ومن انتهج نهجهما في التفسير، حيث يرى الشيخ محي الدين بن عربي –رحمه الله – أن لكل آية من آيات القرآن الكريم وجهين: وجه جلي، وهو ظاهر المعنى في الآية، يفهمه العامة من علماء الرسوم أهل الظاهر، ووجه خفي لا يعلمه إلا العالمون من خواص الأمة، الذين اجتباهم الله بالمعرفة والفهم لمرادات الله –جل جلاله–، وهو الأصل في تدبر كلام الله: ويستنبط هذه القاعدة من قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ... ﴾[فصّلت: 53] فيقول: " ...يعني الآيات المنزلة في الآفاق وفي أنفسهم، فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يرونه في نفوسهم، ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم."[79]

ثم يفصح عن رأيه في التفسير الحقيقي الذي هو الأصل في فهم كلام الله –عزَّ وجلَّ–، ذلك العلم المكنون، الذي يسمونه إشارة، ولا يدركه إلا الخاصة من العارفين، الذين تنورت بصائرهم، فعلموا مالا يعلمه العامة من أهل الرسوم، وأرباب ظواهر العلوم، فيقول: "فَيُسمُّون ما يرونه في نفوسهم إشارة، ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولا يقولون في ذلك أنه تفسير، وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه."[80]

لقد اعتبر مصطلح الإشارة والتفسير الإشاري تقية، لبيان مراد الله في كتابه العزيز، حتى لا ينكر عليهم ويكفرهم العلماء، الذين يسميهم علماء الرسوم من العامة، لكن يبقى الأصل عنده قائمًا على ما يفيضه الله من المعارف والأسرار، على قلوب خواص عباده من الأولياء العارفين. وهناك فريق من العلماء مَنْ تقبل التفسير الإشاري، وعده روح المعاني، ولب الحقائق المستنبطة من كتاب الله تعالى، فأثنى على أصحابه، واعتبرهم فرسان ميدان التفسير؛ على أن تكون تلك الإشارات متفقة مع ظاهر المعنى للنص، يستصحب هؤلاء المفسرون إلى جانب الإشارة والتأويل المعنى الظاهر، الذي يتفق مع قواعد اللغة، وأصول الشريعة ومقاصدها.

ومن أبرز العلماء الذين أقروا التفسير الإشاري، وأشادوا به وبأهله الإمام أبو حامد الغزالي، الذي يعتبر أن أسرار التنزيل لا حدود لها، ولا يمكن أن يحيط بها عقل، ولا يدرك مداها فكر؛ بيد أنه يمكن استشراف بعضها، وتلمس قبسات منها، ولا يتأتى ذلك إلا لأصحاب العلوم الغزيرة، والبصائر المستنيرة، والقلوب النقية الصافية، الذين تتفاوت فهومهم بتفاوت منازلهم، وإشراقات قلوبهم؛ مع اعتماد ظاهر

[79] محمد بن علي الحاتمي، ابن عربي، **الفتوحات المكية**، تحقيق: أحمد شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999م)، 421/1.
[80] ابن العربي، **الفتوحات المكية**، 421/1.

التفسير، الذي لا يستغنى عنه فيقول: "وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ... ".[81]

ولا يكتفي الإمام الغزالي بهذا البيان في عرض مفهوم التفسير الإشاري، بل يسهب في بيان من يسرف ويتمادى في لي أعناق الآيات، لتوافق أهواءهم، فيخرجون عن قواعد الشريعة، وضوابط العقيدة فيفسرون القرآن على هواهم، وينزلقون في مهاوي الردى، ويسقطون في وحول الضلال، بالشطح والتمادي، الذي لا يمكن للبصير من أهل العلم قبول هذا النهج فيقول: "وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية، أحدهما الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله – تعالى– والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب؛ ...أما الصنف الثاني من الشطح كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل... ".[82]

إن الإمام الغزالي الذي يُعَدُّ عَلَمًا من أشهر أعلام التصوف، يقطع بهذا البيان قول كل من يتحامل على المتحققين من الصوفية، ويتهمهم بالغلو والضلال، والحلول والاتحاد ووحدة الوجود، حيث يَعتبر الشطحَ والغلوَّ وقول مالا يتفق مع أحكام الشريعة، وضوابط العقيدة، من أكبر الضرر على من يسمعه أو يقرؤه من عامة المسلمين، بل ويفتي بضرورة قتل من يصرح بمثل هذه الأقوال، كما يعتبر من يتكلم بكلام مبهم لا يفهمه قارؤه أو سامعه، كمن يخبط خبط عشواء أو كحاطب ليل، لا يدري ما يقول، ولا يدرك معنى ما يصرح به؛ فيعتبر ذلك هذرًا لا فائدة منه، ولا طائل وراءه.

---

[81] محمد بن محمد الغزالي الطوسي، **إحياء علوم الدين** (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، 1/ 293.

[82] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 36/1.

وأما فقيه الشافعية ابن الصلاح[83] فقد سئل عن كلام الصوفية في تفسير القرآن الكريم فقال: " سَأَلَ سَائل فِي كَلَام الصُّوفِيَّة فِي الْقُرْآن، كالجنيد وَغَيره، وَكَانَ السَّائِل عَن هَذَا يُنكر مَا سمع من ذَلِك، وَكَانَ يُجَالس شَيخا من الْمُفْتِينَ فَجرى ذَلِك فِي مَجْلِسه، فابتدأ الشَّيْخ وَقَالَ كالمستحسن لكَلَام الصُّوفِيَّة: هم لَا يُرِيدُونَ بِهِ تَفْسِير الْقُرْآن وَإِنَّمَا هِيَ مَعَانٍ يجدونها عِنْد التِّلَاوَة."[84]

لقد نقل كلام بعض المفتين موافقًا ما أفتى به، من أن القوم لا يريدون تفسير القرآن بأذواقهم ومواجدهم، وإنما يعبرون عما يعتلج في نفوسهم من إشارات المعاني، التي لا تخالف ظاهر النص القرآني، ولا يدعي صاحبها أنه المعنى الوحيد المقصود من كلام الله تعالى؛ بل إنما هو من قبيل قياس النظير على النظير، والشبيه على الشبيه. ويقف عند تفسير بعض الصوفية لآية من كتاب الله –تعالى–: ﴿يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا قَاتلُوا الَّذين يلونكم من الْكفَّار﴾ فيستلطف إشارتهم الى العدو القريب، فَيَقُولَ: " قَالُوا هِيَ النَّفس، ثم يعود إلى قول الْمُفْتِي الذي يشْرَح ذَلِك بَقوله: "أمرنَا بِقِتَال من يلينا لأَنهم أقرب شرًا إِلَيْنَا، وَأقربُ شرًّا إِلَى الانسان نَفْسُهُ." [85]

وينقل السيوطي عن ابن عطاء الله[86] تعريفًا محددًا للتفسير الإشاري، فيقول: " اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية

---

[83] ابن الصلاح: هو عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) النصري الشهرزوريّ، المعروف بابن الصلاح، الفقيه الشافعي، وأحد علماء التفسير والحديث في عصره، ولد في شرخان سنة 577هـ، وانتقل إلى الموصل ثم إلى خراسان، وبعدها إلى الشام فولي التدريس في الصالحية ودار الحديث، وأنشأ المدرسة الرواحية بحلب، من أهم كتبه: معرفة أنواع علم الحديث يعرف (بمقدمة ابن الصلاح)، والأمالي، وشرح الوسيط، توفي سنة 643هـ. انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 243/3. يوسف بن قِزْأُوغلي، المعروف بـ «سبط ابن الجوزي»، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، تحقيق: محمد بركات وآخرين (دمشق: دار الرسالة العالمية، 2013م)، 393/22. الزركلي، **الأعلام**، 207/4

[84] عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، ابن الصلاح، **فتاوى ابن الصلاح**، تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر (بيروت: عالم الكتب، 1407هـ)، 197/1.

[85] ابن الصلاح، **فتاوى ابن الصلاح**، 197/1.

[86] ابن عطاء الله: هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ويعرف بابن عَطَاء الله الإسكندري، من أشهر علماء التصوف الذين سلكوا الطريقة الشاذلية، ولد سنة 645هـ، من أهم شيوخه: أبو العباس المرسي صاحب الشاذلي، له عدة مؤلفات من أهمها: الحكم

مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه...". [87] نجد السيوطي –رحمه الله– متبنيًا لهذا المنهج من التفسير، بنقله لقول ابن عطاء، واستشهاده به مؤكدًا أنَّ تفاسير الصوفية لكلام الله، ليس لاغيًا لظاهر المعنى، ولا متجاوزًا له؛ بل هو تكميل وإفهام لمعانٍ مستنبطة من النص مقيسة على ظاهره.

وينصف ابن تيمية الصوفية المعتدلين في مجموع فتاواه الشهيرة، فيقرر حقيقة علمية، لامجال لنقضها أو الرد عليها، فعلى الرغم من تشدده، وقسوة هجومه على جهلة المتصوفة، الذين يَدَّعون انتماءهم إلى هذا الطريق القويم زورًا وبهتانًا، ويفترون على الله بانتحالهم صفات الأولياء، وتشبههم بالخُلَّصِ منهم، فإنه يثني على العلماء المخلصين من أعلام التصوف، ويثمن جهودهم، ولطائف إشاراتهم، ويلتمس العذر لما لا يفهم من رموزهم، فيقول: " فَإِنَّ إشَارَاتِ الْمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةَ الَّتِي يُشِيرُونَ بِهَا: تَنْقَسِمُ إلَى إشَارَةٍ حَالِيَّةٍ – وَهِيَ إشَارَتُهُمْ بِالْقُلُوبِ – وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي امْتَازُوا بِهِ... فَتِلْكَ الْإِشَارَاتُ هِيَ مِنْ بَابِ الِاعْتِبَارِ وَالْقِيَاسِ...فَإِنْ كَانَتْ الْإِشَارَةُ اعْتِبَارِيَّةً مِنْ جِنْسِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ، كَانَتْ حَسَنَةً مَقْبُولَةً..."[88]

إنه يثني على علماء الصوفية الصادقين، الذين يدونون الإشارات على آيات القرآن الكريم، من باب قياس النظير على النظير، واعتبار المثيل بالمثيل، كما يسلك الفقهاء في مسائلهم، حيث يستنبطون أحكام الشريعة، ومسائل الفقه بالقياس والاعتبار.

ويأتي تلميذه ابن قيم الجوزية –رحمه الله– ليعزز قول شيخه بما هو أصرح وأوضح، فيشرح معنى الإشارات، مادحًا أصحابها، مبينًا فائدتها ومغزاها، فيقول: " فَالْإِشَارَاتُ: مِنْ جِنْسِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَعْلَامِ. وَسَبَبُهَا: صَفَاءٌ يَحْصُلُ بِالْجَمْعِيَّة. فَيَلْطُفُ بِهِ الْحِسُّ وَالذِّهْنُ. فَيَسْتَيْقِظُ لِإِدْرَاكِ أُمُورٍ لَطِيفَةٍ. لَا يَكْشِفُ

العطائية، وتاج العروس، ولطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن، توفي كهلا وهو بالمدرسة المنصورية سنة 709هـ. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، 324/1. الزركلي، **الأعلام**، 222/1.

[87] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، 227/4.

[88] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 376/6-377.

حِسُّ غَيْرِهِ وَفَهْمه عَنْ إِدْرَاكِهَا".[89] ولعل ابن القيم –رحمه الله– يتكلم عن ذوق للمفاهيم الصوفية، وكأنه يغترف من فيوضات روحانية نابجة عن سلوك لطريق التصوف، رغم تأسيه بشيخه ابن تيمية، واقتدائه به، وتتبعه لآثاره.

فالصَفَاءُ الذي يَحْصُلُ بِالْجَمْعِيَّةِ. وأي جمعية سوى تلك التي تجمع روح العبد لتطلعها على تجليات أسرار الحق، في كل مقام من مقامات السير القلبي إلى الله تعالى. وكيفَ يَلْطُفُ الْحِسُّ وَالذِّهْنُ؟ وهل يلطف إلَّا بمداومة الذكر، والترقي في مقامات السلوك للوصول إلى مقام الشهود؟ شهود الحق، حق اليقين ثمَ يَسْتَيْقِظُ لِإِدْرَاكِ أُمُورٍ لَطِيفَةٍ، بعد طيه الأكوان، واستغراقه في معاني أسرار التوحيد. ولا نبعد عن تشخيص حال ابن القيم، هذا العَلَم من أعلام الأمة إن قلنا: إنه– رحمه الله– كان سلفي التشريع، صوفي التحقيق.

أما أبو الْحسن الواحدي[90](ت: 468هـ)، فإنه يوجه ماورد من قبل علماء الصوفية من إشارات في تفاسيرهم، ويعتبرها من قبيل القياس، وذكر النظير بالنظير، والشيء بالشيء يذكر، ويربأ بعلمائهم وينزههم عن أنهم يعتبرون إشاراتهم تلك تفسيرًا للمعنى المراد، ولو كان ذلك حاصلًا منهم لكان كفرًا وإلحادًا في آيات الله تعالى، ولما اختلفوا عن الباطنية في تفسيراتهم الضالة المضلة؛ فينقل عنه تلميذه الثعلبي[91] – رَحِمَه الله– قَولَه: " صنف أَبُو عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ حقائق التَّفْسِير فَإِن كَانَ قد اعْتقد أَن

---

[89] محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي (بيروت: دار الكتاب العربي، 1996م)، 389/2.

[90] أبو الحسن الواحدي: هو علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي، علامة النحو والتفسير في عصره، ولد نيسابور، وأصله من ساوة (بين الري وهمذان)، من أهم شيوخه: أبو الحسن القهندزي، وأبو طاهر بن محمش، وأبوبكر الحيري، من تلاميذه: أحمد بن عمر الأرغياني، وعبد الجبار بن محمد الخواري من أهم مصنفاته التفاسير الثلاثة: البسيط، الوسيط، الوجيز، توفي بنيسابور سنة 468هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 339/18–340. الزركلي، **الأعلام**، 255/4.

[91] الثعلبي: هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، عالم في التفسير، اشتهر بتفسيره الذي فاق غيره من التفاسير أصله من نيسابور، من أهم كتبه: عرائس المجالس في قصص الأنبياء والكشف والبيان في تفسير القرآن، من شيوخه: أبي طاهر محمد بن الفضل بن خزيمة، وأبي محمد المخلدي، وأبي بكر بن هانئ، من تلاميذه: أبو الحسن الواحدي. توفي سنة 427هـ. انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**

ذَلِك تَفْسِير فقد كفر، وَأَنا أَقُول: الظَّن بِمن يوثق بِهِ مِنْهُم أَنه اذا قَالَ شَيْئا من أَمْثَال ذَلِك، أَنه لم يذكر تَفْسِيرًا، وَلَا ذهب بِهِ مَذْهَب الشَّرْح للكلمة الْمَذْكُورَة فِي الْقُرْآن الْعَظِيم ... وَإِنَّمَا ذَلِك ذكر مِنْهُم لنظير مَا ورد بِهِ الْقُرْآن، فان النظير يذكر بالنظير ..."[92].

ويستدرك القول متمنيًا ألا يكون قد كان ذلك منهم لما فيه من الإيهام والالتباس؛ فيقول: "وَمَعَ ذَلِك فيا ليتهم لم يتساهلوا بِمثل ذَلِك لما فِيهِ من الْإِيهَام والالتباس وَالله أعلم".[93] فعلى الرغم من حذره واحتياطه في توصيف تفاسيرهم الإشارية، إلا أنه يعذرهم، ويحسن الظن بهم، وينافح عنهم، ويجعل إشاراتهم من قبيل القياس والاستشراف، وليس تفسيرًا مطلقًا لمعنى كلام الله العزيز.

وممن يجيز كلامهم ويقره، معترفًا بفضلهم الشَّيْخ كَمَال الدّين ابْن الزملكاني[94] الذي يذكر بعض أخبارهم، ويثني على الشيخ محي الدين بن العربي، فيقولَ فِي فضله: "وَقَالَ الشَّيْخ محيي الدّين بْن الْعَرَبِيّ الْبَحْر الزاخر فِي المعارف الإلهية..."، وَذكر من كَلَامه جملَة، ثمَّ قَالَ آخر الْفَصْل: "إِنَّمَا نقلت كَلَامه، وَكَلَام مَا جرى مجْرَاه من أهل الطَّرِيق، لأَنهم أعرف بحقائق هَذِه المقامات ...".[95]

لقد اعتبر ابن الزملكاني الشيخ محي الدين –رحمه الله– بحرًا زاخرًا في المعارف والحقائق، التي لا يخوض لججها إلا أمثاله من العارفين المتحققين، فهم أهل الاختصاص في المعاني والأسرار، وهم أدرى بتوصيف عجائب الفيوضات من الأنوار، ولا يدرك هذه الحقائق إلا من سار سيرهم، وسلك مسالكهم؛

وأنباء أبناء الزمان، 79/1. الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 422/9. الزركلي، **الأعلام**، 212/1.

[92] أحمد بن إبراهيم الثعلبي، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: عدد من الباحثين (جدة: دار التفسير، 2015م)، 141/2.

[93] الثعلبي، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، 141/2.

[94] الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الله، كمال الدين ابن الزملكاني الأنصاري، إمام وعلامة، لقب بقاضي القضاة، وكان كبير الشافعية في عصره؛ ولد في شوال سنة 667هـ، من أهم شيوخه: بدر الدين ابن مالك، وشهاب الدين الحوبي، وبهاء الدين ابن الزكي، من مؤلفاته: رسالة في الرد على تقي الدين ابن تيمية في مسألة الطلاق، ورسالة سماها رابع أربعة، وشرح المنهاج، توفي في بلبيس سنة 727هـ. انظر: محمد بن شاكر بن أحمد، الملقب بصلاح الدين، **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1974م)، 7/4-8.

[95] انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 127/4.

ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، وهيهات لعلماء الشريعة من أهل الظاهر أن يدركوا مداركهم، ويصلوا إلى ما وصلوا إليه من مقاماتهم، ويستشعروا أذواقهم ومواجدهم.

أما الإمام ابن عجيبة فله رأي واضح في التفسير الإشاري حيث يقول: "فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذه إحالة لكلام الله وكلام رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ –، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقررون الظواهر على ظواهرها مرادًا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما ألهمهم".[96] وهذا القول من إمام هو من مشاهير أئمة التصوف يؤكد الحقيقة التي لا مراء فيها، أن علماء التصوف لا يغفلون ظاهر النص، ولا يتجاهلون المعنى المتبادر الموافق لقواعد اللغة؛ لكنهم يعنون بالمقاصد التي يرمي إليها النص، فيشيرون إليها إلى جانب المعنى الظاهر، فيجمعون بين الشريعة والحقيقة.

ويأتي في العصر الحديث العالم المفسر لكتاب الله الشيخ ابن عاشور (ت: 1393هـ)[97]–رحمه الله– ليدافع عن منهج التأويل والإشارة ويشرح المقاصد والغايات من هذه التفسيرات، التي كثر الجدل حولها فيقول:"فنسبة الإشارة إلى لفظ القرآن مجازية، لأنها إنما تشير لمن استعدت عقولهم وتدبرهم في حال من الأحوال الثلاثة، ولا ينتفع بها غير أولئك، فلما كانت آيات القرآن قد أنارت تدبرهم، وأثارت اعتبارهم نسبوا تلك الإشارة للآية....".[98]

وهكذا فهم اللاحقون كما فهم السابقون من العلماء المنصفين، وأدركوا مرادات القوم، واعتبروها من قبيل قياس النظير بالنظير، والمعنى المجرد بالمحسوس، وحسَّنوا الظن بهم، فلم ينكروا عليهم، ولم يجحدوا

---

[96] ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، 50/1.

[97] ابن عاشور: هو أحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ولد بتونس سنة 1296هـ، عالم في علوم الشريعة والتفسير والتربية، حفظ الطاهر القرآن الكريم وهو في الـ 14 من عمره، من أهم كتبه: التحرير والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، من شيوخه: محمد النجار، وسالم بوحاجب، ومحمد النخلي، توفي سنة 1393 هـ. محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م)،36/1.

[98] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 36/1.

استنباطاتهم لتلك المعاني اللطيفة، التي قررها هؤلاء، وسموها إشارات تأكيدًا منهم الاحتفاظ والإقرار بالعبارات التي تحمل معاني الآيات.

المطلب الثاني: آراء العلماء الرافضين للتفسير الإشاري

كان هناك من العلماء المخلصين الذين تحفظوا على هذا النوع من التفسير، فذموا أهله، ورفضوه جملة وتفصيلًا، واعتبروه نوعًا من الهرطقة والزندقة، وقد تشدد الإمام الذهبي[99](ت: 748هـ) في التحذير من التفسير الإشاري، وعَدَّه من الضلال، واتباع الهوى، والبدعة بالدين؛ فبصدد ترجمته لحياة أبي عبد الرحمن السلمي، وتفسيره الإشاري يقول: "وَفِي (حَقَائِقِ تَفْسِيْره) أَشْيَاءُ لَا تسوَغُ أَصْلاً، عَدَّهَا بَعْضُ الأَئِمَّة مِنْ زَنْدَقَةِ البَاطِنيَّة، وَعَدَّهَا بَعْضُهُم عِرْفَاناً وَحَقِيْقَةً، نَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الضَّلَالِ وَمِنَ الكَلَامِ بهوَى..."[100] فعلى الرغم من إيراده رأي المجيزين الذين عدُّوا التفسير الإشاري من المعارف والحقائق، إلا أنه تحفظ على كامل هذا اللون من التفسير فعده كله من الضلال، ومن اتباع الهوى، واستعاذ بالله من الضلال، ومن الكلام بالهوى، واعتبر كل تفسير إشاري زندقة وباطنية، مالم يسلك صاحبه مسلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

ويزيد الذَّهَبِيّ في التحذير من الإشارة والتأويل متحدثًا عن تفسير السلمي فيقول: " ... وَله كتاب سَمَّاهُ "حقائق التَّفْسِير" ليته لم يصنفه، فَإِنَّهُ تَحْرِيف وقرمطة، فدونك الْكتاب فسترى الْعجب". [101] لقد تمنى على السلمي ألا يكون قد صنف هذا التفسير، لما يوهم -في نظره-مضمونه بالباطنية والقرمطة؛ الذي ربما تسبب في إفساد عقيدة العامة من المسلمين.

---

[99] الذهبي: هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، المشهور بالحافظ شمس الدين الذهبي، ولد سنة 673هـ، وهو عالم في الحديث ورجاله، وحافظ لا مثيل له في عصره، له مؤلفات عديد منها: تاريخ الإسلام، تاريخ النبلاء، وطبقات القراء، من أهم شيوخه: تقي الدين ابن دقيق العيد، أحمد بن هبة الله بن عساكر، ويوسف بن أَحْمد الغسولي، وأخذ عن علمه الجمع الكثير، توفي سنة 748هـ. انظر: صلاح الدين، **فوات الوفيات**، 315/3-316. تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناحي وغيره، نشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1431هـ)، 100/9-105. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، 68/5.

[100] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 252/17.

[101] الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 307/28.

لكن الذهبي رحمه الله على الرغم من إنكاره التفسير الإشاري، يتأدب مع الإمام أبي عبد الرحمن السلمي بصدد ترجمته لحياته فيقول: " قلتُ: كَانَ وافر الجلالة..."[102]فيأتي بعده الإمام السبكي[103] مستنكرًا على الذهبي وصفه السلمي بوافر الجلالة؛ فيقول: " قلت لَا يَنْبَغِي لَهُ أَن يصف بالجلالة من يَدعِي فِيهِ التحريف والقرمطةَ كتاب حقائق التَّفْسِير الْمشَار إِلَيْهِ، قد كثر الْكَلَام فِيهِ من قبل، لأَنه اقْتصر فِيهِ على ذكر تأويلات ومحال للصوفية، ينبو عَنْهَا ظَاهر اللَّفْظ".[104]

لقد بالغ السبكي (ت: 756هـ) في رفض التفسير الإشاري، وتوجه باللوم على الذهبي، الذي وصف السلمي بالجلالة، لما يعتقد من تحديف وزندقة في تفسيره، فهو يرفض التفسير الإشاري جملة وتفصيلًا، ويعتبر كل ما يأتي به الصوفية من تأويلات ينبو عنها ظاهر اللفظ من المعاني القرآنية، كفرًا وإلحادًا ينبغي رده، وعدم التساهل معه.

كما نجد الإمام السيوطي (ت: 911هـ) الذي له باع واسع في التصوف، يحترم أعلامه، ويجل علماءه، عندما يترجم في طبقات المفسرين لأبي عبد الرحمن السلمي، صاحب "حقائق التفسير" يقف عند تفسيره مليًا، ثم يطلق حكمه على هذا التفسير بقوله: "تفسيره غير محمود."[105] فرغم أدبه مع الإمام السلمي في ترجمته لحياته، إلا أنه يذم تفسيره، ويعتبره غير محمود، لأنه لم يفصح في كل ثنايا التفسير عن مراد الله في معنى ظاهر النص.

---

[102] الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 182/28.

[103] السبكي: هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي، تقي الدين، عالم ومفسر مشهور، لقب بشيخ الإسلام في عصره، وهو والد التاج السبكي، ولد في سبك سنة 683هـ، وولي قضاء الشام سنة 739 هـ، من شيوخه: محمد بن يوسف الجزري من كتبه: الدر النظيم في التفسير، ومختصر طبقات الفقهاء، وإحياء بالنقوس في صنعة إلقاء الدروس، توفي في القاهرة سنة 756هـ. انظر: الزركلي، **الأعلام**، 302/4. عادل نويهض، **معجم المفسرين**، 754/2

[104] السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 147/4.

[105] السيوطي، **طبقات المفسرين العشرين**، تحقيق: علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة وهبة، 1396هـ)، 98.

ونجد الزرقاني[106](ت: 1122هـ) يحترس من التفسير الإشاري، وينقل عن النسفي (ت: 710هـ)[107] في عقائده القول بأن: "النصوص على ظواهرها، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطل إلحاد".[108] يبدو لنا من هذه الإفادة أن الإمام النسفي لا يعترف بالإشارات ولا بالتأويلات، وينسب الإلحاد والضلال لكل من يعدل عن ظاهر النص، بل ويسميهم أهل الباطل.

وينقل الزرقاني عن التفتازاني قوله: " سميت الملاحدة باطنية؛ لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية "[109]. وبذلك يعيب على الصوفية إشاراتهم وتأويلاتهم، مالم يقدموا ظاهر المعنى من النص القرآني على تلك الإشارات والرموز.

ويرى العلامة الطاهر بن عاشور أن الذين أولوا القرآن تأويلات بعيدة، وسموها بالتفسير الإشاري، وزعموا أن للقرآن ظاهراً وباطناً، تسببوا في الكثير من اللبس، الذي نشأت عنه النحل الباطنية، التي تؤول القرآن تأويلات فلسفية ما أنزل الله بها من سلطان، فيقول: "وحرّف أقوام الآيات بالتأويل البعيد، ثم سموا ذلك بالباطن، وزعموا أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، فكان من ذلك لبس كثير، ثم نشأت عن ذلك نحلة الباطنية، ثم تأويلات المتفلسفين في الشريعة كأصحاب «الرسائل» الملقبين بإخوان الصفاء.."[110]

---

[106] الزرقاني: هو محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن علوان الزرقاني، عالم وفقيه وأصولي، وكان محدث الديار المصرية في عصره، ولد في القاهرة سنة 1055هـ، وينسب إلى زرقان، تخرج من كلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث. من أهم كتبه: **مناهل العرفان في علوم القرآن**، بحث في الدعوة والإرشاد، وصول الأماني، توفي بالقاهرة سنة 1122هـ. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج6، ص210.

[107] النسفي: هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، حافظ الدين، عالم بالفقه الحنفي والتفسير، وهو من أهل إيذج، وينسب"نسف"ببلاد السند (بين جيحون وسمرقند)، من أهم شيوخه: محمد بن عبد الستار الكَردري، وأحمد العتابي، ومن تلاميذه: الصغناقي، من أهم كتبه: المستصفى شرح المنظومة، والكافي شرح الوافي، وكنز الدقائق، توفي سنة 710هـ. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، 17/3. الزركلي، **الأعلام**، 67/4.

[108] محمد عبد العظيم الزقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن** (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1943م) 78/2.

[109] الزقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، 78/2.

[110] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 471/1.

إنه يرفض أن يكون للقرآن معنى باطنًا، وفيضًا معرفيًا، يفهمه العارفون من الصوفية ويصرحون به، ويعتبر أن ذلك يفتح بابًا واسعًا لأهل البدع والضلال، من الفرق الباطنية المنحرفة، وأرباب الأهواء والشهوات، مثل :(إخوان الصفا وخلان الوفا) الذين اتخذوا من باب الإشارات والتأويلات حجة لنشر مذهبهم الباطل.

وينهض الذهبي[111] المعاصر ليحذو حذو الذهبي السالف الذكر، ليصنف كتابًا في " الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم" يرفض فيه التفسير الإشاري، والصوفي النظري والفيضي من أساسه، حيث يقول:" إذا ما ذهبنا نستعرض ما للقوم من تفسير صوفي نظري، وما لهم من تفسير إشاري فيضي، وجدنا في هذا أو ذاك اتجاهًا منحرفًا عن النهج القويم لتفسير القرآن الحكيم".[112] وبعد أن يسوق أقوال علماء السلف في التفسير الإشاري، وقبولهم بعضه ورفضهم بعضه الآخر، يعلن رأيه صراحة في رفض التفسير الإشاري جملة وتفصيلًا، بكل ألوانه وأطيافه، النظري منه والفيضي فيقول: "ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم، مهما أوغلت في البعد والغرابة، وتوريط لنا بتسليم كل ما يقولون...فأنا عند رأيي وهو: أن هذه التفاسير الإشارية، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها لأنفسهم ولا يذيعوها على الناس ...".[113] لقد رفض التفسير الإشاري المقبول وغير المقبول، القريب منه والبعيد، رفضه جملة وتفصيلًا، واعتبره مزلة قدم لعامة الناس، الذين لم

---

[111] الذهبي: هو محمد حسين الذهبي: مفسر من كبار علماء الأزهر، ولد سنة 1915م في قرية مطوبس (وهي قرية تقع على الشاطئ الشرقي للنيل)، عمل مدرساً في المدينة المنورة سنة 1951 م، ثم عاد إلى القاهرة وأصبح وزيرا للأوقاف وشؤون الأزهر، من مؤلفاته: **الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم**: دوافعها ودفعها، **التفسير والمفسرون**، أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع، مات قتيلاً سنة 1977 م. ينظر: محمد السيد حسين الذهبي، **أرشيف ملتقى أهل التفسير**، (https://al-maktaba.org/book/31871/34704#). محمد خير بن رمضان بن إسماعيل، تكملَة **معجم المؤلفين** (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م)، 474.

[112] حسين الذهبي، **الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم**، دوافعها ودفعها (القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت)، 72.

[113] حسين الذهبي، **تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره** (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، 1431هـ)، 25-26.

يتعرفوا مقاصد الصوفية ومصطلحاتهم، وتمنى على أولئك الصوفية أن يكونوا قد كتموا إشاراتهم، واحتفظوا بها لأنفسهم، ولم يعلنوها لعامة الناس، حتى لا يكونون سببًا في حيرتهم وضلالهم.

ويأتي بعده عادل بن علي الشدي، ليؤلف كتابًا في الاتجاهات المنحرفة في التفسير في العصر الحديث، ليشمل الصوفية مع الفرق الضالة من الرافضة والمعتزلة والخوارج، فيجعلهم جميعًا في سلة واحدة، ويفرد للتفسير الصوفي فصلًا كاملًا، فيقسم تفسيرهم إلى نظري فلسفي، وإشاري فيضي، ويَعُدُّ كلًا من التفسير الإشاري الفيضي، والنظري الفلسفي، محض زندقة وتحديف، وما هو إلا إخضاع للآيات القرآنية لأوهام المتصوفة ومواجيدهم، التي لا تقوم على دليل شرعي، ولا تستند إلى برهان سليم.[114]

وعلى الرغم من رفض هؤلاء العلماء التفسير الإشاري الذي عني به أئمة التصوف واشتهروا به، إلا أن أحداً منهم لم ينكر أفضلية السابقين من علماء الصوفية، كالإمام أبي القاسم الجنيد والشيخ عبد القادر الجيلاني، والحارث المحاسبي، وغيرهم، وقد أثنى عليهم كل من ابن تيمية وابن القيم في مواضع مختلفة من تصانيفهم، رغم شدة نكيرهم على الجهلة من المتصوفة.[115]

ويرى الباحث أن آراء هؤلاء العلماء على الرغم من حرصهم على معاني القرآن، وخوفهم من تحريف مقاصد الشريعة وغاياتها، إلا أن أحكامهم كان فيها شيء من القسوة والتعميم، وعدم التفريق بين مزاعم الفرق الباطنية الضالة، وبين الإشارات اللطيفة التي استنبطها العارفون من علماء الصوفية الكرام، وإن كان بعضهم لا يصرح بغايته من هذه الإشارات، إلا أننا نعتقد أن هذه الاستنباطات والإشارات تقبل من القوم، لأن الأمور بمقاصدها، والأحكام بمآلاتها.

---

[114] انظر: عادل بن علي الشدي (معاصر)، **الاتجاهات المنحرفة في التفسير في العصر الحديث** (الرياض: مدار الوطن للنشر، 2010م)، 70.

[115] انظر: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1995م)، 491/5- 376/6-377. ابن القيم، **مدارج السالكين**، 389/2.

المطلب الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري.

بعد أن سردنا أقوال المجيزين للتفسير الإشاري والمعارضين له، كان لابد لنا من بيان الضوابط التي ينبغي أن تتحقق في هذا النوع من التفسير. ونقف مع الإمام ابن قيم الجوزية، ليعرض علينا أهم هذه الضوابط التي يحددها بعد أن يسوق نماذج من التفسيرات الإشارية لبعض الآيات القرآنية، ويناقشها مناقشة هادئة، ثم يقول: "وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دلّ عليها وأنها هي المراد فغلط، وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب."[116]

هكذا يقبل ابن القيم التفسيرات الإشارية لآي القرآن الكريم، على ألا يدّعي أصحابها أنها هي المعنى الأصل في مراد الله، وإنما هي إشارة استنبطت من المعنى الظاهر للآيات الكريمة. ثم يفصّل في أنواع التفسير ما بين المعنى اللفظي القائم على لسان العرب ومدلولاته، والمعنى المبني على الرأي والدراية الذي عرفه السلف الصالح من هذه الأمة، والتفسير الإشاري الذي اشتهر به السادة الصوفية سلفًا وخلفًا، ونحا نحوه علماؤهم؛ لكنه يضبطه بشروط محددة يبينها بقوله: "وتفسير على الإشارة والقياس، وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

1. ألا يناقض معنى الآية.
2. أن يكون المعنى صحيحًا في نفسه.
3. أن يكون في اللفظ إشعار به.
4. أن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم.

[116] انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **التبيان في أقسام القرآن**، تحقيق: محمد حامد الفقي (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، 79.

ثم يؤكد على لزوم اجتماع هذه الشروط الأربعة، فيقول: " فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنًا." [117] والمتأمل لهذه الشرائط الأربعة يجد أن الإمام ابن القيم قد حصر التفسير الإشاري في ضوابط شرعية تمنع المفسر من الخروج عن المعنى الظاهر للنص، وتلزمه الوقوف عند حدود المعنى المراد، لا يتعداه إلى الرموز المبهمة، التي لا توافق المعنى الظاهر من الآية الكريمة. فقد اشترط: ألا تناقض الإشارة المعنى الظاهر، وأن يكون المعنى الإشاري صحيحاً لا خطأ فيه ولا زلل، وأن يوحي اللفظ الظاهر في الآية بالمعنى المشار إليه ولا يبتعد عنه، ويكون بين المعنى الظاهر والإشارة ارتباط وثيق يفهم من السياق. كما يشترط أن تكون هذه الشروط الأربعة مجتمعة في المعنى الإشاري ليكون مقبولًا لدى أهل العلم من التفسير.

ويأتي الإمام الزرقاني ليسوق حديث النبي –صلى الله عليه وسلم: «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع»[118] ويفصّل في معنى الظهر والبطن، وينقل أقوال العلماء السابقين، ثم يقول: "مما تقدم يعلم أن التفسير الإشاري لا يكون مقبولا إلا بشروط خمسة، وهي:

1. ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم.
2. ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر
3. ألا يكون تأويلاً سخيفا، بعيدًا عن ضوابط اللغة ومعانيها كتفسير بعضهم قوله تعالى: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ [العنكبوت:69] بجعل كلمة لمع فعلا ماضيا وكلمة المحسنين مفعوله.

---

[117] ابن القيم، **التبيان في أقسام القرآن**، 75.

[118] حديث (لكل آية ظهر وبطن...): الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية من القرآن ظهر وبطن، ولكل حد ومطلع) وهو حديث صحيح. انظر: القاسم بن سلاّم الهروي، **غريب الحديث**، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1964م)، 12/2. محمد بن حبان البُستي، **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408هـ)، 276/1، رقم 75. يوسف بن عبد الله النمري، ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي (المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1387 هـ) ج7، ص282، رقم 35.

4. ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

5. أن يكون له شاهد شرعي يؤيده". [119]

ثم يستدرك ما سبق باختصار الشروط إلى شرطين فقط، فيقول: " بيد أن هذه الشروط متداخلة فيمكن الاستغناء بالأول عن الثالث وبالخامس عن الرابع ويحسن ملاحظة شرطين بدلهما:

– أحدهما: بيان المعنى الموضوع له اللفظ الكريم أولاً.

– ثانيهما: ألا يكون من وراء هذا التفسير الإشاري تشويش على المفسَّر له".[120]

يبدو لنا أن الإمام الزرقاني الذي اشترط الشروط الخمسة لم يبعد كثيرًا عن الشروط التي وضعها الإمام ابن القيم، إلا في الشرط الذي اختصر به شروطه السابقة الذكر: "ألا يكون من وراء التفسير الإشاري تشويش على المفسَّر له"، وهذا الشرط يحسم الجدل بين المجيزين والمانعين، فيستبعد كل تفسير قائم على الرمز والإبهام، حيث لا يفهمه عامة القراء، إلا من يكون له دراية بالرموز الصوفية ومصطلحاتهم.

وبهذا نجد أن العلماء العاملين من هذه الأمة، قد قبلوا التفسير الإشاري، وعدُّوه من روافد التفسير، التي تغني المعنى المراد من كلام الله، وتجلّي الحقائق الكامنة في رسالة الخالق إلى خلقه، وتظهر مقاصد الشريعة وغاياتها؛ ولكنهم احترسوا في قبول هذا اللون من التفسير، بوضع ضوابط وشرائط محددة، تلزم المفسرين من أرباب التأويل والإشارة الوقوف عندها، وألا يخرجوا عنها، حتى لا تفتح أبواب الفتنة والضلال لأصحاب المذاهب الفاسدة، من الباطنية والملاحدة، فتنتشر آراؤهم وأفكارهم وضلالاتهم في الزندقة والكفر والإلحاد.

---

[119] الزُّرْقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، 81/2.

[120] الزُّرْقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، 81/2.

وهكذا عرض الباحث في المبحث السابق آراء العلماء في التفسير الإشاري، وشروط قبوله؛ فذكر آراء العلماء المجيزين للتفسير الإشاري مع الاحتراس بمراعاة الضوابط الشرعية، فيما يستنبطه المفسر من إشارات ورموز؛ وذلك بعدم تعارض الإشارة والتأويل مع ظاهر النص، وأن يكون للتأويل شاهد من قواعد الشريعة وأصولها، وألا يدَّعي المفسر: أن مراد الله هو ما ذكره من التأويل دون المعنى الظاهر.وممن يجيز كلامهم الإمام أبو حامد الغزالي والشَّيْخ كَمَال الدّين ابْن الزملكاني، وابن عجيبة صاحب كتاب" إيقاظ الهمم في شرح الحكم" الذي صرح بالثناء على التأويل والإشارة في فهم القرآن وتفسيره الإشاري. ويأتي في العصر الحديث الشيخ ابن عاشور-رحمه الله- ليدافع عن منهج التأويل والإشارة، ويشرح المقاصد والغايات من هذه التفسيرات، التي كثر الجدل حولها، فيعتبر نسبة الإشارة إلى لفظ القرآن مجازية لأنها إنما تشير لمن استعدت عقولهم لتَدَبُّرِها، ولا ينتفع بها غير أولئك.

أما العلماء الرافضون للتفسير الإشاري فقد تحفظوا على هذا النوع من التفسير، فذموا أهله، ورفضوه جملة وتفصيلًا، واعتبروه نوعًا من الهرطقة والزندقة، ومن أشهرهم الإمام الذهبي، والإمام السبكي، وعادل بن علي الشدِّي، وغيرهم من العلماء الذين تشددوا في التحذير من التفسير الإشاري، وعَدَّوا بعْض أَئِمَّة التفسير من الصوفية زنادِقة بَاطِنِيَّة، وتَعَّوذوا بِاللهِ مِنَ ضلَالِهِم، وعدّواَ كُلَّ الخَيْرِ فِي مُتَابَعَةِ السُّنَّة، وَالتَّمَسُّكِ بِهَدْي الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ رَضِي الله عَنْهُم أجمعين.

لكن العلماء المنصفين كالإمام ابن القيم والزرقاني وابن عاشور وغيرهم، الذين توسطوا فقبلوا التفسير الإشاري، وعدُّوه من روافد التفسير، التي تغني المعنى المراد من كلام الله وتثريه، وتجلّي الحقائق الكامنة في رسالة الخالق إلى خلقه، وتظهر مقاصد الشريعة وغاياتها؛ ولكنهم احترسوا في قبول هذا اللون من التفسير، بوضع ضوابط وشرائط محددة، تلزم المفسرين من أرباب التأويل والإشارة الوقوف عندها، وألا يخرجوا عنها.

مخطط توضيحي لشروط قبول التفسير الإشاري عند الامام الزرقاني

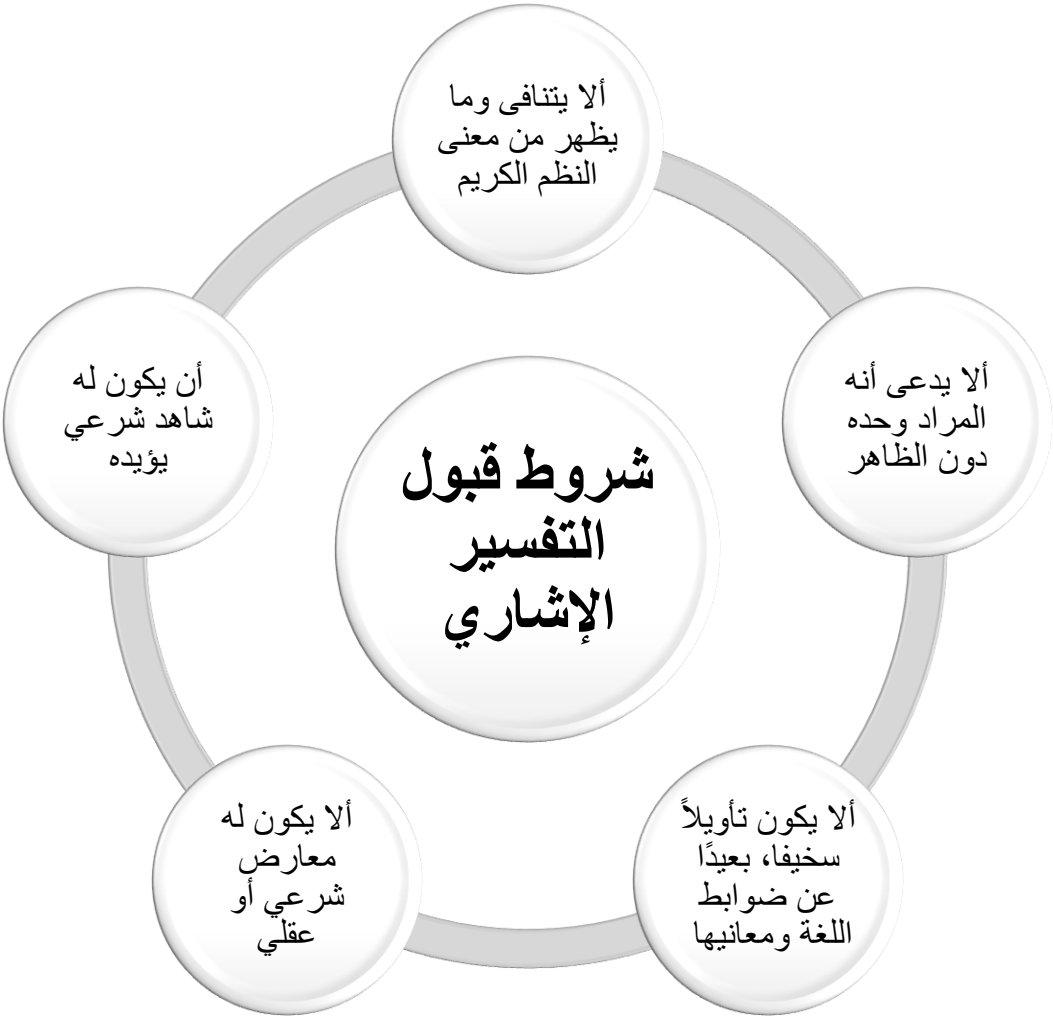

مخطط توضيحي للفصل الأول وأقسامه

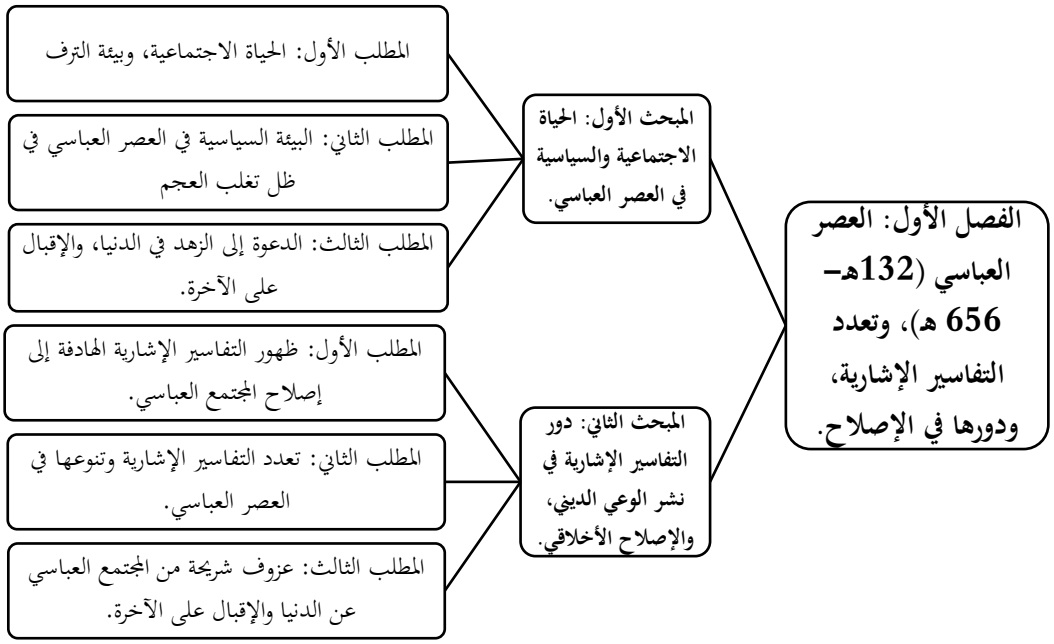

الفصل الأول: العصر العباسي (132هـ– 656 هـ)، وتعدد التفاسير الإشارية

ودورها في الإصلاح.

بدأ العصر العباسي بعد سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ، واستقر الحكم لبني العباس، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، ودخلت أمم كثيرة في الإسلام واستظلوا بظل رايته، واختلط العرب بالعجم، وتلاقحت الثقافات. وكان ذلك العصر أرقى عصور الإسلام من الجانب العلمي والفكري. حيث ظهر علماء أجلاء قعّدوا العلوم وأصّلوها وأفردوها بالتصنيف والتأليف، والإضافة والتكميل، فكان بحق العصر الذهبي لعلوم هذا الدين[121].

وامتلأت أرجاء البلاد بكبار الحفاظ والأئمة كالإمام أحمد بن حنبل، والبخاري والأصمعي والكسائي، والفراء، وابن المبارك، وسفيان الثوري،.. وأمثالهم وأشباههم. وأراد الله إعزاز دينه وشرعه، فقيّض له العلماء المخلصين في الحديث والتفسير واللغة والقراءات، ونشط علماء التفسير كالتستري، والقشيري، والماتريدي، والسلمي، وابن عربي؛ وتعددت مناهجهم، في خدمة كتاب الله، وبيان مقاصد الشريعة، وكشف ما غمض من معاني القرآن المجيد. وهكذا ازدهر المستوى العلمي والثقافي، الذي اتسم به ذلك العصر.[122]

المبحث الأول: الحياة الاجتماعية والسياسية في العصر العباسي

تداخلت العادات والتقاليد بين الناس في العصر العباسي، وانعكس كل ذلك على الحياة الاجتماعية والحياة السياسية. وعرف العرب أصناف الترف، وألوان التنعم من تلك الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، وانعدمت الفوارق بين العناصر المتعددة من عرب وفرس وترك وزنج، وعمت تعاليم الإسلام.

---

[121] انظر: الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 59/1.

[122] انظر: القاسم بن سلاّم الهروي، **الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن**، تحقيق: محمد بن صالح المديفر (الرياض: مكتبة الرشد، 1418هـ)، 20-21-22، بتصرف.

ونعم الجميع بأسباب الرخاء والسعادة، وشمل الثراء والترف طبقة كبيرة من المجتمع، وتفنن الناس بأنواع الطعام والشراب، واللباس والأثاث.

ولعبت العادات لعبتها في توجيه العقل الجمعي للأمة حاضرها وباديها، فانشغل الناس باللهو واللعب، وخاضوا غمار الشهوات، واستغرقوا في عميق السكرات، وفشت تجارة الرقيق من الجواري والغلمان، وكان للكثير من أولئك –وخاصة الفرس منهم– التأثير الكبير في توجيه القرار السياسي، بل لقد تسنم بعضهم أرقى المناصب، وأعلى الدرجات، في خلافة هارون الرشيد[123] وولده المأمون.

ولم يخل المجتمع من الفقراء الذين عضّهم الفقر بنابه، ووجد كذلك كثير من متوسطي الحال، والذين لم يخفوا تذمرهم من غلاء الأسعار، كما أن تعدد الأجناس في المجتمع جعل الدولة عرضة للدعوات السرية، والفتن الداخلية. وفي خضم هذا المعترك الاجتماعي والسياسي نهض العلماء المخلصون لإيقاظ الأمة من رقدتها، وإنقاذها من مهاوي الردى، فارتفعت أصواتهم بالتحذير من الركون إلى الدنيا ومفاتنها، والانشغال بمغرياتها وملذاتها، وانتشرت الدعوات الصادقة إلى سبيل الرشاد ومنهج السداد، وأقبل الكثير من الناس على الزهد في الدنيا ومتاعها، واشتغلوا بأعمال الآخرة.[124]

المطلب الأول: الحياة الاجتماعية، وبيئة الترف

عم الرخاء بلاد الإسلام في زمن الدولة العباسية، وتدفقت الثروات بسبب الفتوحات الكثيرة والغنائم الوفيرة، وازدهرت التجارة في البلاد، فغرق كثير من الخلفاء والأمراء في لجج اللذات والشهوات، وانغمسوا في مراتع المجون والغفلات، واصطبغت حياة كثير من الناس بالترف والرفاهية، فشيدت القصور المنيفة،

[123] هارون الرشيد: هو هارون (الرشيد) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي، وكنيته أبو جعفر، وهو خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم، ولد بالري سنة 149هـ، ونشأ في دار الخلافة ببغداد،كان شجاعا كثير الحج والغزو، يحج سنة ويغزو سنة، وفي أيامه فتحت هرقلة، وكان عالما بالأدب والحديث والفقه، و كان يكثر من الصلاة والصدقة إلى أن توفي سنة 193هـ. انظر: صلاح الدين، **فوات الوفيات**، 225/4. الزركلي، **الأعلام**، 62/8.

[124] انظر: إسحاق بن منصور المروزي، المعروف بالكوسج، **مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه** (المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، 1425هـ) 45- 46.

التي بنيت على طراز أدهش الأمم المجاورة، وضربت الأمثال برونقها وبهائها، وفخامة بنائها، واتساع أبهائها، وروعة حدائقها[125].

وشاع الغناء في هذه القصور، وشربت على أنغام المعازف الخمور، وكثر المغنّون، وعجّت الردهات[126] بالجواري اللاتي يعزفن أعذب الألحان، ويغردن أبدع الأنغام، ويغنين أروع الأشعار؛ واشتهر في ذلك العصر الكثير من المغنين والموسيقيين، الذين كان من أبرزهم "إبراهيم بن إسحاق الموصلي"، الذي أسس مدرسة لتعليم الموسيقا وإتقان مقاماتها. وكان "زرياب" الذي تلقى تعليمه في تلك المدرسة من أشهر تلاميذ الموصلي، وزرياب هذا هو الذي استخدم مضراب العود من قوادم النسر معتاضًا به عن مرهف الخشب.[127]

كما اشتهرت عدة قيان[128]، منهن "عنان" جارية الناطفي، وصاحبة أبي نواس، و"عريب" جارية المأمون[129]. وهكذا سادت حياة اللهو والطرب بين الأمراء والوزراء، مجاراة للخلفاء، وتأسيًا بالأغنياء؛ حتى أَلِفَ عامّة الناس هذه الحياة.

وأُلِّفَتْ في ذلك العصر المؤلفات، التي تُعنى بوصف القيان والخمور، فألف أبو الفرج الأصبهاني[130](ت: 356هـ) كتاب الأغاني، وأسهب في وصف الغناء والمغنين، والشعراء والندمان[131]، والجواري

---

[125] انظر: الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 58/1.

[126] الردهات: جمع رده وهي القاعة. أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، مادة (ر د ه)، (بيروت: عالم الكتب، 2008)، 881/2.

[127] انظر: علي بن الحسين بن محمد المرواني، أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، (القاهرة: طبعة بولاق، د.ت)، 53/5.

[128] قَيْنَة: وهي الْأمة صانعة أَو غير صانعة وَغلب على الْمُغنيَة (ج) قيان والماشطة. انظر: إبراهيم مصطفي وغيره، **المعجم الوسيط**، باب القاف، مادة (قان).

[129] عمرو بن بحر الجاحظ، **المحاسن والأضداد** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1423هـ)، 11.

[130] الأصبهاني: هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني، إمام في الأدب وعالم في التاريخ والأنساب، ولد في أصبهان سنة 264هـ، ونشأ في بغداد، كان من أعيان أدبائها، وروى عن عدد كثير من العلماء يطول تعدادهم، من أهم مصنفاته: **الأغاني**، القيان، الإماء الشواعر، توفي ببغداد سنة 356هـ. انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 307/3. الزركلي، **الأعلام**، 278/4.

والغلمان؛ وهو مؤلَّف ضخم، ومادته تقوم على جمع الأغاني المتميزة في عصره والعصور السابقة، مع ذكر طرائق الغناء. ثم يتبع ذلك بشروح وتعليقات لما تحويه هذه الأغاني من أشعار وإشارات.

كما ألف إبراهيم بن القاسم القيرواني[132](ت نحو: 425هـ) المعروف بالرقيق النديم، كتابًا في أوصاف، الخمر وأنواعها، سماه "قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور"، مثَّل خلاله الحالة الاجتماعية لذلك العصر، واصفًا أصناف الخمور، ومجالس احتسائها، وندامى الشاربين، وإبداع العازفين، والمغنين. ولعل صفحة من صفحات ذاك الكتاب، تشي بالبيئة التي سادت تلك الأيام، وغدت حياة اللهو والطرب، والخمر والسكر مألوفة مستساغة، لا ينكرها من ألفها. يقول في قطب السرور: "وكانت لأم جعفر زبيدة جارية تسمى جُلنار من أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم غناءً، ... فقالت لي أم جعفر: اذهبي إلى أختي عُليَّة فأقرئيها مني السلام، وقولي لها ألا ترين إلى هذا اليوم وطيبه، فعلى أي شيء عزمت فيه. فخرجت عنها، حتى دخلتُ على عُليَّة فإذا هي جالسة في طارمة[133] في وسط بستان لها، والمطر يقع على الطارمة فيجيئُ له صوتٌ شديدٌ وفي يدها عود وهي تغني وعلى رأسها جاريةٌ كأنها خوط[134] بانٍ[135]، حسنة الوجه، فإذا غنّت عليه صوتاً قالت لها اسقيني فتسقيها..."[136]

وبالرغم من عدم الثقة بمثل هذه المؤلفات واتهام أصحابها بالتجديف كالأصبهاني صاحب الأغاني، الذي رماه العلاّمة ابن الجوزي بالكذب والافتراء حيث يقول عنه: " وكان يتشيع، ومثله لا يوثق بروايته، فإنه

---

[131] النّدمان: تنادم الْقَوْم تجالسوا على الشَّرَاب. انظر: إبراهيم مصطفي وغيره، **المعجم الوسيط**، باب النون، مادة (ندم).

[132] ابن قاسم القيرواني: هو إبراهيم بن القاسم القيرواني، ويعرف بالرقيق النديم، وهو كاتب ومؤرخ وشاعر، وأصله من القيروان، له تصانيف كثيرة منها: تاريخ افريقية والقيروان. النساء كبير. الراح والارتياح، أحب القراءة والكتابة في صغره حتى أصبح فيها من أحذق الناس في عصره، ورحل إلى مصر سنة 388هـ يحمل هدية من باديس بن زيري إلى الحاكم، ثم عاد إلى وطنه فتوفي فيه سنة 425هـ. انظر: صلاح الدين، **فوات الوفيات**، 41/1. الزركلي، **الأعلام**، 57/1.

[133] طارمة: بيت من خشب كالقبة (فارسي معرب). انظر: إبراهيم مصطفي وغيره، **المعجم الوسيط**، باب الضاد، مادة (طرم).

[134] الخوط: الغصن الناعم. ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (خوط).

[135] البان: ضرب من الشجر سبط القوام لين ورقه كورق الصفصاف ويشبه به الحسان في الطول واللين. انظر: إبراهيم مصطفي وغيره، **المعجم الوسيط**، باب الباء، مادة (بان).

[136] إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، المعروف بالرقيق النديم، **قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور**، د.م، 3.

يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر..." [137] إلا أن مثل هذه المؤلفات بما تضمنته من مشاهد وأوصاف، تصور مدى الترف المفرط الذي اعترى المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة من الزمن –وإنْ اتهم مؤلفوها بالكذب والافتراء– فإنها لا تخلو من حقيقة وإن عزَّت، تعكس جانبًا من الحياة الاجتماعية في ذلك العصر.

[137] عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفي عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م)، 185/14.

المطلب الثاني: البيئة السياسية في العصر العباسي في ظل تغلب العجم

وأما الحياة السياسية في ذلك العصر فقد أفرزت بيئة مضطربة؛ حيث اختلت موازين الحكم، حينما تمادى الفرس في الهيمنة على شؤون الدولة، وكان بداية ذلك في زمن الخليفة هارون الرشيد، حتى صارت لهم الكلمة العليا في الأمر والنهي، وفي العطاء والمنع، وأصبحت الأولوية للفرس، الذين تقدموا في كل مقام وتأخر العرب؛ حتى أنَّ الخليفة نفسه لم يعد له المكانة التي تؤهله لاتخاذ القرار.

لقد امتدت أصابع آل برمك إلى كل مفصل من مفاصل الدولة، بحكم أن مرضعة الرشيد، التي تَربّى في حجرها هي أم جعفر، وزوجة يحيى بن خالد البرمكي[138]. يقول ابن خلدون[139] في تاريخه، واصفًا الأسباب التي دعت الرشيد لتنفيذ النكبة المروعة لآل برمك، والتي استأصلهم بها، وقضى عليهم: "وإنّما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدّولة، واحتجافهم أموال الجباية، حتّى كان الرّشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه..."[140].

نلاحظ من خلال سرد ابن خلدون لما كان عليه البرامكة من تمكن وهيمنة على كل جانب من جوانب الحكم، يوحي بهدف الفرس وعزمهم على استعادة أمجاد الإمبراطورية الفارسية، ولكن هيهات، فقد قال

---

[138] البرمكي: هو يحيى بن خالد بن برمك أبو علي الفارسي، من رجال الدهر عرف بحزمه ورأيه وحسن تصرفه وخاصة في مجال السياسة، وهو الوزير الكبير، ضمه المهدي إلى ابنه الرشيد ليربيه، ويثقفه، ويعرفه الأمور، فلما استخلف، رفع قدره، ونوه باسمه، وكان يخاطبه: يا أبي، ورد إليه مقاليد الوزارة، مات يحيى بن خالد في سجن الرقة، سنة 190هـ وعمره سبعون سنة، وكان أبوه أحد الأعيان المذكورين. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 89/9-91.

[139] ابن خلدون: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، العالم المحقّق الكبير، وفيلسوف التاريخ الإسلامي، ولد في تونس سنة 732هـ، ونشأ فيها، وولي القضاء عدة مرات، وأخذ العلم عن عدد من العلماء منهم: محمد بن عبد الرحمن بن جابر، عبد المهيمن الحضرمي، ومحمد بن إبراهيم الإربلي، من أهم كتبه: كتاب التاريخ، العبر وديوان المبتدأ والخبر، توفي في رمضان سنة 808هـ. انظر: عبد الحي بن أحمد، ابن العماد العكري الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: محمود الأرناؤوط (دمشق: دار ابن كثير، 1986م)، 71/1.

[140] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة (بيروت: دار الفكر، 1988م)، 21/1.

النبي –عليه الصلاة والسلام–: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فلا كِسْرَى بَعْدَهُ، وإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُما في سَبيلِ اللَّهِ»[141].

وعند إعادة التأمل فيما روى ابن خلدون من تاريخ العباسيين وتغلب الفرس على السلطة، نجد تفصيلًا مروعًا لما وصل إليه حال البرامكة الفرس في ذلك الزمان. يقول ابن خلدون: "يقال إنّه كان بدار الرّشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسًا، من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدّولة بالمناكب[142]، ودفعوهم عنها بالرّاح[143] لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون وليّ عهد وخليفة ..." [144].

لقد نقل لنا ابن خلدون صورة واضحة ناطقة لحال الدولة في ذاك الزمن، حيث تحكم الفرس، وغلبوا حتى على الخليفة في تصريف الأمور، وتذمر الناس من سطوتهم وتسلطهم، وقد اتسع الخرق على الراقع، وما عاد لعربي كلمة نافذة في مدة سلطانهم. ولكن هيهات؛ فقد تنبه الرشيد لمكرهم وخطرهم، فبطش بهم، وقضى عليهم وعلى أحلامهم في ليلة واحدة.

وفي ظل اتساع رقعة الدولة، وترامي أطرافها، وانشغال الخلفاء عن شؤونها، نجمت الثورات المناوئة[145]، وخصوصًا في بلاد العجم، ففي السنة الثّانية والأربعين بعد المئة: "نقض أصبهبذ[146] طبرستان العهد الذي

---

[141] محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى البغا (دمشق: دار ابن كثير، دار اليمامة، 1993م)، كتاب الخمس، 1135/3، رقم 2952.

[142] المناكب: جمع منكب، والمنكب من الإنسان، وغيره (مجتمع) رأس الكتف والعضد. الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة (نكب).

[143] الرّاح: جمع الراحة وهي الكف. انظر: إبراهيم مصطفي وغيره، **المعجم الوسيط**، باب الراء، مادة (روح).

[144] ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر**، 21/1.

[145] المناوئة: (ناوأه) فاخره وعاداه. انظر: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2005م)، فصل النون، مادة (نوأ).

[146] الصّبَهْبذُ هنا هي الأصبهذ، تعريب: اسپهبد. وكان اسم ملوك طبرستان خاصة، وقال الجواليقي: الصبهبذ فارسي معرّب، وهو في الديلم كالأمير في العرب. انظر: محمد حسين بن خلف التبريزي، **برهان قاطع (مخطوط)**، (طهران: مكتبة مجلس الشورى الإسلامي، د.ت)، 122. موهوب بن أحمد الجواليقي، **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم**، تحقيق: ف. عبد الرحيم (دمشق: دار القلم،

كان بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده منهم، فبعثَ إليه أبو جعفر[147] خازمَ بن خزيمة، وروح بن حاتم، وأبا الخصيب، فحصروه في الحصن مدة، فطال عليهم الحصار، فاحتال أبو الخصيب بحيلة كانت سببًا للفتح ..."[148]. وفي السنة الثالثة والأربعين بعد المئة، ثارت الدَّيْلَم[149] ...، فجهَّز إليهم أبو جعفر حَبيب بن عبد الله في جيوش الكوفة فأوقع بهم.[150]

وفي السنة الخامسة والأربعين بعد المئة تتابعت الحوادث على أبي جعفر من كل جانب، فقد خرج الخوارج إلى باب الأبواب، فقتلوا من المسلمين خلقًا كثيرًا، حتى كان أبو جعفر المنصور يترنَّم بقول الشاعر:

تَفرَّقت الظِّباء على خِراشٍ *** فما يدري خِراشٌ ما يصيدُ [151]

وهذا الشعر الذي ترنم به أبو جعفر يمثل كثرة الثورات، والانقلابات على الدولة، حتى ما عاد الخليفة يدري ما يصنع، لكي يخمد نيران هذه الفتن.

في ظل هذه البيئة من التناقضات الاجتماعية، والاضطرابات السياسية، التي سادت زمن الخلافة العباسية، من ترف الطبقة الحاكمة ولهوها، وزيادة نفوذ العنصر الفارسي، والتمرد الشعوبي؛ برز في المجتمع العباسي تيار مناقض لكل ذلك، يدعو إلى الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة؛ وذلك ما نجده في المطلب التالي.

1990م)، 430.

[147] أبو جعفر: هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، ووالد الخلفاء العباسيين جميعاً، ولد في الحميمة من أرض الشراة (قرب معان) سنة 95هـ، كان عالماً بالفقه والأدب، محبا للعلماء، عرف بشجاعته وبعده عن أماكن اللهو والعبث، تولى الخلافة بعد أخيه السفاح سنة 136هـ، توفي محرما على باب مكة سنة 158هـ، ودفن ما بين الحجون وبئر ميمون. انظر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002م)، 244/11. صلاح الدين، **فوات الوفيات**، 216/2. الزركلي، **الأعلام**، 117/4-118.

[148] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 108/12.

[149] الدّيلم: الديالمة، هم إحدى الشعوب الإيرانية التي عاشت في شمال الهضبة الإيرانية، وقد جاء ذكرهم على ألسنة المؤرخين حتى حقبة بدايات انتشار الإسلام. ويذكر أنهم كانوا يتحدثون لغة من فروع اللغات الإيرانية الشمالية الغربية. بنظر: ويكيبيديا، **الموسوعة الحرة**، على العنوان التالي: ديلم/https://ar.wikipedia.org/wiki

[150] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 114/12.

[151] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 129/12.

المطلب الثالث: الدعوة إلى الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة.

ما بين انهماك الأمراء والأغنياء وذوي السلطان، باللهو والطرب، وانغماسهم بالشهوات، وبين اضطراب شؤون الدولة، وتحكم الفرس، واندلاع الثورات من كل الجهات؛ تظهر الدعوة للعزوف عن الدنيا وملذاتها، والسياسة ومخاضاتها، والإقبال على الآخرة وترقب موعود الله فيها، وما يناله العبد المؤمن من خيراتها.

ويقوى التيار الإصلاحي الذي يدعو الناس للتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت وسكنى القبور، وما يتبع ذلك من البعث والنشور. يصور الإمام الماتريدي هذه المرحلة الفاصلة ما بين الغفلة واللهو والمجون، وكثرة الاضطرابات والفتن، وبين الإعراض عن الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة وموعود الله فيها فيقول: "وقد أوجدت هذه الحالة جماعة متطوعة تنكر على الفساق ببغداد، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأثمرت حياة اللهو كذلك حياة مقابلة لها، هي حياة الزهد التي سلكها بعض الناس."[152]

لقد ولدت حالة من الزهد في بلاد الإسلام، حيث أفرزت بيئة الترف شريحة من المجتمع، أطلق على أفرادها اسم العبّاد أو الزهّاد أو الصوفية؛ وقد مثلوا نموذجًا عمليًا للدعوة الإصلاحية، من خلال مسلكهم وتعاملهم. ومن أشهر أعلام هذه الطائفة الإمام سفيان الثوري رحمه الله، الذي كان من أزهد الناس وأورعهم في زمانه، حيث كان يتقى الله حق تقاته، ويحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة ...قال عنه عبد الرحمن بن مهدي[153]: " ما عاشرت في الناس رجلا أرق من سفيان الثوري...".

---

[152] الماتريدي، **تفسير الماتريدي**، 58/1.

[153] عبد الرحمن بن مهدي: هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي، يكنى أبا سعيد مولى الأزد، وهو من الطبقة الوسطى من أصحاب مالك، ومن كبار حفاظ الحديث، كان يجالس الشافعي ويصحبه مع أحمد بن حنبل، من شيوخه: سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، حماد بن زيد، من تلاميذه: ابن وهب، وابن حنبل، وابن المديني، توفي بالبصرة سنة 198هـ وعمره ثلاث وستين سنة. انظر: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو

وقال عنه قبيصة[154]: "ما جلست مع سفيان مجلسا إلا ذكرت الموت؛ وما رأيت أحدًا كان أكثر ذكرًا للموت منه".[155] وعلاوة على مكانة سفيان في العلم ومنزلته في المجتمع، فقد مثَّل لونًا من ألوان الخشية، وحالة من حالات المراقبة الدائمة لله تعالى، حتى نجده في هذه الصورة التي وصفه بها صاحباه.

وكذلك نجد جانبًا آخر من شخصية سفيان، يكشف مدى عزوفه عن الدنيا، وإقباله على الآخرة؛ يقول الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: "وقد أكل سفيان ليلة فشبع، فقال: "إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله" فقام حتى أصبح، وكان يقول: "الزهد في الدنيا قصر الامل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء".[156]ولما انتشر صيته في بلاد الاسلام، رحل إليه طلبة الحديث والفقه، وكثر اجتماعهم عنده، حتى إنه لم ينقطع عن الوعظ والإرشاد في أحلك ظروف حياته. وقد أسس مدرسة في الزهد القائم على الفقه في الدين، وثوابت الشريعة.

ففي زمنه انتشر العلم مع الزهد، وصار الإعراض عن الدنيا بما فيها من سكرات وغفلات ديدن طلاب العلم، بل كان الزهد منهج أئمة العلم الذين تتلمذوا في مدرسة سفيان؛ ومن أشهر تلامذته على سبيل المثال لا الحصر: الإمام شعبة بن الحجاج[157]، والإمام مالك بن أنس[158]، ويحيى بن سعيد القطان[159]،

النور (القاهرة: دار التراث للطبع والنشر، د.ت)، 463/1. الزركلي، **الأعلام**، 339/3.

[154] قبيصة: هو قبيصة بن عقبة بن محمد بن سفيان السوائي، الكوفي ويكنى أبا عامر، إمام من كبار شيوخ البخاري، بدأ بطلب العلم منذ صغره، حدّث عن: عيسى بن طهمان، ومالك بن مغول، وعاصم بن محمد العمري، حدّث عنه: أحمد بن حنبل، وعثمان بن أبي شيبة، ومحمود بن غيلان، توفي سنة 215 هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 130/10-131. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار المعرفة، 1379هـ)، 436/1. السيوطي، **طبقات الحفاظ** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ)، 164-165.

[155] انظر: سفيان بن سعيد الثوري، **تفسير الثوري** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ)، 16-17.

[156] البغدادي، **تاريخ بغداد**، 219/10.

[157]شعبة: هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكيّ الأزدي، مولاهم، الواسطي ثم البصري، أبو بسطام، إمام من أئمة الحديث، وعالم بالأدب والشعر، ولد سنة 82هـ بواسط ونشأ بها، وسكن البصرة إلى أن توفي، حدث عن: أنس بن سيرين، وإسماعيل بن رجاء، وسلمة بن كهيل، حدث عنه: أيوب السختياني، وسعيد الجريري، ومنصور بن المعتمر، من أهم كتبه: الغرائب، توفي سنة 160هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 204/7-205. الزركلي، **الأعلام**، 164/3.

[158] ابن مالك: هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل

والأوزاعي[160]، وابن المبارك[161]، وسفيان بن عيينة[162]. وكل واحد منهم إمام في العلم، وعَلَمٌ في الزهد. فهل هناك أجلُّ مرتبة وأعظم منزلة منهم؟ [163] وقد أثنى عليه تلامذته، ووصفوه بالعلم والزهد وفضلوه على أهل زمانه. فقد قال ابن المبارك واصفًا أفضلية شيخه: "كتبت عن ألف ومائة شيخ ما كتبت عن أفضل من سفيان.." [164].

ولقد عرف ابن المبارك بالزهد، وصنف فيه كتابًا خاصًا، رسم خلاله منهجًا للسائرين في طريق الحق، بالإقبال على الله تعالى والدار الآخرة، والإعراض عن الدنيا، وزينتها ولهوها وشهواتها.

كما أن مالك بن أنس الأصبحي غني عن التعريف، فهو صاحب الموطأ، الذي عرف به، وانتشر في مشارق الأرض ومغاربها، ونال القبول من خاصة هذه الأمة وعامتها، قد انقطع عن الجمعة والجماعات،

السنة، وإليه تنسب المالكية. ويعد من أدق المحدثين في عصره. ولد سنة 93هـ بالمدينة المنورة، من أهم شيوخه: ربيعة بن فروخ والزهري وغيرهما، من كتبه: غريب القرآن، توفي سنة 179هـ. انظر: عادل نويهض، **معجم المفسرين**، 460/2.

[159] القطان: هو يحيى القطان بن سعيد بن فروخ، ويكنى أبا سعيد، أمير المؤمنين، وإمام الحديث، ويكنى أبا سعيد، وكان ثقةً مأموناً، ولد سنة 120هـ، سمع: سليمان التيمي، وهشام بن عروة، وعطاء بن السائب، روى عنه: سفيان، وشعبة، ومعتمر بن سليمان – وهم من شيوخه، توفّي بالبصرة في صفر سنة 198هـ في خلافة عبد الله بن هارون. انظر: محمد بن سعد بن منيع الزهري، **الطبقات الكبير**، تحقيق: علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2001م)، 294/9. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 175/9.

[160] الأوزاعي: هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، أبو عمرو، شيخ الإسلام، وإمام الديار الشامية في الفقه والزهد، ولد في بعلبكّ سنة 88هـ في حياة الصحابة، كان يسكن بمحلة الأوزاع، حدث عن: عطاء بن أبي رباح، وأبي جعفر الباقر، وعمرو بن شعيب، وروى عنه: ابن شهاب الزهري، ويحيى بن أبي كثير – وهما من شيوخه – وشعبة، توفي ببيروت سنة 157هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 107/7–108. الزركلي، **الأعلام**، 320/3.

[161] ابن المبارك: هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، ويكنى أبا عبد الرحمن، إمام وعالم مشهور، لقب بشيخ الإسلام في عصره، ولد سنة 118هـ، ارتحل إلى: الحرمين، والشام، ومصر، والعراق، والجزيرة، وخراسان، سمع من: سليمان التيمي، وعاصم الأحول، وحميد الطويل، حدث عنه: معمر، والثوري، وأبو إسحاق الفزاري، وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفا، توفي سنة 181هـ وعمره 60 سنة. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 378/8–379. السيوطي، **طبقات الحفاظ**، 123.

[162] ابن عيينة: هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي، ويكنى أبا محمد، محدّث الحرم المكيّ، كان واسع العلم كبير القدر، ولد بالكوفة سنة 107هـ، وسكن مكة، طلب الحديث وهو غلام، ولقي الكبار وسمع من: قاسم الرحال، والزهري، وعمرو ابن دينار، حدث عنه: الأعمش، وابن جريج، وشعبة – وهؤلاء من شيوخه، توفي بمكة سنة 198هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 454/8. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 175/15. الزركلي، **الأعلام**، 105/3.

[163] البغدادي، **تاريخ بغداد**، 219/10.

[164] البغدادي، **تاريخ بغداد**، 219/10.

وزيارة الناس، وحضور الجنائز لسنين، على الرغم من ذلك كون له هذه الشهرة، وذلك الصيت، الذي ملأ الآفاق؛ لا يتأتى له ذلك إلاّ بإخلاص وصفاء سريرة، ونقاء طوية.[165]

يقول ابن المبارك: «ما رأيت رجلاً ارتفع مثل مالك بن أنس، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة».[166] نعم إنها مدرسة الزهد التي انتمى إليها هؤلاء الثلة من الأئمة، الذين لخص سفيان بن عيينة مدرستهم الزهدية، التي تتمثل بشخص شيخه سفيان الثوري، حيث يقول:" لم يُدْرَكْ مثل ابن عباس في زمانه، ولا مثل الشعبي في زمانه، ولا مثل الثوري في زمانه"[167].

لقد شاع في زمانهم الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، حتى ألفه عامة الناس، وأصبح حال الكثيرين منهم مثار اهتمام المؤرخين في زمانهم.

وهكذا عرض الباحث في المبحث السابق صورة موجزة للحياة الاجتماعية في العصر العباسي؛ حيث سكرة العيش، وانغماس الناس في الترف واللهو، وإقبالهم على الخمر والغناء والجواري والغلمان، وإعراضهم عن ضوابط الدين وقواعده. وكثرة الثورات، والانقلابات على الدولة، حتى ما عاد الخليفة يدري ما يصنع، لكي يخمد نيران هذه الفتن، فالخوارج من جانب، والزنج والديلم من جانب آخر، وتغلب العجم على العرب، فقد مثَّلوا السواد الأعظم في الجند، وتمكنوا من ناصية الحكم، وأمسكوا بمقاليد الدولة، لذلك

---

[165] كان مالك يحضر المسجد، ويشهد الجمعة والجنائز، ويعود المرضى ويجيب الدعوة، ويقضي الحقوق زماناً، ثم ترك الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف ثم ترك عيادة المرضى وشهود الجنائز، فكان يأتي أصحابها ويعزيهم، ثم ترك مجالسة الناس ومخالطتهم والصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، حتى الجمعة ولا يعزي أحداً، ولا يقضي له حقاً، فكان يقال له في ذلك فيقول ما يتهيأ لكل أحد أن يذكر ما فيه. وفي بعض الرواية من الأعذار أعذار لا تذكر. فاحتمل الناس له كل ذلك. قال عتيق بن يعقوب ومصعب: فلما حضرته الوفاة سئل عن تخلفه عن المسجد قال عتيق بن يعقوب: وكان تخلفه عنه قبل موته بسنين فقال: لولا أني في آخر يوم من الدنيا وأوله من الآخرة ما أخبرتكم "سلس بولي". فكرهت أن آتي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير طهارة، استخفافاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرهت أن أذكر علتي فأشكو ربي. انظر: القاضي عياض بن موسى اليحصبي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، تحقيق: ابن تاويت الطنجي وآخرون (المغرب: مطبعة فضالة المحمدية، د.ت)، 55/2.

[166] مالك بن أنس الأصبحي، **الموطأ**، تحقيق: محمد مصطفي الأعظمي (أبو ظبي: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، 2004م)، 38/1.

[167] انظر: سفيان بن سعيد الثوري، **تفسير الثوري** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م)، 10.

ضعفت سلطة الخليفة، واقتصرت على شؤون القصر، وتفشت الرشوة والإتاوات[168]، وظهر الفساد فعمَّ البلاد.

هنالك نشط العلماء المخلصون، يدعون إلى الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة؛ وظهرت مدرسة الزهد، التي كان أشهر أعلامها: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، إلى جانب صاحب المذهب المالكي الإمام مالك بن أنس الأصبحي وغيرهم، وشاع في ذلك الزمان مذهبهم وانتشر ذكرهم، حتى ألف الناس الزهد، وأصبح منهجًا يتمثله الكثير منهم.

[168] الإتاوات: جمع إتاوة، والإتاوة: الخراج. يقال: أدى إتاوة أرضه، أي خراجها. وضربت عليهم الإتاوة: أي الجباية. انظر: الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة (أتو).

المبحث الثاني: دور التفاسير الإشارية في نشر الوعي الديني، والإصلاح الأخلاقي.

المطلب الأول: ظهور التفاسير الإشارية الهادفة إلى إصلاح المجتمع العباسي.

المطلب الثاني: تعدد التفاسير الإشارية وتنوعها في العصر العباسي.

المطلب الثالث: عزوف شريحة من المجتمع العباسي عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

المبحث الثاني: دور التفاسير الإشارية في نشر الوعي الديني، والإصلاح الأخلاقي

إن المجتمع المسلم الذي يسوده الإيمان الفطري، فيؤمن بالقرآن دستورًا لحياته الدنيوية والأخروية، على الرغم من بيئته التي سادت فيها الغفلات، وغرق أهلها في وحول الشهوات، يبقى نداء الإيمان له الأثر الأكبر في النفوس، إذا وجد من يوجهه التوجيه الأمثل من علماء حكماء مخلصين، لذلك لاقى أصحاب التفسير الإشاري استجابة واسعة من المجتمع العباسي، وذلك عندما عرضوا إرشاداتهم اللطيفة، وإشاراتهم الطريفة، فأقبلت شريحة واسعة من الناس على مجالس الوعظ، وحلق العلم والذكر، ونشط طلبة العلم يرتشفون المعاني الدقيقة والمواعظ الرقيقة، فتؤوب القلوب، وتصفو النفوس، ويستقيم السلوك. وسيتجلى في هذا المبحث دور التفاسير الإشارية في نشر الوعي الديني، والإصلاح الأخلاقي، في المجتمع العباسي.

المطلب الأول: ظهور التفاسير الإشارية الهادفة إلى إصلاح المجتمع العباسي

شَرَعَ دعاة الزهد والورع في العصر العباسي يستنهضون همم الناس للإقبال على الآخرة، وما أعد الله للصالحين فيها من الأجر الجزيل والفضل العميم، ويدعونهم للعزوف عن الدنيا وملذاتها الخادعة، التي تورث أهلها الحسرة والندامة. وكانوا يُدَبِّجون[169] مواعظهم وخطبهم بآيات القرآن الكريم، يستنبطون منها الفيوضات والإشارات، التي تستدر عاطفة الإيمان في نفوس السامعين، وتدعوهم للزهد في الدنيا الفانية،

[169] يدبجون: دبج: الدبج: النقش والتزيين، فارسي معرب. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (دبج). الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة (دبج)

والإقبال على الآخرة الباقية. ومن أبرز الدعاة الواعظين في ذلك العصر الإمام عبد القادر الجيلاني، الذي كانت له المجالس العامرة، والمواعظ الباهرة، التي تهز القلوب، وتحدو الأرواح.

ومن مجالسه التي عقدها لدعوة الناس للإنابة إلى الله، والرجوع إلى الفطرة النقية السليمة، والملة الحنيفية القويمة؛ مجلس التوبة الذي افتتحه بهذه الآية: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعًا أَيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾ [النور: 31]. حيث جعل هذا الخطاب موجهًا لعموم من حضر، يدعوهم من خلال هذه الآية إلى التوبة النصوح. ويُفَصِّلُ لهم في معناها، بالرجوع عن المنهيات ويستطرد فيما يفيض الله عليه من اللطائف والإشارات، التي يجذب بها القلوب، ويستدر العواطف.

ويبين لكل من حضر في مجلسه أن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات عن الله -عز وجل- وعن جنته. ويخاطبهم بلسان الحضرة الإلهية فيقول: "ارجعوا إليَّ من هوى نفوسكم، ووقوفكم مع شهواتكم، عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد، وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار، وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا، وتدخلوا برحمتي الجنة العليا المعدة للأبرار"[170].

[170] عبد القادر بن موسى الجيلاني، **الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل**، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ)، 228/1.

ثم يتجه إليهم بخطاب الخصوص والاقتضاء، فينتقل إلى آية أخرى، يدعوهم إلى التوبة الخالصة بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم:8]. يندبهم إلى التوبة المجرّدة التي لا تتعلق بشي، ولا يتعلق بها شيء، التوبة التي تجعل العبد معها مستقيمًا على الطاعة غير مائل إلى المعصية.

ويحبب إليهم الرجوع والإنابة إلى الله تعالى، لأن في ذلك نعيم القرب منه –سبحانه –، وفي آفاقها مظنة حبه للتائبين؛ حيث يستشهد بقوله تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلمتطهرين﴾[البقرة: 222] فيذكرهم بحب الله لهم، مقابل توبتهم وإنابتهم، وتطهرهم من الذنوب.[171]

أما الإمام ابن الجوزي الذي ذاع صيته في أرجاء الدنيا بما فتح الله عليه من البلاغة والفصاحة، وتأثر الكثير من العامة والخاصة بحديثه، الذي يصوغُهُ بعناية ومهارة، فيسلب قلوب الحاضرين، ويأسر ألباب السامعين، فقد كان له أسلوبه الخاص في التقاط الإشارات من المفردات القرآنية، وتوظيفها في حديثه الماتع، بصورة مدهشة، مراده إقناع العقول وإمتاع النفوس. وفي أحد مجالسه التي يدعو فيها الجالسين إلى التوبة من الذنوب، والإنابة إلى علام الغيوب يقول: "يا مؤخر توبته بمطل التسويف ﴿لأَي يَومٍ أُجِّلَت﴾ [المرسلات:12] كنت تقول: إذا شِبْتُ تُبْت. فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت".[172]

إنه يوظف آيات القرآن الكريم بمهارة فائقة، يخاطب الغافلين الساهين، المسوفين بالتوبة لزمن المشيب بقوله تعالى: ﴿لأَي يَومٍ أُجِّلَت﴾. ويذكرهم بانقضاء العمر، والخوف من فجأة الموت، ومن سوء العاقبة، فيقول: "كل يوم تضع قاعدة الإنابة ولكن ﴿على شفا جرف﴾".

كما يذكّرُ السامعين بأن هوى النفس يصارع الإنسان ويغالبه، وكلما عزم على التوبة تزينت له اللذات والشهوات، وعصفت به رياح الأهواء، فيدعوهم للأسف والندم، والبكاء على أعتاب مولاهم، متمثلين

---

[171] انظر: الجيلاني، **الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل**، 228/1.

[172] عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **اللطائف**، د.م، 5.

بالقدوة الصالحة في الحزن على فقد المحبوب "يعقوب" عليه السلام، وبالصبر عن الهوى والإغواء "يوسف" عليه السلام، وبحال أخوة يوسف في الذل والانكسار، يوم دخلوا على يوسف محتاجين مفتقرين وهم يقولون: ﴿وَتَصَدق عَلَينا﴾." فيقول: "اجعل بكاءك في الدجى شفيعا في الزلل، ... ولا تقنع في توبتك إلا بمكابدة حزن يعقوب أو بصبر يوسف عن الهوى، فإن لم تطق فبذل إخوته يوم ﴿وَتَصَدق عَلَينا﴾."[173]

ويدعو الغافلين من السامعين للمبادرة إلى ركوب سفينة النجاة، ويلوح لهم ببشائر القبول والرضا من الرب الرحيم، الذي يقبل التوبة عن عباده؛ ويعزز حديثه بمفردات من القرآن الكريم، يقتبسها من سورة يوسف، حيث يشير إلى حقائق محفورة في الذاكرة، كلها تبشر بالفرج بعد الضيق، وقبول التوبة النصوح، فأرض كنعان (فلسطين) التي يسكنها يعقوب، تستبشر بقدوم البشير يحمل قميص يوسف، وقد اشتم يعقوب ريحه حينما فصلت العير، وسجن مصر الذي ضم الصدّيق يوسف، وقد أتاه بالفرج والخلاص بتعبير رؤيا الملك، وعبارات كثيرة يختارها ويلتقطها من موروث التاريخ العميق الذي يقتبسه من مفردات القرآن الكريم؛ فيعجب السامع والقارئ من هذه الإشارات التي تنقله إلى فضاءات إيمانية تدعوه للتأمل والرجوع إلى فهم حقيقة وجوده، وتشعره بسعة رحمة ربه، فيقول: "يا معشر الأقوام، هذه مشاعل القبول. يا فارغ البيت من القوت، هذه أيام اللقاط. يا مهجور "كنعان " متى تجد ريح " يوسف " يا سجن " مصر " متى يرى الملك سبع بقرات، يا "بنيامين الفراق" متى تسمع نغمات ﴿إِنِّي أَنا أَخوكَ﴾ يا دائم الزلل متى تضع جبهة ﴿وَإِن كُنا لَخاطِئِين﴾.[174]

مفردات قرآنية ينثرها في ثنايا حديثه، تبعث في النفوس الأمل، وتدعو السامعين للإقبال على الله، الذي يعلم السرائر والضمائر، فيصفح عن الصادق في توبته، ويأمر الملَك ليبدل كل سيئاته حسنات، كما

[173] ابن الجوزي، **اللطائف**،5.

[174] ابن الجوزي، **اللطائف**،5.

يوحي إلى الأرض أن تكتم كل خطيئة أخطأها التائب على ظهرها، فيقول: "وإذا وقعت عزيمة الصدق في قلب العبد التائب رضي المِلك، فأنسى المَلَك، ما كتب، وأوحى إلى الأرض: اكتمي على عبدي".[175]

لم يقتصر العلماء العاملون بهذه الإشارات المتفرقة في ثنايا الكلام، بل عزموا على تصنيف التفاسير القرآنية، التي تتضمن الإشارات اللطيفة، والفيوضات الطريفة، التي يمنّ الله بها عليهم، من خلال تدبرهم لآياته الكريمة، والتفكر في معانيه القدسية السامية. فإلى جانب إشارات السفيانيين[176] والجيلاني وابن الجوزي، التي نثرت في مواعظهم وأحاديثهم في مجالسهم، ولدت تفاسير جليلة عنيت بالدراية والإشارة، إلى جانب المأثور الذي يعتمد على النقل والرواية.

[175] ابن الجوزي، **اللطائف**،5.

[176] السفيانيين: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة.

فظهرت أول محاولة لتفسير إشاري في العصر العباسي، يعتمد على التأويل والمعقول، أكثر من الاعتماد على المأثور والمنقول؛ وكان ذلك للإمام سهل التستري (ت: 283هـ)، ثم تتالت التفاسير الإشارية بعده، فظهر تفسير الماتريدي (ت: 333هـ)، ثم تلاه تفسير السلمي (ت:412)، و بعده تفسير الإمام القشيري (ت: 465هـ)، فتفسير الجيلاني (ت: 561 هـ)، ومن بعده تفسير ابن العربي الطائي(ت: 638هـ)، وغيرها من التفاسير التي قدّمت موروثًا زاخرًا بالإشارات واللطائف المستنبطة من تدبر آيات القرآن الكريم، فأغنت علوم القرآن بالرقائق والمواعظ، ومثلت رافدًا مهمًا للمكتبة القرآنية، أسهمت في كشف معاني القرآن وبيان المراد منه، وكان لها الأثر البالغ في تقويم السلوك الإنساني، وتزكية النفس البشرية وتهذيبها.

المطلب الثاني: تعدد التفاسير الإشارية وتنوعها في العصر العباسي

شهد العصر العباسي ازدهارًا ملحوظًا في شتى العلوم المختلفة، وبرز التحدي الثقافي أمام العرب، الذين كانت ثقافتهم ثمرة ناتجة عن بيئتهم، التي تُعنى بالأدب والفصاحة والبلاغة في الشعر والنثر، وعلم النجوم وقص الأثر، وقد انصبت عنايتهم بفهم القرآن الكريم على المأثور من التفسير، إلا النزر[177] اليسير من تأويل بعض آيات القرآن، التي تحمل الوجوه المختلفة من المعاني الإعرابية أو البلاغية.

ولكن الأمم التي دخلت الإسلام بعد الفتوح، من الفرس والروم والترك، وما تمتلك هذه الأمم من ثقافات ناتجة عن حضارات قديمة، تمتد جذورها العميقة إلى أعماق التاريخ الموغل في القدم، قد أسهمت في وجود علم الكلام والمنطق، حيث ازدهرت الفلسفة؛ واتجه المخلصون من المؤمنين العجم في تدبر آيات القرآن الكريم، انطلاقًا من ثقافاتهم الموروثة، فتعددت التفاسير وتنوعت، ونشط المفسرون من العلماء في تدبر آيات القرآن الكريم، كلٌ حسب بيئته ومخزونه الثقافي.

[177] النزر: القليل من كل شيء. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (نزر). الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة (نزر).

فظهر التفسير الموضوعي الذي يعتبر البذرة الأولى للتفسير الإشاري؛ وأول من عني به الجاحظ[178] (ت:255هـ) الذي ذكر في بعض كتاباته ما يمكن أن يمثل الموضوعات المستقلة التي تعد اللبنات الأولى للتفسير الموضوعي مثل ذكر؛ "النار في القرآن"، و"ما ذكر به الكلب في القرآن من مديح أو ذم"، و"العذاب بالجراد والقُمَّل والماء"، و "الملائكة في القرآن".. وهكذا[179].

وجاء بعده علماء كثيرون أدلى كل منهم بدلوه لا يمكن حصرهم، على مر القرون والأزمنة؛ فمنهم من عني بالتفسير الفيضي؛ وهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر المراد.[180] ويمثل هذا النوع من التفسير الإمام التستري، والإمام القشيري، إلا أنَّ كلًا منهما يرى أنَّ الأصل في المعاني القرآنية هو ظاهر النص على ما يحمله من الوجوه في لغة العرب.

يقول سهل رحمه الله: " أنزل الله القرآن على خمسة أخماس، خمس محكم، وخمس متشابه، وخمس حلال، وخمس حرام، وخمس أمثال. فالمؤمن العارف بالله –تعالى– يعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، ويحلّ حلاله ويحرّم حرامه، ويعقل أمثاله..." [181]

والمتأمل فيما سبق من قوله يتبين له منهجه في التفسير، فهو يرى أن للقرآن خمسة وجوه، ولا ينكر وجهًا منها، ولا يعطله، بل يؤمن بمحكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، ويقف عند أمثاله ليتدبر ويتفكر، ويبوح بما يلهمه الله من الإشارات، التي تنتج عن فيوضات نورانية يقذفها الله في قلوب العارفين من عباده.

---

[178] الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، ويكنى أبا عثمان، ويعرف بالجاحظ، عالم متبحر بالعلم، وكبير أئمة الأدب، ومن أشهر علماء المعتزلة، ولد في البصرة سنة 163 هـ، له تصانيف كثيرة، منها: الحيوان، والبيان والتبيين، وسحر البيان، روى عن: أبي يوسف القاضي، وثمامة بن أشرس، وروى عنه: أبو العيناء، ويموت بن المزرع، مات في البصرة سنة 255هـ، بسبب وقوع مجلدات من الكتب عليه. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 526/11. الزركلي، **الأعلام**، 74/5.

[179] انظر: مصطفي الصاوي الجويني، **مناهج في التفسير** (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1971م)، 158.

[180] محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون** (القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت)، 261/2.

[181] التُستري، **تفسير التستري**، 18-19.

وينكر على من يجادل في آيات الله التي لا نقاش في معناها ولا مراء، مما فرضه الله –سبحانه– في كتابه العزيز على عباده، من الحلال والحرام، ومن شرائع الأحكام فيقول: "في القرآن آيتان ما أشدّهما على من يجادل في القرآن، وهما قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[غافر: 4] أي يماري في آيات الله، ويخاصم بهوى نفسه وطبع جبلّة عقله، والثانية قوله:﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾[البقرة:176]."[182]

يتبين من خلال كلامه في مقدمة تفسيره، أنه يقف عند المعاني الظاهرة التي لا مراء فيها ولا جدال، أما ما تحمله الآيات القرآنية من وجوه المعاني فله فيها تأملات لطيفة واستنباطات طريفة.

[182] التُستري، **تفسير التستري**، 18-19.

أما الإمام القشيري فيبدو أنه يلتزم بظاهر النص كذلك، ولا يخرج عن ضوابطه، حيث يوضح محقق التفسير في مقدمته منهج المفسر، ويبين وقوفه عند المعاني الظاهرة، الموافقة لقواعد النحو واللغة وفنون الأدب، ولا تخرج الإشارات التي يستنبطها عن الأخبار الموثوقة، وعلوم الحديث، وأصول الفقه، فكل إشاراته منضبطة في قواعد الشريعة وأحكامها. حيث يقول: "إن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآني ليس عملية عقلية صرفة...فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربي ...ولا تخرج بها عن الدلالات التي توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه.

يلاحظ القارئ قوله: إن الإشارة التي يستنبطها من المعاني القرآنية، مقيدة بالعبارة، فلا افتيات للإشارة على العبارة"[183]. وفي هذا دليل صريح على التزام القشيري بظاهر النص، الذي لا يخفى معناه على من عرف لغة العرب وقواعدها.

ومنهم من عني بالتفسير الصوفي النظري، الذي يرى صاحبه أنَّ كل ما تحتمله الآية من المعاني الإشارية هو المراد والمقصود[184]، وأشهر من صرح بهذا الاتجاه من التفسير هو الشيخ محي الدين بن عربي، الذي يرى أن التفسير الحقيقي الذي هو الأصل في فهم كلام الله –عزَّ وجلَّ–، ذلك العلم المكنون، الذي لا يدركه إلا الخاصّة من العارفين، الذين تنورت بصائرهم، فعلموا مالا يعلمه العامة من أهل الرسوم، وأرباب ظواهر العلوم، فيقول: " إن ما يسمونه إشارة ما هو إلاّ إيناس لعلماء الظاهر من علوم الشريعة، واتقاء لشرهم وتشنيعهم، ورميهم بالكفر لكل من يدعي أن هذه الإشارات من العارفين ماهي إلا حقيقة التفسير لكلام الله تعالى، الذي فتح عيون قلوبهم، وكشف الغطاء عن بصائرهم، فشهدوا مالا يشهده العامة من أهل الظاهر".[185]

---

[183] القشيري، **لطائف الإشارات**، 1/23-24.

[184] محمد السيد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون** (القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت)، 2/261.

[185] انظر: ابن العربي، **الفتوحات المكية**، 1/421 (بتصرف).

يبدو للمتأمل أن الشيخ محي الدين يرى أن المعاني الظاهرة من التفسير الذي يدركه الفقهاء وعلماء الظاهر، ما هي إلا غطاء لحقائق الأسرار، التي لا يكشفها الله إلا لخاصّة العارفين من أوليائه، الذين يطلعهم على مكنون غيبه، الذي لا يظهره إلا لمن ارتضى من عباده.

إن هذه التفاسير على تنوعها، واختلاف مناهجها ساهمت بشكل أو بآخر في تبصرة الناس، وإيقاظهم من رقدة الغافلين، وتنبيههم من سكرة العيش، التي غرق في غمراتها غالب المجتمع العباسي، على اختلاف مشاربهم، وتنوع مداركهم، وكان لكل شريحة من الناس لون من ألوان التفسير الإشاري، الذي يناسب تفكيره، ويجاري مداركه، وكل من هذه التفاسير قد كرسه صاحبه لدعوة الناس إلى تدبر كلام الله، وفهم مقاصد شريعته.

المطلب الثالث: عزوف شريحة من المجتمع العباسي عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

إنه الزمن الذهبي للمسلمين في العصر العباسي، فهو عصر الازدهار الثقافي والحضاري، وانفتاح الدنيا على الناس بعد فتوح البلدان، حيث ظهر الترف المعيشي في المجتمع، وكثر الإقبال على اللذات، وانغمس أغلب الأغنياء في الشهوات، حينها قيض الله لهذه الأمة من يوقظها من رقدتها، وينبهها من غفلتها؛ حيث ظهرت دعوات صادقة متزايدة، تُرَغِّبُ الناس بالزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، فانتشرت المجالس الوعظية، التي جعلت عمدتها التفاسير الإشارية، التي كرس أصحابها معظم ما في معاني الآيات الواصفة غرور الدنيا وزوالها، ونعيم الآخرة وبقاءها. هدفها دعوة الناس للتفكر والتدبر في شؤون الحياة الفانية والحياة الباقية.

وانتشرت ثقافة الزهد في المجتمع العباسي، وشاعت قصص الزاهدين وأخبارهم، وصنفت الكتب التي تصف أحوالهم، واشتهرت كتب الزهد التي تستحضر حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه

الكرام، لتنقل إلى الناس صورًا من سبل المعيشة في عهد النبوة والراشدين، فصنف المعافي بن عمران الموصلي[186] (ت: 185هـ)، كتابًا في الزهد [187] كما صنّف وكيع بن الجراح[188] شيخ الشافعي (ت: 197هـ) كتابًا في الزهد كذلك[189]، وألّف كل من: أسد بن موسى بن إبراهيم الأموي [190]، وأحمد بن حنبل الشيباني، وأبو داود الأزدي[191] صاحب السنن وغيرهم صنفوا كتبًا في الزهد[192] كلها تدعو الناس للاقتداء والتأسي بالنبي وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.

أما الدّعاة الذين كانوا يعظون الناس ويرشدونهم، ويرغبونهم بالعزوف عن الدنيا والإقبال على الآخرة، فلم يكن حالهم وفعلهم يخالف قولهم، ولا سلوكهم يناقض دعواهم. فهذا حمَّاد بن سَلَمة البَصْرِيّ[193]، الذي

---

[186] المعافي بن عمران: هو المعافى بن عمران بن نفيل بن جابر بن جبلة الأزدي الموصلي، شيخ الإسلام، وياقوتة العلماء، وأحد الثقات من حفاظ الحديث، ولد: سنة نيف وعشرين ومائة، صنف كتباً في: السنن والزهد والأدب والفتن وغير ذلك، سمع: هشام بن حسان، وجعفر بن برقان، وحنظلة بن أبي سفيان، حدث عنه: موسى بن أعين، وابن المبارك، وبقية بن الوليد، توفي سنة 185هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 80/9. الزركلي، **الأعلام**، 260/7.

[187] انظر معافي بن عمران الموصلي، **الزهد**، تحقيق: عامر حسن صبري (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1991م).

[188] وكيع بن الجراح: هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، حافظ للحديث، ومحدث العراق في عصره، ولد بالكوفة سنة 129هـ، سمع من: هشام بن عروة، وسليمان الأعمش، وإسماعيل بن أبي خالد، حدث عنه: سفيان الثوري – أحد شيوخه – وعبد الله بن المبارك، والفضل بن موسى السيناني، من كتبه: تفسير القرآن، والسنن، المعرفة والتاريخ، توفي بفيد راجعا من الحج سنة 197هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 140/9. الزركلي، **الأعلام**، 117/8.

[189] انظر: وكيع بن الجراح بن عدي، **الزهد**، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي (المدينة المنورة: مكتبة الدار، 1984م).

[190] أسد بن موسى الأموي: هو أسد بن موسى بن إبراهيم بن الوليد الأموي المرواني المصري، ويلقب بأسد السنة، وهو من حفاظ الحديث الموثوقين، ولد بمصر سنة 132هـ وأقام بها، روى عنه: البخاري في التاريخ وروى عنه أبو داود والنسائي، له تصانيف من أهمها: فضائل الشيخين، توفي بمصر سنة 212هـ. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 7/9. الزركلي، **الأعلام**، 298/1.

[191] أبو داود الأزدي: سليمان بن الأشعث بن إسحاق أبو داود السجستاني، ويكنى أبا داود، محدث البصرة وإمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان، ولد سنة 202هـ، سمع من: سليمان بن عبد الرحمن، وهشام بن عمار، وهشام بن خالد، من أهم مصنفاته: كتاب السنن وهو أحد الكتب الستة جمع فيه 4800 حديث، والمراسيل، الزهد، توفي سنة 275هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 140/9. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 218/15. الزركلي، **الأعلام**، 122/3.

[192] انظر: كتاب **الزهد** لأسد بن موسى بن إبراهيم القرشي، الملقب بأسد السنة، تحقيق: أبو اسحق الحويني الأثري (الجيزة: مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، 1993م). كتاب **الزهد** لأحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999م). كتاب **الزهد** لأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: ياسر بن ابراهيم غنيم (حلوان: دار المشكاة للنشر والتوزيع، 1993م).

[193] حمّاد البصريّ: حماد بن سلمة بن دينار البصري، ويكنى أبا سلمة، كان مفتي البصرة، وإمامًا في العربية، وهو أحد رجال الحديث، ويعد أول من صنف التصانيف المرضية، سمع من: ابن أبي مليكة – وهو أكبر شيخ له – وأنس بن سيرين، ومحمد بن زياد القرشي، توفي 167هـ

يقصُّ على النَّاس ويعظهم، ويدعوهم إلى الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، كان عالمًا وإمامًا في الحديث، وعبقريًا في النحو وعلوم الآلة، وله مكانة عالية في البصرة؛ لكن الدنيًا لم تغرّه، ومناصبها ورتبها لم تلهه، فقد كان زاهدًا عابدًا صالحًا، لو قيل له: إنَّك تموت غدًا، ما زاد في العمل شيئًا.

يخبرنا مقاتلُ بن صالح[194] بعض جوانب حياة حماد، وكان صاحبًا مؤانسًا له، فيقول: "دخلت على حمَّاد، فإذا هو جالسٌ في البيت على حصيرٍ ليس فيه غيرُه ومصحفٌ يقرأ فيه، وجِرابٌ فيه عِلْمُهُ، ومِطهرةٌ يتوضَّأ فيها. فبينا أنا جالسٌ عنده إذ دقَّ البابَ داقّ، فقال: يَا صَبيَّة، أُخرجي فانظري مَن هذا، فخرجت وعادت، وقالت: رسولُ محمدِ بن سليمان[195]، فأَذن له، فدخل فناوله كتابًا فيه: "من محمدِ بن سليمانَ إلى حمادِ بن سَلَمة، سلامٌ عليك، أما بعد: فصبَّحك اللهُ بما صبَّح به أولياءَه وأهلَ طاعته، قد وقعت مسألةٌ فأْتِنا لنسألَك عنها، والسلام".

قال مقاتل: قال لي: اقلبْ الكتاب، فقلبتُه، فقال: اكتب، فكتبت: "أمَّا بعد: وأنت صبَّحك اللهُ بما صبَّح به أولياءه وأهلَ طاعته، إنَّا أدركنا العلماءَ وهم لا يأتون أحدًا، فإن كانت وقعت مسألةٌ فأْتنا وسلْ عمَّا بدا لك، ولا تأتِني إلَّا وحدك، ولا تأتني بخَيلك ورَجِلك، فإنِّي لا أَنصح لك، والسلام".[196] نلاحظ من هذا المشهد زهد الإمام وإعراضه عن متاع الدنيا الزائل، واستغناءه عن الولاة والأمراء؛ أما رده على الرسالة التي وجهها إليه والي البصرة يدعوه فيها إليه، ليستشيره في مسألة عرضت له، ينبئ عن أدب جمٍّ، وتلطف في الخطاب، إلى جانب عزة نفس، وعفة وترفع عن طلب الجاه، وإكرام للعلم الذي وهبه الله

وروى له مسلم والأربعة. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 453/7. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 89/13. الزركلي، **الأعلام**، 272/2.

[194] مقاتل بن صالح: هو مقاتل بن صالح بن راشد الأنماطي، ويكنى أبا الحسن، أحد الثقات المستورين، حدث عن: إسحاق بن منصور الكوسج. روى كتاب أبي يعقوب الكوسج، وغير ذلك. توفي يوم السبت غرة رجب سنة 286هـ. انظر: البغدادي، **تاريخ بغداد**، 220/15.

[195] محمد بن سليمان بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، ولد بالحميمة من أرض البلقاء، وكان ذا جلالة، وولي الكوفة والبصرة. انظر: محمد بن مكرم الشهير بابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق: روحية النحاس (دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع، 1402هـ)، 199/22.

[196] ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، 371/12.

إياه. وقد حدَّثَ عنه كل من عرفه بأنه ما رئي ضاحكًا، ولا لاهيًا، وإنما ملأ وقته إما بالذكر، وإما بتلاوة القرآن، وإما بكثرة القنوت والسجود.

قال موسى بنُ إسماعيل[197]: "ما رُئي حمادٌ ضاحكًا قط، كان مشغولًا بنفسه، إمَّا أن يقرأ، وإما أن يصلِّي، وإما أن يسبِّح" [198].

واستجابت شريحة كبيرة من المجتمع العباسي لدعوات الزهد، وأقبل الكثير من الناس على الذكر والفكر، والخشوع والمراقبة، وعاشوا الأحوال التي عاشها الصحابة الكرام، بل بالغ الكثير منهم حتى فاقوا زهد الصحابة وتبتلهم[199]، فانقطعوا عن معاشرة الناس، ولاذوا بالخلوات، وبعضهم ساح في الفلوات، وآخرون راقبوا الأنفاس والزفرات، واستعدوا بكل طاقاتهم للإقبال على الطاعات.

وانتشرت ثقافة الزهد في المجتمع العباسي، وذاع فقه التوكل على الله، والاستغناء عن الناس، ونلمس ذلك الاستغناء والإباء لدى طائفة واسعة من الناس إلى جانب العلماء والوعاظ.

ويشهد حمّاد نفسه لجيران له من عامة الناس، بل من أسرة فقيرة مكونة من أرملة وأيتامها، يأبى أفرادها معونة الخلق اعتمادًا على عون الخالق؛ رغم العوز والاحتياج. يقول حمّاد: "كانت لي جارةٌ ولها بناتٌ يتامى، وكانت ليلةً ممطرة، فوكف عليهم السَّقف، فسمعتُ المرأةَ وهي تقول: يَا رفيقُ ارفقْ بنا، فسكن المطرُ وانقطع الدَّلف، فقلت: هذه امرأةٌ مستجابةُ الدعوة، فأخذتُ في كمِّي دنانيرَ ونزلت... فأخرجتُ الدنانيرَ من كمِّي وقلت: أَنفقي هذه الدنانيرَ على بناتك وأيتامك، وإذا بصبيَّة خُماسية -أي:

---

[197] موسى بن إسماعيل: هو موسى بن إسماعيل التبوذكي، ويكنى أبا سلمة، عالم حافظ للحديث، لقب بشيخ الإسلام، ولد في صدر خلافة أبي جعفر، وهو من أهل البصرة، روى عن خلق كثير منهم: أعين الخوارزمي – من صغار التابعين – وجرير بن حازم، وشعبة حديثا واحدا، وجويرية بن أسماء، حدث عنه: البخاري، وأبو داود، والحسن بن علي الخلال، وخلق كثير، توفي سنة 223هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 360/10. الزركلي، **الأعلام**، 320/7.

[198] ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، 371/12.

[199] تبتلهم: التَّبَتُّلُ هو الانقطاع عن الدنيا إلى الله وكذا. انظر: محمد بن أبي بكر الرازي، **مختار الصحاح**، تحقيق: يوسف الشيخ محمد (بيروت: المكتبة العصرية، 1420هـ)، مادة (ب ت ل).

بنتُ خمسِ سنين– قد خرجتْ وعليها جبَّة صوفٍ تستبين حروفها، فقالت: قد علمنا يَا حمادُ أنَّما بعثك إلينا بالدنيا ليطردَنا عن بابه، ردَّ دنانيرَك عافاك الله، فنحن في غِنًى عنها."[200]

أية سكينة عمت هذه الأسرة المؤمنة؟!، وأية قيم تربت عليها هذه الأسرة؟! وأي إيمان يسكن قلب هذه الصبية! وما مدى تحقق التوكل في قلوب أولئك اليتامى وأمهن؟! إنها التربية الصالحة، الناجمة عن صدق الدعاة وإخلاصهم، وتقبل الفِطَرِ السليمة للدعوات الصادقة المخلصة، التي يتمثل أصحابها الوعظ والإرشاد بالحال قبل القال.

لقد استجابت شريحة واسعة من المجتمع العباسي لدعوات المخلصين من الوعاظ والمرشدين، فكثر العُبَّادُ الذين نذروا أنفسهم للعبادة وتفرغوا لها، واشتهر الكثير من الزهاد المتبتّلين الذين عزفت نفوسهم عن الدنيا، فأظمؤوا نهارهم وأسهروا ليلهم، ولهجت ألسنتهم بذكر الله، وتعلقت قلوبهم به، تقربًا منه وشوقًا للقائه. كتب صاحب مرآة الزمان يصف حال واحد من العُبَّاد، يدعى "رياح بن عمرو" وعَدَّه نموذجًا للخائفين المتعبدين. حيث نقل عن بعض أقاربه قوله: "كنتُ إذا دخلت عليه المسجدَ أراه يبكي، وإذا دخلت عليه البيت أراه وهو يبكي، ورأيته في الجبَّان وهو يبكي، فقلت له يومًا: أنت دهرَك في مأتم وبكاء، ثم قال: يحقُّ لأهل المصائب والذنوب أنْ يكونوا كذا" [201].

[200] ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، 371/12.

[201] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 179/12.

نلاحظ في هذا النموذج العباسي مدى إعراض بعض الناس عن الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، متأثرين بالأئمة الأعلام، كالسفيانين، والحسن البصري، وابن المبارك، وغيرهم؛ الذين كرّسوا حياتهم لدعوة الناس للأعمال الصالحة، والإقبال على الآخرة، ورغبوهم بما عند الله فيها، وزهدوهم في الدنيا ولهوها وملذاتها. كما نلاحظ مدى حرصهم على استثمار الزمن في الطّاعات، وعدم التفريط بساعة من ساعات العمر إلا في عبادة وذكر.

جاء رياح[202] ذات يومًا بعد العصر يسأل عن صاحب له مؤانس اسمه ضيغم بن مالك[203]، فقيل: هو نائم، فقال: "أنومٌ في هذه الساعة؟! ثم ولَّى". ولكنه راجع نفسه ولامها لومًا شديدًا على فضولها ودخلها فيما لا يعنيها؛ قال مالك بن ضيغم: " فأتبعناه رسولًا وقلنا: ألا نوقظه لك؟ فغاب الرسول حتى غربت الشمس، ثم رجع، فقلنا له: أبطأت! فقال: هو كان أشغل من أن يفهم عني شيئًا، أدركتُه وهو يدخل المقابر، وهو يعاتبُ نفسه ويقول: قلتِ: نومٌ هذه الساعة؟ ينامُ الرجل متى شاء، وما عليك من هذا، تسألين عما لا يعنيكِ، لله عليَّ أن لا أوسِّدَك الأرضَ سنة إلَّا من عذر، وجعل يوبِّخُها ولا يعلمُ بمكاني، فانصرفتُ وتركتُه"[204]. إنَّ عتابه لنفسه هذا العتاب الشديد، وتوبيخها على أهون الأمور، وإلزامها مشقة المجاهدة والمكابدة من أجل زلة لسان بسيطة، يمكن أن نعدها من اللطائف الطريفة. وما هو إلا دليل على حضور دائم مع الله، وتذكر مستمر لساعة الحساب. لقد عرف عنه دوام المراقبة، وشدة الخشية والخوف من الله تعالى: "وربما وُجد في بعض سكك المدينة مغشيًا عليه من الخوف، وكان له

---

[202] رياح: هو رياح بن عمرو القيسي أبو المهاصر، عابد، زاهد، كبير القدر، كان قليل الحديث، كثير الخشية والمراقبة، وأصله من البصرة، سمع من: مالك بن دينار، وحسان بن أبي سنان، وغيرهما، روى عنه: سيار بن حاتم، وعلي بن الحسن بن أبي مريم، وغيرهما، قيل: إن رياحا روى عن الحسن البصري، وذلك في (حلية الأولياء). الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 174/8.

[203] ضيغم بن مالك: هو ضيغم بن مالك أبو بكر الراسبي البصري، عابد، زاهد، رباني، عرف بالصلاح والتقوى، وأصله من البصرة، أخذ عن: التابعين، روى عنه: ابن مالك، وسيار بن حاتم، وأبو أيوب مولى ضيغم، ذكر أنه كان ورده في اليوم والليلة أربع مائة ركعة، وأنه كان ينام ثلث الليل، ويتعبد ثلثيه، توفي سنة 181هـ. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 421/8. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 216/16.

[204] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 179/12.

مِسْحٌ[205] من شَعر، وغُلٌّ من حديد، فكان إذا جنَّهُ الليلُ لبس المسح وجعل الغُلَّ في عنقه، وبكى وتضرَّع إلى الصبح.." [206]

كما كان– رحمه الله– يدعو غيره، ليشاركه الحال الذي هو فيه، للانعتاق في فضاءات السمو الروحي، وآفاق المراقبة الدائمة، والخشية من نتائج العواقب. قال الحارث بن سعيد: " أخذ بيدي رياح وخرج بي إلى المقابر وقال: تعال حتى نبكي على ممرِّ الساعات، ونحن على هذه الحال، ثم صرخَ ووقعَ مغشيًّا عليه، ثم أفاقَ وهو يقول: وانفسَاه وانفسَاه، ثمَّ قال: لنفسك فابك، ثم قام من غشيته وهو يقول: ﴿تلك إذًا كرةٌ خاسرة﴾ [النازعات:12] فلم يلبث إلَّا أيَّامًا حتى مات". [207]

لقد شغله الخوفُ من المصير، وفجعه البكاءُ الكثير، حتى قضى نحبه، تاركًا خلفه ذلك الأثر الذي لا تمحوه الأزمان ولا تنساه الأجيال.

إنه يمثل نموذجًا صادقًا وصريحًا لتلك الطائفة من الناس، في زمن الغفلة والسكرة، الزمن الذي يعيشه مجتمع غارق في الشهوات، ممعنٌ في اللذات؛ أو منشغل بأحداث السياسة والاضطرابات. أما صاحب رياح ضيغم بن مالك الذي عاصره، فقد كان من الخائفين البكائين المحزونين، إلى جانب ما عرف عنه من كثرة الركوع والسجود، ومداومة الذكر في القيام والقعود. يقول عنه ابن الجوزي –رحمه الله–: " فقد كان وِردُهُ في كلِّ يوم أربع مئة ركعة، وكان يركعُ حتى لا يقدر أن يسجد، ثمَّ يرفعُ رأسه إلى السماء ويقول: قرَّة عيني، كيف عزفت قلوبُ الخليقة عنك؟!" [208] لقد بلغ به الأنس بالله، ولذة مناجاته، أنه يديم سهر ليله قيامًا وركوعًا وسجودًا، وكان يعجب من غفلة الغافلين، وإعراضهم عن الوصال مع رب العالمين.

---

[205] مسح: كساء غليظ من شَعَر. أحمد مختار، بمساعدة فريق عمل، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، مادة (م س ح)، 2095/3.

[206] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 179/12.

[207] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 179/12.

[208] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 180/12.

بل كان يتطلب مرضاة الله – سبحانه– في كل شأن من الشؤون، ويرغب وصاله حتى ولو قدم روحه، وأفنى جسده، وجعل ذلك ثمنًا لقبوله في حضيرة قدسه. قال مولاه أبو أيوب: سمعته يقول: "إلهي، لو أعلمُ أن رضاكَ في قرضِ لحمي لقرضته بالمقاريض". [209] يقرض لحمه بالمقاريض، ويُقَطِّعُ جلده، ويمزق لحمه؛ في سبيل مرضاة مولاه، يهون كل ذلك عليه! إنه الصدق في المحبة، هو الذي دعاه لأن يقدم نفسه قربانًا لمولاه ومحبوبه، ويبذل كل ذلك ثمنًا لوصاله.

وينقل لنا ولده مالك مشهدًا من المشاهد التي شهدها، تصور حال ضيغم مع الله، فيقول: " قالت أم ضيغم له يومًا: ضيغم، قال لها: لبيك يا أماه، قالت: كيف فرحك بالقدوم على الله؟ فصاح صيحة لم يُسمع صاح مثلَها قطّ، وسقط مغشيًّا عليه، فجلست العجوز تبكي عند رأسه وتقول: بأبي أنت وأمي، ما نستطيعُ أن نذكرَ بين يديك شيئًا من أمر ربك". [210] أرادت أمه أن تسعده بفرح الوصال، وتَسُرَّه بلقاء المحبوب، الذي لا يفتأ يذكره ويناجيه، فلما بلغ سَمْعُهُ اسم محبوبه صُعق وخرَّ مغشيًا عليه، لا يعي ما يدور حوله. إنها نماذج حية تمثل حال الكثيرين من الناس في ذلك الزمن، وتصور إقبالهم على الله، رغبة فيما عنده، وزهدًا في الدنيا ومتاعها، وتجافيًا عن لذاذتها وبهرجها، طمعًا بما عند الله من النعيم المقيم، والخير العميم.

وهكذا فقد تناول في هذا المبحث الباحث التفاسير الإشارية الهادفة، التي ظهرت في العصر العباسي، وكانت الغاية من ظهورها إصلاح المجتمع، الذي ساد فيه الظلم والفساد، والترف واللهو والضلال، حيث تعددت التفاسير الإشارية وتنوعت، وساهمت في تبصرة الناس وإيقاظهم من رقدة الغافلين، وتنبيههم من سكرة العيش، التي غرقوا في غمراتها على اختلاف مشاربهم، وتنوع مداركهم. وقد وجدت كل طائفة من الناس لونًا من ألوان التفسير الإشاري، يناسب تفكيرهم، ويجاري مداركهم، وكل من هذه التفاسير كرَّسه

---

[209] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 180/12.

[210] سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 180/12.

صاحبه لدعوة الناس إلى تدبر كلام الله، وفهم مقاصد شريعته. ومن أعلام المفسرين في ذلك العصر، سهل التستري، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الكريم القشيري، ومحي الدين بن عربي.

وقد نشط هؤلاء العلماء في تدبر آيات القرآن الكريم، كل حسب بيئته ومخزونه الثقافي. فظهر التفسير الموضوعي الذي يعتبر البذرة الأولى للتفسير الإشاري، وأول من عني به الجاحظ (ت:255هـ) الذي ذكر في بعض كتاباته ما يمكن أن يمثل الموضوعات المستقلة التي تعد اللبنات الأولى للتفسير الموضوعي مثل ذكر؛ "النار في القرآن"، و"ما ذكر به الكلب في القرآن من مديح أو ذم"، و"العذاب بالجراد والقُمَّل والماء"، و "الملائكة في القرآن".. وهكذا.

وجاء بعده علماء كثيرون أدلى كل منهم بدلوه لا يمكن حصرهم، على مر القرون والأزمنة؛ فمنهم من عني بالتفسير الفيضي؛ وهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر المراد. ويمثل هذا النوع من التفسير الإمام التستري، والإمام القشيري، بحيث يرى كل منهما أن الأصل في المعاني القرآنية هو ظاهر النص، على ما يحتمله من الوجوه في لغة العرب، ولا تخرج الإشارات التي يستنبطها عن الأخبار الموثوقة، وعلوم الحديث، وأصول الفقه. ومنهم من عني بالتفسير الصوفي النظري، الذي يرى صاحبه أن ما تحتمله الآية من المعاني الإشارية هو المقصود، وليس وراءه ما يمكن أن تُحمل الآية عليه.

وأشهر من صرح بهذا الاتجاه من التفسير هو الشيخ محي الدين بن عربي، الذي يرى أن التفسير الحقيقي الذي هو الأصل في فهم كلام الله –عزَّ وجلَّ–، ذلك العلم المكنون، الذي لا يدركه إلا الخاصة من العارفين.

واستجابت شريحة واسعة من المجتمع العباسي لدعوات المفسرين المخلصين من الوعاظ والمرشدين، فكثر العُبَّادُ الذين نذروا أنفسهم للعبادة وتفرغوا لها، واشتهر الكثير من الزهاد المتبتلين الذين عزفت نفوسهم

عن الدنيا، فأظمؤوا نهارهم وأسهروا ليلهم، ولهجت ألسنتهم بذكر الله، وتعلقت قلوبهم به، تقربًا منه وشوقًا للقائه.

مخطط توضيحي للفصل الثاني وأقسامه

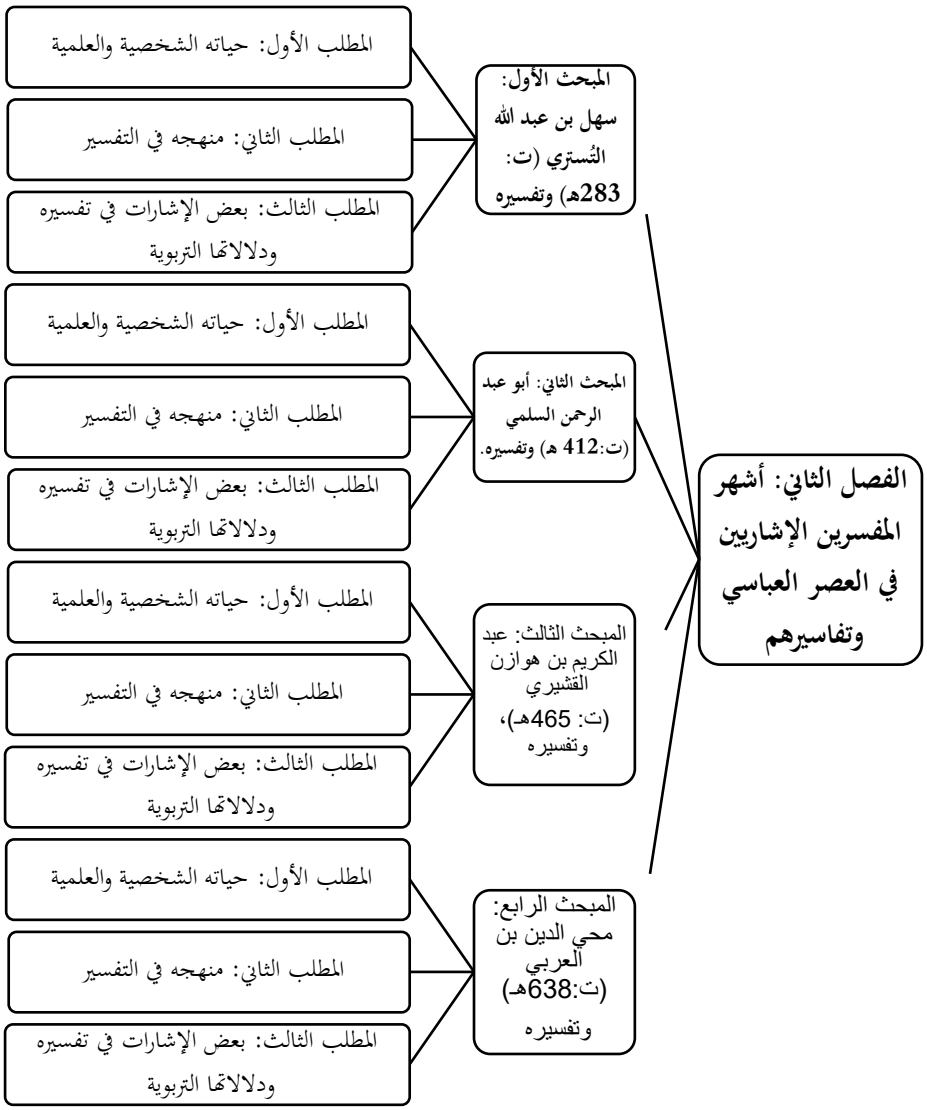

الفصل الثاني: أشهر المفسرين الإشاريين في العصر العباسي وتفاسيرهم

واكبت الدراسات القرآنية الثقافات المتنوعة في العصر العباسي، وبرع الكثير من العلماء الذين اطّلعوا على علوم اكتسبوها من الأمم التي خالطوها، لم يكن لهم بها عهد من قبل، كفلسفة اليونان، وحكمة الهند، وأدب الفرس، فحاولوا أن يصلوا بينها وبين معاني القرآن، وأن يربطوا بين ما في هذه العلوم من قواعد ونظريات وبين ما في القرآن من أصول وعقائد وأحكام. فأخذوا يتأوَّلون القرآن ويتدبرون معانيه، منهم من أصاب وأبدع، ومنهم من سلك في شرح نصوصه طرقاً ملتوية، فيها تعسف ظاهر، وتكلف غير مقبول؛ بل إن بعضهم حرَّف القرآن عن مواضعه، وفسّر ألفاظه حسب هواه، تعزيزًا لعقيدة فاسدة، أو بدعة مضلة، فتسبب بفتنة لاتنتهي عواقبها

وقد خَلَّف لنا هؤلاء العلماء على اختلاف مشاربهم، مصنفات عديدة في تفسير كتاب، وكل تفسير منها ينطبع بطابع صاحبه، وينتصر لمعتقده.

فالمعتزلة نشطوا في دعوتهم، وظهرت تفاسير لعلمائهم تدعو لبدعتهم، وتنتصر لعقيدتهم، وأشهر تفاسيرهم: تفسير أبي بكر الأصم (ت: 201 هـ)، وتفسير أبي علي الجبائي (ت: 303 هـ) تفسير أبي مسلم الأصبهاني (ت: 322 هـ)، وتفسير أبي الحسن الرماني (ت: 384 هـ) وأشهر تفاسيرهم وأنفعها، لولا الغلو في الانتصار لمذهب الاعتزال: تفسير الزمخشري (ت: 538 هـ) الذي مازال ينهل منه علماء الأمة على اختلاف مشاربهم؛ لما فيه من لطائف بلاغية وطرائف بيانية.

كما نشط علماء الشيعة في تصنيف التفاسير التي تنتصر لضلالاتهم وبدعهم، ومن أشهر هذه التفاسير: تفسير أبي حمزة الثمالي (ت:148)، والتفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري (ت: 260هـ)، وتفسير العياشي(ت:320هـ)، وتفسير فرات الكوفي(ت: 325 هـ)، وتفسير القمي(ت: 329هـ)، وتفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن لمحمد بن حسن الطوسي(ت: 460 هـ)، وتفسير روض الجِنان وروح الجَنان، لأبي الفتوح الرازي (ت: 535 هـ). وكلها تفاسير تلوي أعناق الآيات لتوافق معتقداتهم الضّالة، وبدعهم المنحرفة.

أما أهل السنة والجماعة فقد نشط علماؤهم في تصنيف التفاسير للقرآن الكريم على اختلاف مناهجها، وكان من أشهر هذه التفاسير القيّمة في ذلك العصر الذهبي: تفسير الطبري (ت: 310 هـ)، وتفسير الماتريدي (ت: 333 هـ) وتفسير ابن عطية (ت: 541 هـ)، وتفسير الرازي (ت: 606 هـ).

ونضجت فكرة التفسير الإشاري في ذلك العصر بصورة واضحة، فظهرت التفاسير الإشارية، التي لقيت قبولًا لدى شريحة كبيرة من علماء السنة، وكان أول من صنف تفسيرًا إشاريًا بنيويًا مستقلًا هو الإمام سهل التستري (ت: 283 هـ)، ثم تبعه أبو عبد الرحمن السلمي (ت: 412 هـ)، الذي صنف تفسيرًا سماه "حقائق التفسير" ليوحي للقارئ أن حقيقة التفسير تكمن في الرمز والإشارة، ثم تلاه الإمام القشيري (ت: 465 هـ) ثم الشيخ عبد القادر الجيلاني(ت: 571 هـ) ثم يأتي الشيخ روزبهان البقلي الشيرازي (ت: 606 هـ) ليصنف "عرائس البيان في حقائق القرآن"، ثم يتبعه الشيخ نجم الدين الأسدي الرازي (ت: 618 هـ)، ليصنف تفسيره باسم "التأويلات النجمية" وفي نهاية العصر العباسي يصنف الإمام محي الدين بن عربي (ت: 638 هـ)، تفسيره الذي كثر الجدل حوله بين علماء الأمة، ما بين مادح وقادح، وما زال المراء والخصام قائمًا حول هذا التفسير، الذي كثر فيه الرمز والإبهام، بل حول شخصية صاحب التفسير وسائر تصنيفاته. وذلك لخفاء الكثير من المعاني التي طرحها في كتبه، والتي لا

يمكن لعامة العلماء في علوم الشريعة فهم الكثير من إشاراته ورموزه. وسنتناول في بحثنا هذا نماذج من بعض هذه التفسيرات الإشارية، ندرس حياة أصحابها، ومناهجهم في التفسير، ونقف على بعض تفسيراتهم التي أسهمت في تقويم السلوك الإنساني، وكان لها الأثر البالغ في تزكية نفوس القارئين، وإصلاح سرائرهم، وعلاج أمراض قلوبهم.

المبحث الأول: سهل بن عبد الله التُستري (ت: 283هـ) وتفسيره.

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية.

المبحث الأول: سهل بن عبد الله التُستري (ت: 283هـ) وتفسيره.

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية. [211]

أ–اسمه ونسبته ومولده ووفاته:

تعددت المصادر التي ترجمت لحياة سهل التُسْتري، وقد تناولت اسمه وكنيته، فهو: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التّستري. كما ذكرت المدينة التي ولد فيها، وهو ينسب إليها؛ وحددت سنة ولادته، فقد ولد بمدينة تُسْتَر في سنة مائتين، وقيل: إحدى ومائتين. ومدينة تستر التي ترجع نسبة سهل إليها، من أعظم مدن خورستان، وجعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها

[211] انظر ترجمته وأقواله في: محمد بن الحسين السلمي، **طبقات الصوفية**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ)، 166 –171. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** (القاهرة: مطبعة السعادة، 1974م)، 189/10–190. القشيري، **الرسالة القشيرية**، 59/1–60. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، **صفة الصفوة**، تحقيق: أحمد بن علي (القاهرة: دار الحديث 2000م) 272/2–273. عبد الوهّاب بن أحمد بن علي الأنصاري، **الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء الصوفية)**، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وغيره (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2005م)، 142/1–145. ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، 342/2– 344. الزركلي، **الأعلام**، 143/3.

منها؛ أما وفاته فكانت بالبصرة". [212] ولكن اختلفت الروايات في تحديد سنة الوفاة، فقيل: توفي سنة 273 هـ (ثلاث وسبعين ومائتين) وقيل سنة 283 هـ (ثلاث وثمانين ومائتين)، فرحمه الله رحمه واسعة.[213]

ب- نشأة التستري وبداية سلوكه طريق التصوف:

نشأ سهل التستري في مسقط رأسه تستر، وكان ملازمًا لخاله الذي تربى في كنفه، ويبدو أن خاله كان من ذوي الصلاح والتقوى، لذلك ظهرت بدايات تعلق التستري بالتصوف في سن مبكرة جدًا، وقد وثَّقَ اليافعي نصًا مرويًا عن سهل نفسه، حيث تحدث عن نشأته في كنف خاله، وبداية سلوكه طريق التصوف، فقال: "كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقوم بالليل، وكان يقول: يا سهل، اذهب ونم، فقد شغلت قلبي. وقال لي يومًا خالي: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي.... فوجدت لها حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوما: يا سهل، من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده لا يعصيه، إياك والمعصية." [214]

ويتابع سهل مسيرة حياته الدينية، في اشتغاله بالعبادة ومكابدة تكاليفها من الصوم والصلاة، والشغف بالقرآن وحفظه، وطلبه العلم الشرعي وشيوخه؛ فيقول: "حفظت القرآن وأنا ابن ست أو سبع، وكنت أصوم الدهر، وقوتي خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت

---

[212] جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، **تلبيس إبليس** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 2001م)، 150.

[213] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 281/2.

[214] انظر: عبد الله بن أسعد اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل المنصور (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م)، 149/2 – 150.

أن يبعثوا بي إلى البصرة أسأل عنها...ثم رجعت إلى تستر، فجعلت قوتي اقتصارا على أن يُشترى لي بدرهم فرقان الشعير، فيطحن ويختبز..."[215]

أما شيوخه الذين أخذ عنهم الطريق:

فيتضح لنا مما سبق أن التستري قد فتح عينيه على التصوف ورياضات الصوفية، منذ حداثة سنه، وكان خاله أول من لقّنه مبادئ التصوف، بدوام المراقبة والمحاسبة، وهو أول شيوخه، ثم تعرف على شيخه حمزة العبادي في عبادان، فعرف الطريق وسلكه. وتفيد مصادر أخرى أنه صحب ذا النون المصري[216] الذي كان له دور بالغ في رعاية بذرة التصوف التي زرعها خاله، فقد ذكرت بعض المصادر أن التستري لقي ذا النون في الحج وصحبه.[217] كما تذكر بعض المصادر أن من شيوخه متصوف آخر هو إدريس بن أبي خولة الأنطاكي، حيث أفاد صاحب بغية الطالب أن التستري قال عنه: "وهذا رجل من أهل بيت المقدس يقال له إدريس بن أبي خولة الأنطاكي من أفاضل القوم."[218]

ولكن المتتبع لحياة التستري لا يجد أثرًا يفيد صحبته لإدريس بن أبي خولة الأنطاكي، أو يعثر على موقف يعزز التقاءه به.

أما تلاميذه وأصحابه فهم كُثُرٌ منهم:

---

[215] انظر: اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، 149/2 – 150.

[216] ذا النون المصري: هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، المعروف بذي النون، يكنى: أبا الفيض، رجل اشتهر بصلاحه وزهده، وكان شيخ الديار المصرية في عصره، وأحد رجال الطريقة الصوفية، ولد في إخميم أواخر أيام المنصور، روى عن: مالك، والليث، وابن لهيعة، وطائفة، أخذ عنه: أحمد بن صبيح الفيومي، وربيعة بن محمد الطائي، ورضوان بن محيميد، توفي سنة 245هـ. انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 315/1. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 532/11.

[217] انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، 1995م)، 31/2. محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، علق عليه: عبد المجيد خيالي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م)، 98/1.

[218] عمر بن أحمد بن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار (بيروت: دار الفكر، د.ت)، 1335/3.

- ابن درستويه: ذكره صاحب سير أعلام النبلاء بقوله: (ابن درستويه صاحب سهل قال: قال سهل ...).[219]

- وأبو جعفر المصيصي المغازلي، وقد ورد في بغية الطلب قوله: (من العباد المذكورين، حكى عن سهل التستري).[220]

- وأبو الحسن النخاس الذي سمع سهل التستري يقول: "الفترة غفلة، والخشية يقظة، والقسوة موت". [221]

- وأبوعلي البصري: ورد في تاريخ بغداد أنه: سكن بغداد، وكان من عباد الله الصالحين، وممن صحب سهل بن عبد الله التستري ..."[222]

- وقد ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء عددًا من تلاميذه الذين رووا عنه، فقال: " شَيْخُ العَارِفِيْنَ، أَبُو مُحَمَّدٍ التُّسْتَرِيُّ، الصُّوْفِيُّ الزَّاهِدُ. رَوَى عَنْهُ الحِكَايَات: عُمَرُ بنُ وَاصِلٍ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ الجَرَيْرِيُّ، وَعَبَّاسُ بنُ عِصَامٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ المُنْذِرِ الهُجَيْمِيُّ، وَطَائِفَةٌ" [223].

- كما أورد صاحب صفوة الصفوة أسماء بعض من تتلمذ عليه وروى عنه منهم: أبو حفص بن شاهين، وأبو بكر أحمد بن محمد السائح، وعلي بن سالم، ومحمد بن الحسن بن الصباح"[224]. وكثير من أصحابه وتلاميذه الذين صحبوه ورووا عنه ربما يضيق المقام بحصرهم.

أما مؤلفاته:

---

[219] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 330/13.

[220] ابن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، 4379/10.

[221] البغدادي، **تاريخ بغداد**، 613/16، رقم:7742.

[222] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 315/14.

[223] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 330/13.

[224] ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، 272/3-273.

فيرى بعض الدارسين أن التستري لم يقم بكتابة مؤلفاته بنفسه، ولعل مرد ذلك إلى حرصه على ألا يضع بين أيدي خصومه وثائق خطية تحمل فكره، وتكون سببا في عواقب قد تسوء..." [225].

وقال النديم في الفهرست: "سهل التستري المتصوف، توفي وله من الكتب: كتاب دقائق المحبين، وكتاب مواعظ العارفين، وكتاب جوابات أهل اليقين". [226] وكتب حاجي خليفة في كشف الظنون:" أن كتاب "الغاية لأهل النهاية"، للشيخ، الزاهد: سهل بن عبد الله التستري. ذكره صاحب الخالصة".[227]

وقد جمع صاحب كتاب "التراث الإسلامي في مكتبات العالم" كل ما عثر عليه من مطبوع ومخطوط، واصفًا تصانيفه وأحجامها، وأماكن تواجدها، بقوله: ومن تصانيفه:

1. تفسير القرآن العظيم = تفسير التستري: فاتح رقم 638 ورقة 72، 872 هـ؛ رقم 3488/ 2 ورقة 181 - 279؛ 965 هـ؛ صنعاء رقم 62، الظاهريّة عام 515 ورقة 146؛ 1140 هـ؛ القاهرة تفسير 68؛ Gotha 529 ورقة 153، 825 هـ؛ الخزانة التيموريّة 143 جزء 1؛ الجامع الكبير الأوقاف بصنعاء رقم 214 ورقة 113؛ دار الكتب المصرية 68؛ طبع في القاهرة 1326، 1329.
2. رسالة في الحكم والتصوّف: آيا صوفيا، رقم 4128/ 4 ورقة 148 – 168.
3. رسالة في الحروف -في علوم القرآن: Chaster Beatty 3168/ 3 ورقة 83- 87، 686 هـ.
4. رسالة في المنهيّات: كلية الحقوق بجامعة طهران 251 ج ورقة 12 - 19، 1279 هـ.
5. فهم القرآن الكريم - في التفسير: الظاهريّة عام1955 ورقة 35.

---

[225] انظر: التستري، **تفسير التستري**، 8. محمد ياسر شرف، حركة التصوف الإسلامي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م)، 109. محمد كمال ابراهيم جعفر، من التراث الصوفي/ لسهل بن عبد الله التستري (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1974م)، 79.

[226] محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان (بيروت: دار المعرفة، 1417هـ)، 232.

[227] مصطفى بن عبد الله، الشهير بحاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1941م)، 1193/2.

6. كتاب المعارضة والردّ على أهل الفرق وأهل الدعاوي والأحوال: كوبريلي رقم 727/ 3 ورقة 205 - 242؛ نشر في بيروت 1401/ 1980.

7. كلمات سهل بن عبد الله التستري - في التصوف: كوبريلي رقم 727/ 1 ورقة 152؛ جامعة إستانبول رقم 4089 ورقة 34؛ أسعد أفندي 3527 ورقة 217 - 248، 1100 هـ.

8. لطائف القصص في قصص الأنبياء: دار الكتب المصريّة طلعت مجموع 283.

9. مناقب أهل الحق، بشرح محمد الراثيني: دار الكتب المصريّة طلعت تصوّف 1581 ورقة 367، 675 هـ.[228]

يقول كمال جعفر في كتابه "من التراث الصوفي": "إن أقوال سهل وما سجّل له من آراء قد شمل فعلاً حقل التصوف برمته...".[229] ويبدو أن النتاج الفكري للإمام سهل التستري يشهد له الإلمام الشامل بعلم الكلام "المنطق" والفلسفة، وأصول الفقه، والحديث، إلى جانب علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة [230] والله -تعالى-أعلم.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير

يُعد تفسير الإمام التستري من أهم التفاسير، التي تمثل التفسير الصوفي للقرآن الكريم، القائم على أساس الشريعة الغراء، والسنة العصماء. وقد أفصح عن منهجه في حياته، التي أنتجت هذا النوع من التفسير الصوفي المستقيم، فقال: "أصولنا سَبْعَة أَشْيَاء: التَّمَسُّك بِكِتَاب الله تَعَالَى، والاقتداء بِسنة رَسُوله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وَأكل الْحَلَال، وكف الْأَذَى، وَاجْتنَاب الآثام، وَالتَّوْبَة، وَأَدَاء الْحُقُوق".[231]

---

[228] انظر: عليّ الرضا قره بلوط، وأحمد طوران قره بلوط، معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)، (قيصري: دار العقبة، 1422هـ) 1261/2، رقم3372. التستري، **تفسير التستري**، 10.

[229] انظر: كمال جعفر، **من التراث الصوفي**، 82. التستري، **تفسير التستري**، 12.

[230] انظر: كمال جعفر، **من التراث الصوفي**، 74

[231] السلمي، **طبقات الصوفية**، 170.

لم يكن تفسير سهل للقران تقليديًا، فقد جمع ما استطاع من المعاني اللغوية، والشرعية، والأخلاقية، والكونية. وكان تفسيره ترجمة لإحساسه وشعوره الذي اعتراه عند تدبر الآيات.

لم يدَّعِ سهل –رحمه الله– أن تفسيره لمعاني الآيات هو الوحيد، الذي لا تقبل الآية معنى سواه، ولم يقتصر في تفسيره على الجانب الإشاري لمعاني آيات القرآن الكريم. بل كان يذكر المعنى الظاهر للآية في كثير من الأحيان.

قد يقتصر في أحيان أخرى على ظاهر المعنى فقط، وربما اقتصر على المعنى الإشاري لوضوح المعنى الظاهر وشهرته.

حجم هذا التفسير صغير نسبيًا، إذا ما قيس بالتفاسير الأخرى، فهو مطبوع في مجلد واحد؛ لم يستقص فيه القرآن آية آية، بل وقف عند آيات متفرقة من كل سورة. ويبدو أنه –رحمه الله – لم يباشر بنفسه تصنيف تفسيره، وإنما كانت تفسيراته خواطر متفرقة أثناء تدبره لآيات من القرآن الكريم، ألقاها في مجالسه على تلاميذه وجلسائه، ثم جمعها تلميذه "أبو بكر محمد بن أحمد البلدي"، المذكور في أول التفسير، والذي نقرأ كثيرًا عبارته: قال أبو بكر: سئل سهل عن معنى كذا. فقال كذا، ثم ضَمَّن هذه الأقوال هذا الكتاب، ونسبها كلها إلى شيخه سهل، وسماه تفسيره.

نجد في مقدمة التفسير كلمة يوضح خلالها ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى كل منهما، كما يُعَرِّفُ كلاً من معنى الحد والمطلع، فيقول: "ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع. فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها. والمطلع: إشراق القلب على المراد بها. فقهاً من الله عَزَّ وجَلَّ.

قال تعالى:﴿فَمَالِ هؤلاء القوم لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[النساء:78] ..."[232]. إنه يستنبط من هذه الآية أن كلام الله –تعالى– الذي يخاطب به عباده، يحتاج إلى فقه عميق، وفهم دقيق، وليس الوقوف عند ظاهر المعنى فقط. يتضح لنا أن سهلاً –رحمه الله– يرى: أن الظاهر اللُّغوي المجرَّد هو الأصل في المعنى، وأما الباطن فإنما هو المعنى العميق المستنبط من اللَّفظ، وربما يكون هو الذي يريده الله — تبارك وتعالى – من كلامه. كما نفهم منه: أن المعاني الظاهرة لمفردات القرآن أمر عام يفهمه كل مَن يعرف اللِّسان العربي، أما المعاني الإشارية فأمرها خاص، لا يفهمها إلا من تفضل الله عليه بفتح من عنده، ومَنَّ عليه بهداية وإرشاد.

كذلك نجد التستري –رحمه الله–ينحو في تفسيره هذا منحى التربية، الذي ينتهجه علماء التصوف، ورجال الطريق، وهو تطهير القلوب وتنقيتها، وتزكية النفوس وتصفيتها، والدعوة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة الحميدة، والشمائل السامية الكريمة؛ وهي القيم التي دعا إليها القرآن ظاهرًا وباطنًا، فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ يقول:"عجل كل إنسان ما أقبل عليه، فأعرض به عن الله من أهل وولد ..."[233].

نجد في تفسيره لهذه الآية منهجاً تربويًا مفاده الدعوة للإعراض عن شهوات الدنيا وزينتها، وتطهير القلب من نزواتها وحظوظها، ويشير إلى ضرورة تزكية النفس البشرية التي هو إنْ تركها على هواها، واتبع رغباتها أودت به إلى الخيبة والخسران: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس 10-11].

ولعله يشير بقتل النفوس إلى الآية التي يدعو فيها موسى قومه للتوبة من عبادة العجل: ﴿ وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ...﴾

---

[232] انظر: التستري، **تفسير التستري**، 16.

[233] انظر: التستري، **تفسير التستري**، 67.

[البقرة:54]، والحديث الشريف الذي يرويه الإمام البيهقي عن النبي: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك».[234]

كثيراً ما يسرد حكايات الصالحين وأخبارهم، ليكون شاهداً لما يدعو إليه، كما يضمن تفسيره هذا رقائق ومواعظ نفيسة، وحكم وأمثال جليلة، وكثيرًا ما يستشهد في تفسيره لبعض الآيات، بأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين. فعند تفسيره لسورة الناس، يورد حكاية عن بعض العُبَّادِ الصالحين: " أتاه الشيطان وقال: إنك إن تغضب وتصبر كان أعظم لأجرك. آتيك بشيء فأقول: لمن هو؟ فقل: هو لي، فأقول: بل هو لي. فأتاه بشيء وقال العابد: هو لي، فقال الشيطان: لا بل هو لي. فقال العابد: إن كان لك فاذهب به، ولم يغضب..."[235]. يريد سهل أن يبعث برسالة بليغة، تتضمن درسًا أخلاقيًا، من خلال هذه الحكاية التي أوردها، كي يقطع السبيل على الشيطان ووسوسته، وينزع فتيل الجدال والنزاع بين المتخاصمين؛ وكأنه أراد أن يقول: إن الدنيا مهما تبهرجت في زخرفها وزينتها، فلا ينبغي للمؤمن أن ينازع أحدًا على لعاعتها.

والملاحظ أن سهلًا لم يورد في تفسيره ما يدعم اتجاهًا سياسيًا أو يعزز مذهبًا باطنيًا، بل إن تفسيره يعتبر من أبرز التفاسير الإشارية، التي تقبلها عامة علماء الأمة سلفهم وخلفهم. ولكن مهما ذكرنا من محاسن هذا التفسير المبارك، "فلن تخلو الحسناء من ذامٍّ"؛ فقد يلاحظ المتصفح لهذا التفسير المبارك أن التستري –رحمه الله – عند استشهاده بالحديث النبوي لم يُعْنَ بإسناده كعادة المحدثين، ولربما يأتي بأحاديث وأخبار اشتهرت على ألسنة الناس، قد تكون ضعيفة، أو لا أصل لها، ولربما يورد القول لبعض الصالحين فينسبه إلى رسول الله، فمثلًا يورد العبارة التالية: "قال الرسول –عليه السلام–

---

[234] انظر: إسماعيل بن محمد العجلوني، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** (القاهرة: مكتبة القدسي، 1351هـ)، 143/1، بسند ضعيف.

[235] انظر: التستري، **تفسير التستري**، 211.

«إن الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل»"، ولكن يتبين للباحث أن هذا قول بعض الصالحين، وليس بحديث نبوي، وإن كان المعنى يتوافق مع المنهج النبوي الشريف.

يؤخذ على سهل –رحمه الله – في تفسيره بعض الإشارات المشكلة، التي يقف عندها العلماء متسائلين، مامدى الصلة بين الظاهر والباطن؟ وذلك لبعد القياس بين ظاهر المعنى، والباطن الذي يشير إليه سهل –رحمه الله– من المعنى الإشاري؛ فمن المواضع المشكلة تفسيره قول الله – تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران: 96]. يقول: "أول بيت وُضِعَ للناس بيت الله –عَزَّ وجَلَّ– بمكةَ، هذا هو الظاهر، وباطنها: الرسول يؤمن به مَن أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس"[236]. ولا يجد القارئ رابطًا واضحًا بين ظاهر النص"بيت الله" وبين الرسول الكريم.

يوجز القول في إشاراته ولا يفصل؛ فأقواله في غاية الإيجاز والاختصار؛ بل ربما اعترى بعض هذه الإشارات ألغاز وإبهام، مما يضع القارئ في حيرة من فهمها. يقول الذهبي رحمه لله: "وحين يعرض سهل للمعاني الإشارية لا يكون واضحاً في كل ما يقوله...".[237] فنقرأ مثلًا في تفسيره لبعض الآيات القرآنية إشارات ورموز، لا يعيها إلا من فتح الله عليه بابًا من أبواب المعرفة، وهم أرباب السلوك لطريق التصوف. فنجده في تفسيره الآية الأولى من سورة البقرة، يأتي بكلام، لا يدرك معناه من يقرؤه، بل لا يفقهه علماء اللغة، ولا علماء الفقه، والا علماء المنطق أو الفلسفة؛ حيث يقول: "﴿الم * ذلِكَ الْكِتابُ﴾ الألف الله، واللام العبد، والميم محمد –صلّى الله عليه وسلّم– كي يتصل العبد بمولاه من مكان توحيده واقتدائه بنبيه"[238]. فمثل هذا التفسير لا يخضع لقواعد الفقه، ولا المنطق، ولا النقل، ولا العقل، إن لم نقل: إنه ألغاز لا يدرك فهمها إلا من فتح الله عليه باب معرفة لا يطلع عليه غيره.

---

[236] التستري، **تفسير التستري**، 50.

[237] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 267/2 – 268.

[238] التستري، **تفسير التستري**، 25.

يجد قارئ هذا التفسير، أن سهلًا –رحمه الله– يتجاوز الكثير من الآيات، فلا يقف عندها ولا يفصح عن تفسير ظاهرها ولا باطنها. ولعل القارئ يتمنى لو كان رأى تفسيرًا لها في هذا الكتاب النفيس. وسنتناول في المطلب التالي نماذج من تفسيره، يتضح من خلالها منهجه في التربية، من خلال دعوته إلى تزكية النفوس وتنقيتها، وإصلاح القلوب وتصفيتها.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية

من يتتبع ترجمة حياة الإمام سهل التستري، يبدو له أنه قد كرسها للوعظ والدعوة لتطهير القلوب وتزكية النفوس، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والفضائل الرفيعة، ويظهر هذا جليًا واضحًا من منهجه في التفسير، فهو ربما يذكر القضية التي تتصل بالأحداث الماضية، فيوظفها في تعزيز المعنى الذي يهدف إلى استحضار العبرة والعظة، التي تؤثر في النفس الإنسانية، ولربما يذكر بعض الموضوعات المتصلة بالظواهر الكونية، بغية ترقيق القلوب، وشحن الأرواح؛ وذلك باستخدام مفردات لرموز الطبيعة المعروفة المألوفة، فأم القرى عنده تشير إلى القلب الذي حوله الأعضاء والجوارح؛ نقرأ في تفسيره للآية السابعة من سورة الشورى: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7]. يقول:" لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها، قال: ظاهرها مكة، وباطنها القلب، ومِنْ حوله الجوارح. فأنذرهم لكي يحفظوا قلوبهم وجوارحهم عن لذة المعاصي واتباع الشهوات".[239]

يبدو أنه لا يدخر مناسبة يمكن أن يوظفها للدعوة إلى التزكية والإصلاح وتقويم السلوك، إلا ويشير إليها؛ فيستعير أم القرى مكة المكرمة، التي هي سيدة البلاد، للقلب الذي هو سيد الجوارح، فأم القرى التي

[239] التستري، **تفسير التستري**، 138.

يؤمها الناس من كل حدب وصوب، تمثل القلب الذي يضخ الدم لسائر الجوارح، فهو يدعو لحفظ القلوب من الخواطر والوساوس، كما يدعو لحفظ الجوارح من الشهوات والمعاصي.

كذلك عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ [الدخان: 24]، لا تفوته المناسبة للتذكير بأهمية إصلاح القلوب وتنقيتها، لِتَلَقِّي فيوضات علام الغيوب، واستشراف أنواره القدسية، فالبحر عنده يشير إلى القلب، حيث يقول: " ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ طريقاً ساكناً، وباطنها: اجعل القلب ساكناً إلى تدبيري ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ يعني المخالفين عن توالي تدبير أنفسهم.[240]

فالقلب عنده مركز التلقي لتدابير الله سبحانه، ومحل التوجه إليه في قضائه وقدره، لذلك جعل سكون القلب لتصاريف القضاء أصل في الإيمان. فالبحر الذي يتسع لكائنات لا يعلمها إلا الله، استعاره للقلب الذي لا يدرك أسراره إلا الله والرهو للبحر سكون وسعة واستواء، والرهو للقلب خشوع واستسلام واطمئنان، لمرادات الله وتدابيره ومقاديره.

وعند ذكر البيت المعمور في الآية الرابعة من سورة الطور، يوظف المعنى المستنبط من الآية، ليجعله للقلب أو النفس فيقول: " قوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [الطور:4]، ظاهرها ..."قال النبي –صلى الله عليه وسلّم–: «ليلة أسري بي إلى السماء، رأيت البيت المعمور في السماء الرابعة– ويروى السابعة...»[241] "وباطنها القلب، قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته، والأنس به..."[242].

لقد نقل –رحمه الله– المعنى الظاهر للبيت المعمور الذي هو محج الملائكة ومزارهم، إلى القلوب الصافية النقية فجعلها معمورة بمحبة الله وخشيته، مغمورة بنور معرفته والأنس بطاعته، ذلك القلب الذي تزوره الملائكة وتحفه بالعناية.

---

[240] التستري، **تفسير التستري**، 141.

[241] لم أعثر في أي من كتب الحديث على سند للحديث الذي استشهد به سهل" ليلة أسري بي إلى السماء... ".

[242] التستري، **تفسير التستري**، 155.

أما قوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور:4] " هو العمل المرضي الذي لا يراد به جزاء إلا وجه الله تعالى."[243] إنه يركز على إصلاح القلوب، وتطهيرها وتنقيتها؛ لأن القلب إذا صلح صلحت الجوارح كلها، وإذا فسد فسدت الجوارح كلها. إنه يشير إلى معنى دقيق، حيث يوجه المؤمن للتعرف على حقيقة الوجود، ومكانة العبد من الرب، والتحقق من علة الخلق، وفيه دعوة للإقبال على الله، والتقرب إليه بصالح الأعمال.

أما في تفسيره لقول الله تعالى:﴿والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ قال: يطعمني لذة الإيمان، ويسقيني شراب التوكل والكفاية. نجد نقلة روحية من عالم الحس إلى عالم المعنى؛ فالطعام ليس كطعام الأجساد، والشراب ليس كشرابها، فكأنه يتذوق لذة طعم الإيمان، ويرتوي من معين التوكل على الله، والتجرد من الاتكال على الأسباب، والاكتفاء والرضا بما قسمه له رب الأرباب.

أما تفسيره لقوله تعالى:﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فإنه يقول: "يعنى إذا تحركت بغيره لغيره عصمني، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منَعها عليَّ، فالمرض معنوي، ماهو إلا ميل القلب لسوى الله، وتحرك الشعور وميله نحو غير الله،والله يتولى العبد المصطفى المعصوم فيحميه من الميل إلى النزوات والشهوات، والتطلع إلى غرور الملذات." [244].

أما في تفسيره قول تعالى: ﴿والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فله إشارة إلى موت القلوب بالغفلة وكثرة الذنوب، وحياتها بالذكر والحضور، فيقول: "الذي يميتنى ثم يحيينى بالذكر" فهو يجزم أن الحياة للقلوب مقترن بذكر الله، وأن موتها مرهون بالغفلة.

---

[243] التستري، **تفسير التستري**، 155.

[244] التستري، **تفسير التستري**، 115.

أما في تفسيره لقول الله – تعالى- على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين﴾ يقول: " أخرج كلامه على شروط الأَدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة"[245]. يقرر الإمام التستري-رحمه الله- قاعدة إيمانية، ينبغي للمؤمن أن يتخلق بها، وهي من أركان العقيدة. عدم التألي على الله، إنه يعلمنا درسًا بليغًا في ضوء هذه الآية، كيف التعامل مع الحضرة الإلهية؟ فهذا خليل الرحمن، أبو الأنبياء المعصوم من الخطايا والذنوب، يطمع برحمة الله وكرمه، أن يغفر له يوم القيامة؛ إنها عقيدة الخوف من الله المقرون بالرجاء ﴿يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ﴾[السجدة:16]. إنه توجيه تربوي لكل مؤمن، ألا يحكم على الله، ولا يأمن مكر الله، ويرجو عفو الله، ويأمل مغفرة الله.

أما في تفسيره لسورة الصافات، وعند قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات :107] قال ما نصه: "إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره ..." [246]. حتى لا يكون في قلب خليل الرحمن تعلق بسواه، وحتى تصفو له حقيقة الخلة وخصوصيتها، ولايبقى في قلبه ووجدانه ميل إلا إلى الله، أمره بذبح وحيده، فلما تحقق له التجرد، وانقطعت كل التعلقات، أتاه النداء:﴿ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ وتم له الفداء. وهذا درس لكل مؤمن في هذه الحياة.

أما ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين﴾ [البقرة:35] يقول سهل رحمه الله: "لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشيء هو غيره...وآدم لم يُعْصَم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أُدْخِلَ الجنة... فغلب الهوى والشهوة العلم والعقل والبيان... كما قال عليه السلام: "الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل".[247]

---

[245] التستري، **تفسير التستري**، 115.

[246] التستري، **تفسير التستري**، 131.

[247] التستري، **تفسير التستري**، 29، ولم أعثر في أي من كتب الحديث على سند للحديث الذي استشهد به سهل" الهوى والشهوة يغلبان

إن قصة الخطيئة الأولى للإنسان الأول، تظل درسًا عبر الأزمان، لكل بني الإنسان، بأن من اتبع هواه أهواه، ومن أصغى إلى حديث نفسه أغواه، وأن الأصل في استقرار الحياة اتباع أمر الله، وتجنب ما نهاه. وكل خطيئة في الأرض مردها إلى تجاوز نظام الحياة، الذي قامت السماوات والأرض بمقتضاه.﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف:22]..

ومن لطائف تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ الصَّاحِبِ بِالْجَنب وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء:[36]، يقول سهل –رحمه الله – بعد ذكره للتفسير بالظاهر: "وأما باطنها، فالجار ذي القُربَى: هو القلب، والجار الجُنُب: هو الطبيعة، والصاحب بالجَنب: هو العقل المقتدي بالشريعة، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله"[248].

لقد قرن –رحمه الله – بين عناصر المجتمع البشري وعناصر الجبلة البشرية، فكما ينبغي رعايته في المجتمع من جار قريب أو غريب، وصاحب مؤانس لصيق، أو عابر سبيل غريب، لتبقى الحياة البشرية متوازنة متراحمة متعاطفة، كذلك جبلة الإنسان من روح وقلب، وعاطفة ونفس، وعقل وجوارح قائمة بالجسد، لابد أن يرعاها المؤتمن عليها لتستقر وتطمئن، فلا قرار لها ولا أمان إلا بانقيادها لبارئها، وانسياقها في مسار ناموسه الكوني، الذي قام على الحق والخضوع والانصياع لمولاه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93].

أما في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ [الروم:41]. فإنه يربط بين عناصر الطبيعة وعناصر الجسد، فيمثل الجوارح بالبر، والقلب بالبحر، فيقول: "مَثَّلَ الله الجوارح بالبر، ومَثَّل القلب بالبحر، وهو أعم نفعاً وأكثر خطراً، هذا هو باطن الآية، ألا ترى أن القلب إنما سُمِّي قلباً لتقلبه وبُعْدِ

العلم والعقل".

[248] التستري، **تفسير التستري**، 53.

غوره"[249]. ولعله بتدبره معنى هذه الآية، نظر إلى سعة القلب بما يحمل من آمال وأحلام، لايعلم سرها ومدى اتساعها إلا بارئها، فرأى في الطبيعة ما يشابهها ويماثلها، من سعة البحر وبعد غوره، وتضمنه الكائنات والموجودات التي لا يحصيها بشر، ولا يعلم ما يحتوي في غياهبه وأعماقه إلا خالقه ومولاه.

وعند تفسيره لقول الله تعالى:﴿فَلَا تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22]، يقول سهل رحمه الله:" ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً﴾ أي أضداداً، فأكبر الأضداد: النفس الأمَّارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله".[250] في هذا التفسير يجعل النفس الأمَّارة من عموم الأنداد التي تعبد من دون الله، أو تشرك معه في العبادة، وفيه توجيه تربوي للإنسان المسلم، الذي ينبغي ألا يجعل في قلبه تعلقًا بغير الله.

هذه الأصناف التي عدها رسول الله من المعبودات، ونسب التعاسة والخيبة لكل من ينشغل بها، ماهي إلا تعلقات للنفس البشرية، بما يطيب لها من شهوات الحياة الدنيا ومتعها، وهي التي تصرف صاحبها عن الإخلاص لله، والتجرد لعبوديته. فالنفس الأمَّارة هذا شأنها، تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، وتصرفه عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا الذي عناه التستري في إشارته.

ويحكم الذهبي على تفسير التستري بأنه مقبول بالكلية، ولا شائبة تشينه، لأن كلامه وسائر تأويله، يمكن إرجاعه إلى ظاهر النص، من غير تعنت ولا تكلف، وفق الشريعة الغراء وفي مضمارها؛ فيقول: "فهذه المعاني كلها مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللَّفظ القرآني بدون معارضة شرعية أو عقلية.. والكتاب – في الغالب – يسير على هذه الطريقة، وهي لا شوب فيها." [251]

---

[249] التستري، **تفسير التستري**، 121.

[250] التستري، **تفسير التستري**، 27.

[251] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 282/2 – 283.

وهكذا تناول الباحث في هذا المبحث ترجمة مفصلة لحياة سهل التستري، حيث ذكر فيها اسمه وكنيته، كما ذكر المدينة التي ولد فيها، ونسب إليها؛ وحدد سنة ولادته وسنة وفاته، وتحدث عن نشأته وتصوفه، وملازمته لخاله، الذي تربى في كنفه، وكان له الأثر الكبير في توجهه، لأنه كان من ذوي الصلاح والتقوى، كما ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم الطريق، وتلاميذه وأصحابه الذين أخذوا عنه، وعدد بعض مؤلفاته التي لم يباشر كتابتها بنفسه، بل انتقاها ونقلها تلامذته من بعده. أما منهجه في التفسير، فقد أفصح هو عنه أثناء حياته فقال: "أصولنا سَبْعَة أَشْيَاء: التَّمَسُّك بِكِتَاب الله -تَعَالَى- والاقتداء بِسنة رَسُوله - صلى الله عَلَيْهِ وَسلم - وَأكل الْحَلَال، وكف الْأَذَى، وَاجْتنَاب الآثام، وَالتَّوْبَة، وَأَدَاء الْحُقُوق".

ولم يكن تفسيره تقليديًا، فقد جمع ما استطاع من المعاني اللغوية، والشرعية، والأخلاقية، والكونية. وكان تفسيره ترجمة لإحساسه وشعوره الذي اعتراه عند تدبر الآيات. ويلاحظ من تفسيره لكلام الله -تعالى- تمتعه بالفقه العميق، والفهم الدقيق، وليس الوقوف عند ظاهر المعنى فقط. كما يجد القارئ في تفسيره منحًى تربويًا، يرمي إلى تطهير القلوب وتنقيتها، وتزكية النفوس وتصفيتها، والدعوة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة الحميدة، والشمائل السامية الكريمة. وكثيراً ما يسرد حكايات الصالحين وأخبارهم، ليكون شاهداً لما يدعو إليه من الصلاح والإصلاح، كما يضمن تفسيره رقائق ومواعظ نفيسة، وحكم وأمثال جليلة.

ويؤخذ على سهل -رحمه الله - في تفسيره بعض الإشارات المشكلة، التي يقف عندها العلماء متسائلين، ما مدى الصلة بين الظاهر والباطن؟ وذلك لبعد القياس بين ظاهر المعنى والباطن الذي يشير إليه. فمثلًا: عند تفسير قول الله – تعالى: ﴿الم * ذلِكَ الْكِتابُ﴾ الألف الله، واللام العبد، والميم محمد - صلّى الله عليه وسلّم- كي يتصل العبد بمولاه من مكان توحيده واقتدائه بنبيه"[252]. فمثل هذا التفسير لا يخضع لقواعد الفقه، ولا المنطق، ولا النقل، ولا العقل، إن لم نقل: إنه ألغاز لا يدرك فهمها إلا من فتح

[252] التستري، **تفسير التستري**، 25.

الله عليه باب معرفة لا يطلع عليه غيره. لكنه لا يدخر مناسبة يمكن أن يوظفها للدعوة إلى تزكية النفس وتقويم السلوك، ولا تفوته مناسبة للتذكير بأهمية إصلاح القلوب وتنقيتها، إلا اغتنمها. ويحكم الذهبي على تفسير التستري بأنه مقبول بالكلية، ولا شائبة تشينه، لأن كلامه وسائر تأويله، يمكن إرجاعه إلى ظاهر النص، من غير تعنت ولا تكلف، وفق الشريعة الغراء وفي مضمارها.

المبحث الثاني: أبو عبد الرحمن السلمي (ت: 412هـ) وتفسيره

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية

المطلب الثاني: منهجه في التفسير

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية

المبحث الثاني: أبو عبد الرحمن السلمي (ت: 412هـ) وتفسيره

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية

هو أبو عبد الرَّحمن مُحمد الحُسين بن مُحمَّد بن مُوسى النَّيْسابوري الصُّوفي الأزْدِي السُّلَمي: الأزْدِي من جهةِ أبيه، والسُّلَمي من جهة أُمِّه. ولد في نيسابور سنة325هـ؛ ويَدلُّ نَسَبُ السُّلَمي على أنه انحدَر من أصلٍ عربيٍّ خالِص من جهة أبيه وأُمِّه على السواء؛ فهو يَختلِف عن جُمهور من صنف وألف في التَّصوُّف، ممَّن عاش قبله أو بعده، فقد كان أكثرهم من أصولٍ أعجمية.

ولعل المتأمل لحياة السلمي وانتسابه إلى قوم أمه ينتابه العجب، فليس من عادة العَرَب نِسبة الرجل إلى عشيرة أُمِّه! ولكن العجَب يرتفع إذا أدَرَكْنا أن قوم السُّلَمي الأزديين من جهة أبيه، لم يكن لهم من الجاه والمكانة كما كان لقوم أُمِّه؛ فقد كان جده أبو عمرو بن نُجيد السُّلَمي، الذي نُسِب إليه أبو عبد الرحمن، من كِبار رجال الصُّوفية، واسِع الثَّراء عَريض الجاه. يقول الإمام السُّبكي واصفًا جد السلمي لأمه: "إنه وَرِث من آبائه أموالًا جَزيلةً فأنفَقَها على العُلَماء ومشايخ الزُّهد"[253].

كما ينقل عن الذَّهبي قوله: "كان -أي السُّلَمي- وافِرَ الجَلالة، له أملاك ورِثَها عن أُمِّه، وَورِثَتْها هي عن أبيها"[254].

---

[253] السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 222/3، رقم 161

[254] السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 147/4

أمَّا أبوه الحُسين بن محمد بن موسى فقد كان من رِجال الصُّوفيَّة الزَّاهِدينَ، ولم يُعرَف عنه العنايةُ بطلب العلم، أو رواية الحديث. وقد ورِثَ أبو عبد الرحمن التصوُّف عنه وعن جَدِّه أبي عمرو بن نُجيد، وكان لهُما أثرٌ كبير في نشأته الأولى.

ولقد لازمَ السُّلميُّ جدَّه أبا عمرو ملازمةً انتفع بها أيَّ نفع، فكان رفيقَه في حضور مجالس العلم والرِّواية والتحديث. ولم ينتفع بذلك فحسبُ، بل إنَّ ثراءَ جدِّه مكَّنه من التَّفرُّغِ لطلب العلم صغيرًا والانقطاع له كبيرًا. فكتب بخطِّه في سنة ثلاثٍ وثلاثين وثلاث مئة (333هـ) عن أبي بكر الصبغي، وهو لما يتجاوزِ الثامنةَ من عمره، وابتدأَ بالتصنيف سنة نيف وخمسين وثلاثمئة، وهو في منتصف عِقْدِه الثالث. ورحل في طلب الحديثِ والعلم إلى بُلدانٍ كثيرة، قال الذهبيُّ:" كتب الحديثَ بمَرْوَ ونَيْسابورَ والعراقِ والحِجاز".[255] إذن هو ولد في بيت زُهدٍ، ونشأ في بيت علم، وعن أهله أخذَ علوم التصوُّف والحديث.

شيوخه:

أخذ طريق التصوف عن أبيه الحسين بن موسى، الأزدي، كما تربى على جده لأمه الشيخ أبي عمرو إسماعيل بن نجيد السلمي، ونسب إليه، وهو أحد علماء السنة ومن أعلام التصوف، روى عنه الحديث وَأسْنَدَهَ وَكَانَ ثِقَة [256]،كما تلقى الحديث عن الحافظ أبي علي النيسابوري، وأبي بكر الصبغي، وأبي بكر القطيعي.

قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ: "أبو عبد الرحمن السُّلَمي؛ سمع أبا العباس الأصم وأحمد بن محمد بن عبدوس ومحمد بن المؤمل الماسرجسي ومحمد بن أحمد بن سعيد الرازي صاحب ابن وارة والحافظ أبا علي النيسابوري وخلقًا كثيرًا.".[257] يبدو للمتأمل حياة السلمي –رحمه الله –أنه أخذ علوم التصوف

---

[255] السلمي، سؤالات السلمي للدارقطني، تحقيق: فريق من الباحثين (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1427هـ)، 35.

[256] انظر: السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 3/ 223.

[257] الذهبي، **تذكرة الحفاظ** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م)، 166/3.

وسلك طريق الصوفية حتى كان من أقطابهم، كما أخذ علوم الحديث من أشهر محدثي عصره، وبرع في نقل الحديث وإسناده، وتلقاه عنه علماء الحديث المشهورون في عصره الذين سيرد ذكرهم في تلاميذه، وكان ينتصر للتصوف، ويكثر من الأحاديث التي تؤيد منهجه[258].

تلاميذه:

قصَد كثير من العُلَماء أبا عبد الرحمن السُّلَمي للصُّحبة والدَّرس والرِّواية عنه، لمكانتِه في التصوُّف، وبعد صِيته في هذا الميدان، وفي مَيدان الحديث وغَيره من علوم الدين. قال الذَّهبي: " وحمَل عنه –أي عن السُّلَمي– القُشيري والبَيهقي، وأبو صالح المؤذن، ومحمد بن يحيى المزكي، وأبو عبد الله الثَّقفي، وعلي بن أحمد الأخرَم المؤذِّن، ومحمد بن إسماعيل التفليسي، وخلقٌ سواهم." [259]

وقال السُّبكي: " روى عنه –أي السُّلمي– الحاكِم أبو عبد الله، وأبو القاسِم القُشيري، وأبو بكر البَيهقي، وأبو سعيد بن مرامش، وأبو بكر بن يَحيى المزكي، وأبو صالح المؤذِّن، وأبو بكر بن خَلَف، وعلي بن أحمد المِديني المؤذِّن، والقاسِم بن الفضل الثَّقفي، وخلقٌ سواهم".[260] ويكفي السُّلَمي فخرًا أن يكون الحاكم صاحب المستدرك، والبيهقي صاحب السنن، والقُشيري صاحِب التفسير والرسالة المشهورة في التصوُّف، من تلاميذه الذين عاشَرُوه وأخَذوا عنه مُباشرةً.

ولا يفوتنا القول: أن من تلاميذ السُّلَمي أيضًا، الحافِظ الكبير أبو نُعيم الأصفهاني صاحِب "**حِلية الأولياء**"، لأن أبا نُعيم نفسه يعترِف بفضل السُّلَمي عليه، وأخذِه أخبار الصُّوفية عنه؛ يقول –

[258] انظر: السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 144/4.

[259] الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، 166/3.

[260] السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 144/4.

رحمه الله-: "قَدْ أَتَيْنَا عَلَى مَنْ ذَكَرَهُمُ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَنَسَبَهُمْ إِلَى تَوْطِينِ الصُّفَّةِ وَنُزُولِهَا، وَهُوَ أَحَدُ مَنْ لَقِينَاهُ، وَمِمَّنْ لَهُ الْعِنَايَةُ التَّامَّةُ بِتَوْطِئَةِ مَذْهَبِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَتَهْذِيبِهِ..."[261]

تَصانِيفه:

أما تصانيفه، فأكثر ما عُرِف به السُّلَمي مُؤلَّفاته في التصوُّف، وهو من أوائل من كَتَب في طبَقات المشايخ وسِيَرِهم... ولم يقتصر على علوم التصوف، بل كَتَب أيضًا في التفسير والحديث؛ فقد حدَّث أكثر من أربعين سنةً إملاءً وقراءة[262].

قال الزركلي في الأعلام: بلغت تصانيفه مئة أو أكثر، منها: (حقائق التفسير – خ) و (طبقات الصوفية – ط) و(مقدمة في التصوف – خ) رسالة، و (مناهج العارفين – خ) و (رسالة في غلطات الصوفية – خ) و (سلوك العارفين – خ) و (عيوب النفس ومداواتها ط) و (الفرق بين الشريعة والحقيقة – خ) و (كتاب الأربعين في الحديث – ط) و (درجات المعاملات – خ).[263]

---

[261] الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، 25/2.

[262] انظر: السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 144/4.

[263] انظر: الزركلي، **الأعلام**، 99/6. إسماعيل بن محمد الباباني البغدادي، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** (اسطنبول: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، 1951م)، 61/2.

أقوال العلماء في السلمي وتفسيره:

وقد اختلف العلماء في أبي عبد الرحمن السلمي ما بين معدل مادح، وجارح قادح؛ ويرجع التعديل والجرح إلى مدى قناعة كل منهم بمنهج التصوف ومسالكه.فإذا نحن رجعنا إلى أقوال فريق كبير من العلماء، في الطرق الصوفية، وتفسيراتهم للقرآن الكريم بطريق الإشارة والرمز، وجدناها تقوم على حُسْن الظن بهم: فابن الصلاح – رحمه الله-: وقد سُئِل عن كلام الصوفية في تفسير القرآن، نراه يدافع عن السلمي، ويُحَسِّنُ الظن به، فيقول: "وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدي المفسِّر -رحمه الله تعالى- أنه قال: صنَّف أبو عبد الرحمن السلمي "حقائق التفسير"، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم، أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك، أنه لم يذكره تفسيراً،... وإنما ذكر ذلك من باب" النظير يُذكر بالنظير... ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس".[264] لقد أحسن الظن بأبي عبد الرحمن، ولكنه تمنى لو تضمن تفسيره المعنى الظاهر إلى جانب الإشارة، ليقطع الشك باليقين.

أما أبو سعيد محمد الخَشَّاب فقد أفرد للسلمي ترجمة مطولة، أثنى عليه فيها ثناءً يفوق المدح حيث قال: "كَانَ مَرْضِيّاً عِنْد الخَاصّ وَالعَامّ، وَالمؤَافق وَالمخَالف، وَالسُّلْطَانِ وَالرَّعِيَّةِ، فِي بَلَدِهِ وَفِي سَائِرِ بِلَادِ المسْلِمِيْنَ، وَمَضَى إِلَى اللهِ كَذَلِكَ، وَحَبَّبَ تَصَانِيْفَهُ إِلَى النَّاسِ، وَبِيْعَت بِأَغلَى الأَثْمَانِ، .." [265]

وَيقول أَبو مُسْلِم غَالِبَ بنَ عَلِيٍّ الرَّازِيَّ:"لَمَّا قَرَأنَا كِتَاب (تَاريخ الصُّوْفِيَّة) فِي شُهُور سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِيْنَ وَثَلَاثِ مائَةٍ بِالرَّيِّ، قُتِلَ صَبِيٌّ فِي الزِّحَام، وَزعقَ رَجُلٌ فِي المجْلِسِ زَعْقَةً، وَمَاتَ.."[266].

---

[264] ابن الصلاح، **فتاوى ابن الصلاح**، 197/1، رقم 45. الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 273/2.

[265] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 248/17.

[266] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 248/17.

ولكن السنن التي أقام الله ناموس الكون عليها، بنيت على التقابلات والأضداد؛ فلكل شيء في الوجود ضد يقابله. والتنافس بين أهل العلم أمر ملازم، ومثل سائر، قد يدفع بعضهم لتتبع عورات من ينافسه.

والسلمي مع وفرة جلالته، وعظيم منزلته بين مريديه ومحبيه وأهل بلده، كان له منافسون أضداد وأنداد، ولم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه، فقد نقل البغدادي عن محمد بن يوسف النيسابورى القطان قوله: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة، ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئا يسيرا، ... وكان يضع للصوفية الأحاديث.".[267] وكأن الخطيب البغدادي لم يرض هذا الطعن في السلمي، فقال مدافعًا عنه منتصرًا له: "قَدْرُ أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك محموداً، صاحب حديث، مجودًا جمع شيوخًا وتراجم وأبوابًا...".[268] قال السبكي صاحب طبقات الشافعية: "قول الخطيب فيه هو الصحيح، وأبو عبد الرحمن ثقة، ولا عبرة بهذا الكلام فيه".[269] لقد عزز السبكي تزكية البغدادي، وأمَّنَ على قوله، مؤكدًا براءة السلمي مما نسب إليه من الجرح والتنقيص.

ولكن الإمام الذهبي بعد أن ترجم للسلمي، وأثنى عليه، وعَظَّم قدره، وذكر علمه وتصوفه، ومدى إقبال الناس على مصنفاته، ختم قوله بعبارة تضع القارئ في حيرة من أمره، وتُحَذِّرُهُ من مطالعة تفسيره؛ حيث قال في تاريخه: "وله كتاب سمّاه «حقائق التّفسير» ليته لم يصنفْه، فإنّه تحريف وقَرْمَطَة، فدُونَك الكتاب فسترى العجب."[270]. أما الإمام السيوطي –رحمه الله– وهو متصوف، يتبنى منهج التصوف، إلا

---

[267] البغدادي، **تاريخ بغداد**، 42/3، رقم 666.

[268] البغدادي، **تاريخ بغداد**، 42/3، رقم 666.

[269] السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، 145/4.

[270] الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 307/28.

أنه يذكر السلمي في كتابه "طبقات المفسرين" ضمن المبتدعة الذين صَنَّفوا في التفسير يقول: "وإنما أوردته في هذا القسم لأن تفسيره غير محمود"[271].

وأخيرًا شهادة فريق كبير من العلماء بتزكية الإمام السلمي وتعديله، وكثرة إطرائهم له وثنائهم عليه، يترجح لدى الباحث تقدير شخصه، وتثمين مصنفاته، والحكم له بالعدالة والتوثيق. أما ما قاله الذهبي: من أنَّ ما في الحقائق تحريف وقرمطة، -أي كتفسير القرامطة الباطنية - فهذا بخس لحق الشيخ وهضم لجهده وعلمه؛ لأن السلمي لا ينكر ظواهر النصوص، بل يقرها؛ بخلاف القرامطة والباطنية، الذين لا يرون تفسيرًا لكلام الله إلا ما يوافق أهواءهم وضلالاتهم. وإنَّ وَصْفَ السيوطي للسلمي بأنه من المفسِّرين أهل البدع، ففيه إجحاف ومبالغة، لما عرف عن السلمي من التزام بالشريعة الغراء، والسنة النبوية العصماء.[272]

لكن قول ابن تيمية رحمه الله: "وَمَا يُنْقَلُ فِي حَقَائِقِ السُّلَمِيِّ، مِنَ التَّفْسِيرِ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ، عَامَّتُهُ كَذِبٌ عَلَى جَعْفَرٍ، كَمَا قَدْ كُذِبَ عَلَيْهِ غَيْرُ ذَلِكَ"[273]. فهذه حقيقة لا مراء فيها؛ لأن غالب ما نقل عن آل البيت من علوم وإشارات، قد افترته الشيعة الرافضة، ونسبته إلى جعفر الصادق وآبائه كذبًا وزورًا، وهذا ما يؤخذ على الإمام السلمي، بتساهله في نقل هذه الروايات من غير تمحيص ولا تثبت. ولا ينقص ذلك من قدره، ولا يحط من مكانته، فلكل سيف نبوة، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم زلة، ولا عصمة إلا للرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير

---

[271] السيوطي، **طبقات المفسرين**، 98.

[272] انظر: محمد بن الحسين السلمي، **حقائق التفسير**، مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م)، خطبة المؤلف، 21.

[273] ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، 43/8.

يتسم تفسير السلمي بسمة أهل الحقيقة من الصوفية، ويصطبغ بصبغتهم في الإشارات والإيماءات التي تظهر لهم، ولكل متبصرٍ في كلام الله متدبرٍ لآياته. قال الذهبي –رحمه الله– واصفًا تفسير السلمي موضحًا منهجه: " قرأت في هذا التفسير، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن، ولكنه لا يتعرض لكل الآيات، بل يتكلم عن بعضها ويُغضى عن بعضها الآخر، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، وإنما جرى في جميع ما كتبه على نمط واحد، وهو التفسير الإشاري".[274]

في هذا الوصف الذي قدمه الذهبي لتفسير السلمي، يتضح لنا منهجه في تناول الآيات المتعلقة بالتربية والسلوك:

– لا يتعرض للأحكام، ولا يُعنى بتفسير الآيات التي تنص على العبادات، إلا ما يمكن استنباطه من فهم لتقويم سلوك، أو إصلاح نفس مريضة، أو علاج قلب سقيم.

– وهو إذ يقتصر على الإشارات من الآيات، ولا يعني ذلك أن تفسير الظاهر لا يقر به، فقد وجدناه يُصرّح في مقدمة تفسيره: أنه أراد أن يجمع تفسير أهل الحقيقة في كتاب مستقل، كما فعل أهل الظاهر من المفسرين بالاكتفاء بالمعنى الظاهر للنص.[275] إذن لا تثريب عليه إذ صرح بأن كتابه يضم إشارات مستنبطة من معاني الآيات، ولم يجحد المعنى الظاهر لتلك الآيات.

– ثم إنه لم يكن له في هذا التفسير–حسب قوله – سوى ما جمعه من إشارات السابقين من علماء الصوفية، ورتبها على السور والآيات، وأخرجها للناس في كتاب سماه "حقائق التفسير".

---

[274] الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 284/2.

انظر التفاصيل في كتاب: Süleyman Ateş. **TASAVVUFUN ANA İLKELERİ SÜLEMİ'NİN RİSALELERİ Ebu Abdurrahman es-Sülemi**. (Ankara Üniversitesi Basımevi, 1981).

[275] انظر: السلمي، **حقائق التفسير**، المقدمة، 7.

قال رحمه الله: ".. لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا في أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة ...وكنت قد سمعت حروفاً استحسنتها، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعي وطاقتي..."[276]. وأكثر مَنْ نقل عنه السلمي في تفسيره: أبو العباس أحمد بن عطاء الآدمي[277]، وجعفر الصادق، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التستري...[278]

غير أن اقتصاره على المعاني الإشارية، والإعراض عن المعاني الظاهرة في هذا الكتاب، جعل لكثير من العلماء مجالاً للنيل من هذا التفسير ومن صاحبه، وعلى الرغم من قدح بعض العلماء بهذا التفسير، إلا أنه لقي قبولاً عجيبًا في بلاد الإسلام، واشتهر اشتهارًا واسعًا؛ يكشف السُّلَمِيُّ نفسه جانبًا من شهرة هذا التفسير، ومدى اهتمام الخاصة والعامة به، ويظهر شغف الناس به ورغبتهم في اقتنائه، فيقول: "وَلَمَّا دَخَلْنَا بَغْدَادَ، قَالَ لِي الشَّيْخ أَبُو حَامِدٍ الإِسْفَرَايِيْنِيّ: أُرِيْدُ أَنْ أَنْظُرَ فِي (حَقَائِق التَّفْسِيْر)، فَبعثْتُ بِهِ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ فِيْهِ، وَقَالَ: أُرِيْدُ أَنْ أَسمعه، وَوضعُوا لِي مِنْبَراً...وَكَانَ الأَمِيْر نَصْرُ بن سُبُكْتِكِيْن صَاحِبُ الجَيْشِ عَالِماً، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ التَّفْسِيْر، أَعْجَبَهُ وَأَمَرَ بِنَسْخِهِ فِي عشر مُجَلَّدَات، وَكُتبت الآيَات بِمَاءِ الذَّهَب..."[279].

---

[276] السلمي، **حقائق التفسير**، 20/1

[277] أبو العباس: هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ببغداد، ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، روى عن: يوسف بن موسى، وغيره، رَوَى عَنْهُ: محمد بن عليّ بن حُبيش، تُوُفِّيَ في ذي القعدة سنة 309هـ. الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 141/7.

[278] لقد وهم الذهبي في (التفسير والمفسرون) باسم أبي العباس بن عطاء الآدمي(ت:309)، فظنه السكندري (ت: 709) وقال: إن السلمي نقل عنه، رغم أن السكندري توفي بعد وفاة السلمي بثلاثة قرون. انظر: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 285/2.

[279] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 248/17.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية

الناظر في تفسير السلمي يرى وقوفه عند آيات كريمة متدبرًا، يشير من خلالها إلى قيم إنسانية، وقضايا أخلاقية، ينبه الغافل، ويرشد الجاهل، ويُبَصِّر المعرض عن دين الله، السادر في غيه، ليرجع إلى حقيقة وجوده، ففي سورة البقرة، وعند قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾؛ قال:" ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ لخلوها من العصمة والتوفيق والرعاية، قال أبو عثمان: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ لسكونهم إلى الدنيا، وحبهم لها، وغفلتهم عن الآخرة، وإعراضهم عنها، ﴿فزادهم الله مرضًا﴾ بأنه وكلهم إلى أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا، فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام الدين"[280]. ينقلنا من خلال هذه الآية إلى أمر مهم في منظومة الوجود، وناموس الحياة، أن من أعرض عن الله، وانشغل بدنياه، جمع الله عليه هموم الدنيا، وأوكله إلى نفسه الضعيفة، فطاش صوابه، وتاهت أفكاره، وتشتت شمله؛ فشقي في معيشته، وتعس في مقاصده.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُمْ مَّا فَعَلُوهُ إِلَاّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:66].. يقول: "قال محمد بن الفضل: ﴿اقتلوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها، ﴿أَوِ اخرجوا مِن دِيَارِكُمْ﴾ أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَاّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ في العدد، كثير في المعاني، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقَة"[281].

يقف السلمي عند هذه الآية ليعالج قضية النفس البشرية التي تتعلق بالشهوات وتميل إلى الغفلات، فيدعو إلى مخالفتها في تطلباتها، وزجرها عن شهواتها، وإخماد نزواتها، مستنبطًا ذلك من قوله تعالى: ﴿اقتلوا أَنْفُسَكُمْ﴾، كما يدعو لنزع حب الدنيا وزينتها من القلوب، والانسلاخ عن تعلقاتها، وهجرها والارتحال عنها، مستنبطاً ذلك من قوله تعالى: ﴿أَوِ اخرجوا مِن دِيَارِكُمْ﴾ إنها إشارة تدعو لطي

---

[280] السلمي، **حقائق التفسير**، 51/1 -52.

[281] السلمي، **حقائق التفسير**، 154/1.

الأكوان، والإقبال على الديان، والتوجه إليه بالقلوب والأبدان. وهيهات لأي إنسان أن يتحقق بهذه المنزلة من الاصطفاء إلا بتوفيق من الله؛ إذ لا تتسنى إلا لثلة قليلة مصطفاة من عباد الله الأخيار؛ حيث يقتبس هذه الإشارة من نور قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَاّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ ولا يكون ذلك إلا للقليل الذين قال الله –تعالى– عنهم ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ:12].

أما عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد:3] فيقتبس إشارة تربوية رائعة ينبه من خلالها لوجود المرشدين الصالحين، الهداة المهديين؛ الذين يحفظون توازن القيم عند عباد الله؛ يدعو للبحث عنهم وملازمتهم، فيقول: "قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتاداً من أوليائه، وسادة من عبيده، فإليهم الملجأ، وبهم النجاة، فمَن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومَن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر."[282]

[282] السلمي، **حقائق التفسير**، 327/1.

إنها دعوة صادقة من الإمام السلمي، للتأسي والاقتداء بالصالحين من الأولياء الأصفياء، وقصدهم وشدِّ الرحال إليهم، وملازمتهم وصبر النفس معهم، ابتغاء مرضاة الله، طلبًا للفوز والنجاة، والفلاح والنجاح في دار الدنيا ويوم المعاد. ويتفق هذا مع قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة: 119].

ويقف الشيخ متأملاً عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً﴾[الحج:63] فيستنبط إشارات رائعة في تربية القلوب وإصلاح النفوس، فماء السماء يوحي بالأنوار القدسية التي يفيضها الله على قلوب عباده الصالحين، واخضرار الأرض رمز لإثمار هذه الأنوار، وإنتاجها العلم النافع، والمعرفة اليانعة، فيقول: " قال بعضهم: أنزل مياه الرحمةَ من سحائب القُربة، وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، أضاءت بالمحبة..."[283].

إنه يدعو لتخلية القلوب من أقذار الذنوب، وتنقيتها من أوضار العيوب، لتتنزل الأنوار الإلهية في رحابها، وتغرس في مداها بذور المعرفة، فتُنبت زرعها، وتُنضج ثَمَرها، وتؤتي أكلها؛ ومتى تعرفت القلوب إلى بارئها، تلهفت لقربه واشتاقت لجنابه، فحينها تدرك حقيقة وجودها، فلا تسكن إلا إليه، ولا تستقر إلا في رحابه، فيؤويها إلى كنفه، ويكلؤها بحفظه وعنايته، فتحيا في الدنيا حياة طيبة، وتؤول إلى سعادة أبدية في الآخرة. وأصدق توصيف لحال هؤلاء وموعودهم في الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:97].

---

[283] السلمي، **حقائق التفسير**، 26/2.

ولا يدع السلمي آية من القرآن الكريم، يمكن أن يَعْبُرَ من خلالها إلى عالم المعنى، إلا بعث بها إلى من يتأمل إشاراته وإيماءاته؛ من أجل أن يوجه رسالة تربوية تعنى بتقويم السلوك، وتزكية النفوس، وتبرز أهمية القلب ومكانته في حياة المسلم. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمامِ﴾ [الرحمن:11]. ينقل قول الإمام جعفر الصادق –رضي الله عنه – الذي يقول: "جعل الحق –تعالى– في قلوب أوليائه رياض أُنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أُصولها ثابتة في أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد..."[284].

إنه عالَمُ المعنى الذي يعبر إليه من عالم الحس، فالقلوب النقية أرض خصبة، تنبت فيها أشجار المعرفة، لتثمر العلوم اللَّدُنِّيَةَ النافعة، التي توهب ولا تكتسب، تلك العلوم المنزلة من عالم الغيب، يجد من حازها أنس الواهب، فيطيب له عيشه، ويلذ قربه.

إن القلوب السليمة النقية من آفات الغفلات، المنزهة عن الأهواء والشهوات، تتنعم بملاذِّ المعاني والفيوضات، كما تتنعم الأجساد بأطايب الأطعمة والمشروبات. قال إبراهيم بن أدهم –رحمه الله–: " والله إنا لفي لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف"، وقال الجنيد–رحمه الله–: " أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم".[285] فأي لذة يتمثلها هؤلاء في صفاء سرائرهم، ونقاء ضمائرهم، حينما يُعَبرون عن سعادتهم ونشوتهم، كيف ينعمون بالوصال مع المحبوب، الذي يمنحهم أنوار الرحمات، ويهبهم فيوض المعارف والقربات.

أما في تفسير قوله تعالى:﴿إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:13، 14] فالنعيم عنده المعرفة بالله، والجحيم اتباع هوى النفس، والغفلة عن الله، وينقل عن جعفر الصادق قوله: "

---

[284] السلمي، **حقائق التفسير**، 293/2.

[285] محمد بن عبد الباقي الزرقاني، **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ)، 100/9.

النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم النفوس، فإن لها نيران تتقد"[286].

لقد نقل المعنى الظاهر للنعيم والجحيم، من الحس الإنساني إلى الذوق الوجداني، فجعل نعيم الأبرار معرفة الله وشهود جلاله وجماله في كل شيء من تدبيره، واعتبر الغفلة عن هذه الحقيقة من الوجود عذابًا وجحيمًا، وذلك باتباع الهوى، وتحكم النفس بصاحبها، وكأن قوله هذا يتفق مع معنى قول الله تعالى: ﴿ قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها*﴾ [الشمس: 9-10]، وفي ذلك دعوة لتزكية النفس وتهذيبها، حتى لا تنغمس في الشهوات فيضيع مقصد صاحبها، ويضل الطريق الموصل إلى نجاحها وفلاحها.

أما تفسيره لمستهل سورة النصر، وعند قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ ﴾[النصر:1] فيعتبر النصر والفتح إقبالاً على الله تعالى، وإدباراً عن الدنيا وما فيها، فينقل عن ابن عطاء الله الآدمي – رحمه الله – قوله:" إذا شغلك به عما دونه، فقد جاءكَ الفتح من الله تعالى، والفتح هو النجاة من السجن البشري بلقاء الله تعالى" [287].لقد اعتبر الفتح المبين، والنصر المؤزر، هو الانعتاق من تعلقات النفس بمتاع الدنيا الفانية، وشهواتها الحيوانية، إلى حيث فضاءات الأنوار الربانية، والفيوضات الرحمانية. فحقيقة أصل الوجود التبتل للمعبود، وتوجه العبد بكُلِّيَتِه إليه –سبحانه وتعالى–بالقلب والروح والجوارح:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:162].

---

[286] السلمي، **حقائق التفسير**، 378/2.

[287] السلمي، **حقائق التفسير**، 425/2.

وهكذا تناول الباحث في هذا المبحث سيرة المفسر السلمي، فأوجز الحديث في ترجمته الشخصية، وفصل في موروثه العلمي، وأورد أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم، مثل جده لأمه الشيخ أبي عمرو إسماعيل بن نجيد السلمي، والحافظ أبي علي النيسابوري، وأبي بكر الصبغي، وأبي بكر القطيعي، وغيرهم، وتتبع سلوكه طريق الصوفية حتى كان من أقطابهم. وذكر تلاميذه الذين قصدوه وأخذوا عنه، مثل: الحاكم صاحب المستدرك، والبيهقي صاحب السنن، والقُشيري صاحِب التفسير والرسالة المشهورة في التصوُّف، والحافِظ أبي نُعيم الأصفهاني صاحِب الحِلية، وغيرهم الكثير؛ كما ذكر تصانيفه ومُؤلَّفاته في التصوُّف، التي كانت شُغله الشاغِل وهمَّه الأول، وأنه لم يُعْنَ بالتفسير والحديث إلا بِمقدار ما يَستعين بِهما على خِدمة منهج التصوُّف وعلومه.

ثم نقل بعض آراء العلماء فيه وبتفسيره ما بين معدل مادح، وجارح قادح؛ ويرجع التعديل والجرح إلى مدى قناعة كل منهم بمنهج التصوف ومسالكه. فابن الصلاح – رحمه الله يدافع عن السلمي، ويحسن الظن به، وأبو سعيد الخَشَّاب الذي أفرد له ترجمة مطولة، أثنى عليه فيها ثناءً يفوق المدح، وكذلك المحدث المؤرخ عَبْدُ الغَافِرِ بن إِسْمَاعِيْلَ الفَارِسِي الذي أثنى عليه وزكاه.

لكنه لم يسلم من الطعن، فقد قال فيه محمد بن يوسف النيسابورى القطان: "كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة"، واتهمه بوضع الأحاديث للصوفية. كما ذم السيوطي تفسيره بعد الثناء على شخصه فقال: "تفسيره غير محمود"، والذهبي تمنى على السلمي أن لم يكن صنف تفسيره لما فيه من تحريف وقرمطة، والسبكي عاب عليه الاقتصار على الإشارة دون المعنى الظاهر في العبارة.

أما منهجه في التفسير فقد اتَّسم بسمة أهل الحقيقة من الصوفية، واصطبغ بصبغتهم. حيث يقتصر على الإشارات من الآيات، لكنه يصرّح في مقدمة تفسيره: أنه أراد أن يجمع تفسير أهل الحقيقة في كتاب مستقل، ولا ينكر تفسير الظاهر؛ وعند بعض الآيات الكريمة يقف متدبرًا، يشير من خلالها إلى

قيم إنسانية، وقضايا أخلاقية وسلوكية، ينبه الغافل، ويرشد الجاهل للانعتاق من تعلقات النفس بمتاع الدنيا الفانية، وشهواتها الحيوانية، إلى حيث فضاءات الأنوار الربانية، والفيوضات الرحمانية. وهكذا نجد عنايته في تفسيره بالإشارة دون العبارة.

المبحث الثالث: عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: 465هـ)، وتفسيره

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية

المطلب الثاني: منهجه في التفسير

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية.

المبحث الثالث: عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: 465هـ)، وتفسيره

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية

هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك أبو القاسم القشيري النيسابوري؛ القشيري نسبة إلى قشير بن كعب، وهي قبيلة كبيرة من العرب، الذين قدموا خراسان أيام الفتح الإسلامي؛ ولد في إسْتُو بنيسابور، في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمائة...[288]

مات أبوه وهو طفل، فنشأ يتيمًا، وقرأ الأدب والعربية، وكانت له قرية بنواحي إستو، فرأى أن يحضر إلى نيسابور يتعلم الحساب، ليتولى الاستيفاء، ويحمي قريته من الخراج، فحضر نيسابور على هذا العزم، فاتفق حضوره مجلس الشيخ أبي علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق فلما سمع كلام الشيخ أعجبه ووقع في قلبه فقبله الدقاق، وتفرس فيه النجابة، فأشار عليه الاشتغال بالعلم، فخرج إلى درس محمد بن أبي بكر الطوسي، وشرع في الفقه حتى فرغ من تعليقه، ثم اختلف إلى الأستاذ أبي بكر الإسفرايني، ثم نظر في كتب القاضي الباقلاني، وهو مع ذلك يحضر مجلس أبي علي الدقاق، وزَوَّجَهُ أبو علي ابنته.. وبعد وفاة أبي علي سلك مسلك المجاهدة والتجريد وأخذ في التصنيف؛ كان معظمًا عند أهل نيسابور.

---

[288] انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 3/205- 207.

واظب على دروس إمام الحرمين أبي المعالي، حتى حصل طريقته في المذهب والخلاف، ثم خرج للحج فوصل إلى بغداد، وعقد بها مجلس وعظ، وحصل له قبول عظيم.[289] وجرى له مع الحنابلة خصام بسبب الاعتقاد، لأنه تعصب للأشاعرة، وبلغ الخبر نظام الملك وهو بأصبهان، فسير إليه واستدعاه، فلما حضر عنده، زاد في إكرامه، ثم جهزه إلى نيسابور، فلما وصلها لازم الدرس والوعظ، إلى أن قارب انتهاء أمره، فأصابه ضعف في أعضائه، ثم توفي ضحوة نهار الجمعة، الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، سنة (514هـ) بنيسابور، رحمه الله تعالى[290].

شيوخه:

أَخذ الطَّرِيقَة الصوفية عَن الشَّيْخ أبي عَليّ الدقاق، وَأبي عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ، كما سَمِعَ الحَدِيْث مِنْ: أَبِي الحُسَيْنِ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدٍ الخَفَّاف؛ وَمِنْ أَبِي نُعَيْمٍ عَبْدِ الْملك بن الحَسَنِ الإِسفرَايِينِي، وَأَبِي الحَسَن العَلَوِيّ، وَعبدِ الرَّحْمَن بن إِبْرَاهِيْمَ المزَكِّي، وَعَبْدِ اللهِ بن يُوْسُفَ، وَأَبِي بَكْرٍ بنِ فُورك، وَأَبِي نُعَيْمٍ أَحْمَدَ بن مُحَمَّدٍ، وَأَبِي بَكْرٍ بنِ عَبْدُوْس، وَابْن بَاكُويه وآخرين.[291]

تلاميذه:

حَدَّثَ عَنْهُ: أَوْلَادُهُ؛ عَبْدُ اللهِ، وَعبدُ الوَاحِد، وَأَبُو نَصْرٍ عَبْدُالرَّحِيْم، وَعبدُ الْمُنعم، وَزَاهِر الشَّحَّامِيّ، وَأَخُوْهُ وَجيه، وَمُحَمَّد بن الفَضْلِ الفَرَاوِي، وَعَبْدُ الوَهَّابِ بن شَاه، وَعبدُ الجَبَّار بن مُحَمَّدٍ الخُوَارِي، وَعبدُ الرَّحْمَن بن عَبْدِ اللهِ البَحيرِيّ، وَحَفِيْدُه أَبُو الأَسْعَد هِبَة الرَّحْمَن، وَآخَرُوْنَ[292].

آثاره العلمية:

---

[289] انظر: ياقوت الحموي، **معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993م)، 1571/4. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 265/19.

[290] ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 205/3- 207.

[291] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 228/18.

[292] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 229/18.

كان القشيري أشعري العقيدة، شافعي المذهب، صوفي المشرب. فكتب في كل فن منها، في العقيدة والفقه والتصوف. وقد صنف كتبًا كثيرة منها: آداب الصوفية، وبلغة الفاضل، والتحبير في علم التذكير، والرسالة في رجال الطريقة، والتيسير في علم التفسير، ولطائف الإشارات، والجواهر، وعيون الأجوبة، وأحكام السماع، وغير ذلك. [293]

قَالَ القَاضِي ابْنُ خَلِّكَانَ: كَانَ أَبُو القَاسِمِ عَلَاّمَةً فِي الفِقْه وَالتَّفْسِيْر وَالحَدِيْث وَالأُصُوْل، وَالأَدب، وَالشّعر، وَالكِتَابَة.صَنَّف التَّفْسِيْر الكَبِيْر وَهُوَ مِنْ أَجْوَد التَّفَاسير، وَصَنَّفَ الرِّسَالَة فِي رِجَال الطّرِيقَة.[294] وقال الذهبي: "صنَّف كتاب «نحر القلوب»، وكتاب «لطائف الإشارات»، وكتاب «الجواهر»، وكتاب «أحكام السماع»، وكتاب «آداب الصُّوفيّة»، وكتاب «عيون الأجوبة فِي فنون الأَسْوِلة»، وكتاب «المناجاة»، وكتاب «المنتهى فِي نُكَت أُولي النُّهَى»، وغير ذلك".[295]

أقوال العلماء فيه:

أثنى عليه صاحب دمية القصر بقوله: "جامع لأنواع المحاسن، تنقاد له صعابها ذلل المراسين. فلو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب، ولو ارتبط ابليس في مجلس تذكيره لتاب. وله فصل الخطاب في فضل النطق المستطاب..."[296]. وذكره الخطيب البغدادي في تاريخه فقال: "وقدم علينا في سنة ثمان وأربعين وأربع مائة، وحدث ببغداد، وكتبنا عنه، وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الموعظة، مليح الإشارة..." [297]

---

[293] ياقوت الحموي، **معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)**، 1571/4. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 265/19.

[294] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 228/18.

[295] الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 173/31.

[296] علي بن الحسن الباخرزي، **دمية القصر و عصرة أهل العصر** (بيروت: دار الجيل، 1414ه)، 994/2.

[297] البغدادي، **تاريخ بغداد**، 366/12، رقم5716.

وقال عنه ابن شبة في طبقات الشافعية:" ...وَكَانَ يعرف الْأُصُول على مَذْهَب الْأَشْعَرِيّ، وَالْفُرُوع على مَذْهَب الشَّافِعِي؛ وَقَالَ ابْن السَّمْعَانِيّ: لم ير أَبُو الْقَاسِم مثل نَفسه فِي كماله وبراعته، جمع بَين الشَّرِيعَة والحقيقة[298]. قَالَ القَاضِي ابْنُ خَلِّكَانَ: كَانَ أَبُو القَاسِمِ عَلَاّمَةً فِي الفِقْه وَالتَّفْسِيْر وَالحَدِيْث وَالأُصُوْل، وَالأَدب، وَالشّعر، وَالكِتَابَة. صَنَّف التَّفْسِيْر الكَبِيْر، وَهُوَ مِنْ أَجْوَد التَّفَاسير، وَصَنَّفَ الرِّسَالَة فِي رِجَال الطّرِيقَة..." [299].

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام: كتب الخط المنسوبَ الفائق، وبرع فِي عِلْم الفُروسية واستعمال السلاح، ودقق فِي ذلك وبالغ؛ وانتهت إليه رئاسة التّصوُّف فِي زمانه ...[300].

والمتأمل فيما سبق من أقوال فحول العلماء في الثناء على الإمام أبي القاسم القشيري، يبدو له أن الرجل كان عدلًا مرضيًا عنه من سائر المشارب.

إلا أن بعض العلماء من أهل التاريخ والحديث، لهم رأي آخر؛ فهذا ابن تيمية يعيب على القشيري وغيره من أئمة التصوف، بسبب إغفالهم سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وإعراضهم عن شواهد من حياتهم، والاكتفاء بسير المتأخرين من الزهاد والمتصوفين، فيقول: " وَكَذَلِكَ مَنْ صَنَّفَ فِي " التَّصَوُّفِ والزُّهْدِ " جَعَلَ الْأَصْلَ مَا رُوِيَ عَنْ مُتَأَخِّرِي الزُّهَّادِ – وَأَعْرَضَ عَنْ طَرِيقِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَمَا فَعَلَ صَاحِبُ " الرِّسَالَةِ " أَبُو الْقَاسِمِ القشيري، وَأَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ الكلاباذي ..."[301]

ويكرر العيب عليهم في مناسبة أخرى، بل ويزيد في نقده لأسلوب الصوفية في التساهل بالإسناد، فيقول: "وَمِنْهُمْ مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ حِينِ حَدَثَ اسْمُ الصُّوفِيَّةِ كَمَا فَعَلَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ

---

[298] أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**، تحقيق: عبد العليم خان (بيروت: عالم الكتب، 1407هـ)، 255/1، رقم218. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، 265/19.

[298] ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 206/3.

[299] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 228/18.

[300] الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 173/31.

[301] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 367/10.

السُّلَمِي فِي " طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ " وَصَاحِبُهُ أَبُو الْقَاسِمِ القشيري فِي الرِّسَالَةِ، ....فَيَذْكُرُونَ حِكَايَاتٍ مُرْسَلَةً بَعْضُهَا صَحِيحٌ وَبَعْضُهَا بَاطِلٌ"[302]. جَلَّ من لا عيب فيه، ولا نقص، ولا قصور. لكن ذلك لايغض من قدر الإمام القشيري، الذي شهد له السلف والخلف بالعلم والفقه والزهد، وآثاره تشهد له بالعدالة والصدق والإخلاص.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير

إن تفسير" لطائف الإشارات" سفر نفيس صنفه القشيري –رحمه الله– محققًا التوفيق بين الحقيقة والشريعة، وقاصدًا إلى إثبات أمر مهم لكل مسلم: أنه لا تعارض بين الشريعة والحقيقة، وأن ما يقال من التناقض بينهما خروج عن الحق، فلا شريعة بلا حقيقة، ولا حقيقة بلا شريعة، ويعزز هذه القاعدة قوله في الرسالة: "ومن ذَلِكَ الشريعة والحقيقة، الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فَكُل شريعة غَيْر مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غَيْر مقيدة بالشريعة فغير محصول".[303]

وهذه القاعدة تمثل أصلًا في العقيدة تبين سبيل التعامل بين الخالق والمخلوق؛ وذلك لأن الشريعة تكليف العبد بالعبادات والمعاملات، والحقيقة إدراك الوجدان لتصاريف الله بمقادير العباد، وشهود لحكمته –سبحانه– في المشيئة والقضاء، فالشريعة إعمال الطاعات بالجوارح، والحقيقة شهود الحكمة في النوازل، والشريعة قيام بِمَا أمر، والحقيقة الرضا بكل ما أخفى أو أظهر.

ويعتمد هذا اللون من التفسير على كشف خفايا الألفاظ، وبواطنها، دون التوقف عند حدود ظاهر معانيها المعجمية، وإنما ينظر إلى اللفظة القرآنية على أنها جوهر يدق على فهم العامة.

والعلماء من أهل التجريد هم وحدهم الذين يتاح لهم الكشف عن هذا الجوهر.

---

[302] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 580/11

[303] القشيري، **الرسالة القشيرية**، 195/1.

وهذا العلم الذي لا يحظى به إلا كل من طهر قلبه من الشواغل والشهوات، وصفَّى نفسه من الغفلات والكادورات، وتهيأ بكل همة لهذه المهمة، وربط بين الذوق الوجدان، وبين العمل بالعبادات والمعاملات.

فكلام الحق –جلّ جلاله– واسع الطيف بالمعاني والإشارات، غني بالأنوار والفيوضات، يعقله من تفضل الله عليه بالمعرفة العندية والهداية اللدنية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.[304] يقول القشيري – رحمه الله– في مقدمته: " أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفي رموزه، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم... فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون...".[305]

وكأنه أراد أن يقول: لا يمكن لغير من اختصه الله بالاصطفاء من فضله، أن يخوض في مجال التفسير الإشاري. فقد يكون العالم متكلمًا، أو فيلسوفًا، أو نحوياً، أو أديبًا؛ أمّا أن يكون مستنبطًا للإشارة من العبارة، فهذه الخصوصية لابد لها من اجتباء إلهي. فأن تقبل على القرآن الكريم، لتستشف الجواهر من وراء الظواهر، ينبغي أن تقترن بنفس من الشوائب صافية، وقلب من جميع العلائق خالياً.

ومنهج القشيري في تفسيره يمثل نمطًا متزنًا في التفاسير الإشارية، مقبولًا لدى عامة العلماء؛ فهو:

– يتعامل مع اللفظة أو الآية، بذكر المعنى الظاهر، ثم يعمد إلى استنباط الإشارات منها؛ فيبدأ بتفسير الآية لغويًا معجميًا، ثم يعزز تفسيره الظاهري باللطائف الإشارية، ويكثر من الاستشهاد بالأشعار، التي تضفي على تفسيره مسحة أدبية رائقة.

---

[304] انظر: عبد الكريم بن هوازن القشيري، **لطائف الإشارات = تفسير القشيري**، تحقيق: إبراهيم البسيوني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت)، المقدمة، 22/1 (بتصرف).

[305] القشيري، **تفسير القشيري**، 41/1.

- ولا يفوتنا أن نشهد للقشيري بالذوق الأدبي، الذي يتمتع به، فالمتصفح لتفسيره يجد الروح الأدبية في بلاغة الكلمة، وروعة العبارة، التي تظهر جلية في أساليبه وتعابيره.

- وقد سار القشيري في تفسيره على خطة واضحة محددة التزم بها، حيث يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة، وأحيانا حرفًا حرفًا، والبسملة تتكرر بلفظها في مفتتح كل سورة، فتختلف وتتنوع، ولا تكاد تتشابه، ويلاحظ المتأمل أن تفسير البسملة يتماشى مع السياق العام للسورة كلّها، فالله والرحمن والرحيم لكل كلمة منها دلالات خاصة في كل سورة.

يقول في بداية تفسيره للفاتحة: " فلما أعاد الله -سبحانه وتعالى- هذه الآية، أعنى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، في كل سورة، وثبت أنها منها، أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة، وإشارات غير معادة، فلذلك نستقصى القول هاهنا وبه الثقة"[306].

ويستنتج الباحث من ذلك أن القشيري يوافق مذهب الإمام الشافعي في اعتبار البسملة آية من القرآن، وليست كما يقول أئمة المذاهب الأخرى: يُستفتح بها للتبرك، كما نصنع في بداية أقوالنا وأفعالنا. كما يفهم من ذلك أن القشيري لا يؤمن بفكرة تكرار المعنى الواحد في القرآن الكريم، وأن لكل كلمة أو عبارة معنى مختلف، وفي كل منها إشارة جديدة. ويتبين لكل متأمل في التفسير أن لدى القشيري قدرة كبيرة، ونفسًا طويلاً في استبطان الظاهر، لأننا نجده أمام البسملة التي تتكرر بلفظها ومعناها من بداية القرآن إلى نهايته، يجدد الإشارات وينوعها، ولا يعجز عن إضافات متجددة مع كل بسملة..

ونضرب مثلًا لهذا التنوع في تفسيره للبسملة: يقول في بسملة سورة الحجر: "سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من بسم الله، وليس لزيادتها علة، ليعلم أنّ

[306] القشيري، **تفسير القشيري**، 44/1.

الإثبات والإسقاط بلا علة، فلا يقبل من قبل لاستحقاق علة، ولا ردَّ من ردَّ لاستيجاب علة. ".[307] ويتضح من هذا أن استنباط الإشارة من هذه البسملة في هذا الموضع، مبني على فهم المعنى العام للسورة؛ فلو تعمق القارئ في تلاوة آيات السورة، لتبين له أن هناك صلة وثيقة بين ما فسرت به البسملة وبين المعنى العام للسورة، فرفع الخلق بلا علة، وخفضهم بلا علة، وذلك كما ورد في قصة خلق آدم، وموقف الملائكة الذين نظروا إلى ظاهر خلق آدم مع أن الاعتبار بالمعاني التي يودعها الله ذلك الخلق ...[308].

أما في سورة براءة، التي هي السورة الفريدة في القرآن الكريم، تبدأ بدون بسملة، يجد الباحث أن القشيري لا يترك هذه البداية من غير استنباط إشارة، يقول –رحمه الله–: " الحقّ– سبحانه– جرّد هذه السورة عن ذكر البسملة ليعلم أنه يخصّ من يشاء وما يشاء بما يشاء، ويفرد من يشاء بما يشاء، لا لصنعه سبب، ولا في أفعاله غرض ولا أرب "[309]. وبعد أن ينتهي القشيري من بسط إشاراته عند كل بسملة يبدأ في تفسير السورة آية آية، ولا يهجر آية من غير أن يقف عندها، إلا نادرًا، ولا يغادرها بدون إشارة، حتى ولو كانت الإشارة سريعة موجزة.

أما الحروف المقطعة التي تلي البسملة في عديد من السور، والتي دار حولها جدل كثير، ولبعدها عن مألوف الكلام المعهود، وأقرب ما تكون إلى الرموز والإشارات، وهي أدخل في منهج التفسير الإشاري لدى القشيري؛ حيث يقول عند تفسيرها: "هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله عند قوم، ويقولون لكل كتاب سرٌّ، وسرُّ الله في القرآن هذه الحروف المقطعة. وعند قوم إنها مفاتح أسمائه، فالألف من اسم «الله»، واللام يدل على اسمه «اللطيف»، والميم يدل على

---

[307] انظر: القشيري، **تفسير القشيري**، ج2، 262.

[308] انظر: القشيري، **تفسير القشيري**، تفسير سورة الحجر، 269/2 وما بعدها.

[309] انظر: القشيري، **تفسير القشيري**، تفسير سورة التوبة، 5/2 وما بعدها.

اسمه «المجيد» و «الملك»...."[310]. وهكذا يبسط القشيري الحديث في إشارات الحروف، التي تفتتح بها السور، وينقل أقوال المفسرين فيها، ثم يدلي بدلوه في هذه الحروف، فيذكر ما يفيض الله عليه به، من إشارات وأسرار يراها ببصيرته.

وأخيرًا يتبين للباحث أن الإمام القشيري قد جمع في" لطائف الإشارات" بين الظاهر والباطن؛ فالتفسير غني بالمعاني الظاهرة، التي لا يغفلها في تناول الآيات القرآنية، ثري بالإشارات اللطيفة التي يستنبطها عند كل آية، معززٌ بالشواهد الشعرية المناسبة لكل مقام؛ وضيء العبارة بما وهب الله صاحبه من حسن الأسلوب وجزالته، وبلاغة الكلمة وفصاحتها؛ وقد تقبل هذا التفسير كل من عاصره أو جاء بعده بقبول حسن؛ وربما لا يغني عنه غيره من التفاسير الكثيرة المتنوعة.

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية

إن أمثلة قليلة من " لطائف الإشارات " توضح مدى اهتمام القشيري في هذا التفسير بما يختص بالتربية الأخلاقية وإصلاح السلوك الإنساني.

- يقف الشيخ عند هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13]. ليشير إلى قضية مازالت ماثلة حاضرة في المجتمع البشري، وهي الميزان الذي يتعامل معه الناس في قياس بعضهم بعضًا. فالغني يرى لنفسه تميزًا على الفقير، فيزدريه ويحتقره، ويظن أن المال بكَدِّه وجَدِّه ومهارته وتدبيره، ويصف الفقير بالكسل والخمول، والعجز والهوان. ولو كُشف له الحجاب لرأى أنه هو الفقير المفلس؛ وكذلك المنافق الجاحد يرى لنفسه التميز على المؤمن ويصفه بالسفه وعدم التدبير. فيقول رحمه الله: "الإشارة منها أن المنافقين لما دعوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسّفه، وكذلك أصحاب الغنى إذا أمروا بترك الدنيا، وصفوا

[310] القشيري، **تفسير القشيري**، 1/53-54.

أهل الرشد بالكسل والعجز، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شيء، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش.." [311]

إنه يقرر في هذه الإشارة أن الغنى غنى النفس، غنى الدين، غنى الأخلاق والقيم، ولا يقاس الغنى بالمال والمتاع، لأن المال ظل زائل، وسينكشف الغطاء غداً يوم القيامة، يوم الحق، حيث لا ينفع المال صاحبه إلا إذا أنفقه في الطاعات، بل ربما سيكون وبالاً عليه إذا نوقش الحساب.

- ويقف عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾ [البقرة: 177]. يقول الشيخ رحمه الله: "والإشارة أن الظواهر ليس لها كثير اعتبار، إنما الخبر عن الله عزيز؛ وكثرة الأوراد- وإن جلّت- فحرفة العجائز، وإخلاص الطاعات- وإن عزّ- فصفة العوام، ووصل الليل بالنهار في وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر في استحقاق الثواب، ولكنّ معرفة الحق عزيزة"[312].

إنها دعوة للإخلاص، وتنقية النفس من الكدر، وتوجيه القلب إلى بارئه، فالله -سبحانه- لا ينظر إلى الهيئات، وليست الأعمال الصالحة هي الأصل في القبول عند الله، وإن كثرت وتعددت وتنوعت؛ فلا خير في عمل صالح إن لم يرافقه إخلاص التوجه إلى الله عز وجل. إنه لا يجحد العمل الظاهر، ولكنه يوجه المتأمل إلى عمل الباطن، عمل القلب المتصل بالله المتوجه إليه.

- وعندما يقف القشيري-رحمه الله – عند قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ [آل عمران:5]. يعزز عقيدة الإيمان بالله وقدرته، وإحاطته بالكائنات، وتصرفه

311 القشيري، **تفسير القشيري**، 63/1.

312 القشيري، **تفسير القشيري**، 149/1.

في الموجودات، فيقول: " لا يتنفس عبد نفسًا إلا والله –سبحانه وتعالى– محصيه، ولا تحصل في السماء والأرض ذرة إلا وهو –سبحانه– محدثه ومبديه، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليه..."[313].

بأسلوب جزل، وعبارة رشيقة، يبلغ الشيخ بها القلوب والأذهان، يقرر قاعدة إيمانية، ويوصل فكرة تربوية، تنبني عليها عقيدة المسلم في مفهوم الألوهية والربوبية، التي يقررها علماء الكلام؛ فإحاطة الله بسائر الموجودات، وإحكام مقاليدها بيده –سبحانه–، ثم استجابته لكل طالب، وتلبيته لكل راغب، كل ذلك يبعث في نفس المؤمن القوة والأمل والطمأنينة؛ فيحيا واثقًا ثابتا، يستشعر الطاقة المطلقة التي تسنده وتعينه، وترشده وتهديه.

– وعندما يقف عند هذه الآية الكريمة:﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ... ﴾ [آل عمران:28]. يفسر ظاهر المعنى، فيقرر عقيدة الولاء والبراء حيث يقول: "من حقائق الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله".

ثم ينتقل بالقارئ إلى قضية النفس وكيفية التعامل معها، وبتوجيه لطيف يلفت نظره إلى ضرورة هجر النفس الأمارة بالسوء، والإعراض عنها، فلا يسمع لهاتفها، ولا يلبي رغباتها وشهواتها، فيقول:" وأولى من تسومه الهجران والإعراض عن الكفار– نفسك فإنها مجبولة على المجوسية حيث تقول: لي ومني وبي، وقال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾[التوبة:123... "[314].

أسلوب تربوي رائق، يوجه المسلم لطبيعة علاقته مع نفسه، وقد أشار النبي الكريم –عليه الصلاة والسلام– إلى ذلك في حديث يُروى عنه، أنه قال لأصحابه، وقد انصرفوا من الجهاد: «أتيتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: مجاهدة النفس».[315]

---

[313] القشيري، **تفسير القشيري**، 219/1.

[314] القشيري، **تفسير القشيري**، 233/1.

[315] علي بن خلف بن عبد الملك، ابن بطال، شرح **صحيح البخاري**، تحقيق: ياسر بن إبراهيم (الرياض: مكتبة الرشد، 1423هـ)،

كما يرى سفيان الثوري–رحمه الله– أن العدو الحقيقي للإنسان الذي ينبغي أن يقاتله ويجالده، إنما هو نفسه وهواها، فهي أشد خطرًا من عداوة الإنسان، فيقول: "ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك به أجر، إنما عدوك نفسك التي بين جنبيك، فقاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك".[316] يبدو للمتأمل أن النفس البشرية المشبعة بالشهوات والنزوات؛ هي أخطر عدو ملازم لخصمه، ينبغي التبرؤ منها ومجافاتها ومجاهدتها.

– وعند تفسيره لمعنى الآية التي ينهى الله –تبارك وتعالى– عن الاقتراب من الصلاة في حالة السكر، في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43] وبعد أن يفسر ظاهر معنى الآية، يقسم السكر إلى أقسام، حيث يقول: " والسكر على أقسام: فسكر من الخمر، وسكر من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا؛ وأصعب السكر سكرك من نفسك، فهو الذي يلقيك في الفرقة عنه..."[317].

إنه يَعْبُرُ بالقارئ من سكر ظاهر جلي، إلى سكر باطن خفي، من الخمر التي تذهب بالعقول، إلى سكر من نوع آخر، سكر يذهب بالأنفس، وهو الغيبوبة عن حقيقة الوجود، حيث يغفل المرء عن نفسه ووظيفتها في الحياة، فيدعها تهيم في وديان الغفلات، وتندس في عالم الشهوات

والنزوات؛ وهذه هي المصيبة، بل إنها أكبر المصائب، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[الشمس:9-10]. وهل من خيبة أعظم من أن يخسر المرء نفسه، ويضل عن قصده، فتعمى بصيرته، ويسعى بظلفه إلى الهلاك والبوار.

.210/10

[316] ابن بطال، شرح **صحيح البخاري**، 210/10.

[317] القشيري، **تفسير القشيري**، 335/1.

- وأخيرًا يقف عند آية جليلة، تمثل ناموسًا تربويًا ثابتًا مستمرًا، يصلح لكل زمان ومكان، فلا يعتريه الزوال، ولا تفنيه الأحوال، ولا تستغني عنه الأجيال؛ إنه الإحسان الذي كتبه الله على كل شيء، وندب إليه الإنسان كي يعيش بسلام وأمان. قال عزَّ شأنه: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[فصلت:34] إنها الحسنة التي تدفع بها السيئة، ولو عمل الناس بهذه الآية، لانقلبت العلاقة بينهم من شحناء إلى مودة، ومن بغضاء إلى محبة؛ ويتحول العداء إلى ولاء. يقول القشيري –رحمه الله– مفسرًا ظاهر معنى الآية: "ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة، يعنى بالعفو عن المكافأة، وبالتجاوز والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف." [318] ثم ينتقل بالقارئ إلى معنى دقيق عميق، إلى علاقة الإنسان مع الله تعالى، حيث يقول: "وهذا من جملة حسن الأدب في الخدمة في حقّ صحبتك مع الله، تحلم مع عباده لأجله، ومن جملة حسن الخلق في الصحبة مع الخلق، ألا تنتقم لنفسك، وأن تعفو عن خصمك".[319] منهج رفيع في التربية: أن تكرم الخلق من أجل الخالق، وتعفو عن زلات العباد من أجل المعبود، وأن ترى صحبة الله لك في كل صنيع مع عباده، فتكرمهم لأجله، وتصفح عنهم لأنهم ينسبون إليه، فهم عباد الله، وأنت عبده. وإحسانك إليهم انتماء للعائلة الإنسانية التي خلقها الله وكرمها، وبقدر نفعك للناس تكون قريبًا منه، محبوبًا لديه.

[318] القشيري، **تفسير القشيري**، 331/3.

[319] القشيري، **تفسير القشيري**، 331/3.

وهكذا تناول الباحث في هذا المبحث حياة القشيري الشخصية والعلمية؛ مات أبوه وهو طفل، فنشأ يتيمًا، وقرأ الأدب والعربية، حضر نيسابور وحضر مجلس الشيخ أبي علي الدقاق، فلما سمع كلام الشيخ أعجبه وتتلمذ عليه، وبعد وفاة شيخه الدقاق سلك طريق التصوف وباشر تصنيف الكتب؛ كان معظمًا عند أهل نيسابور، يعظ ويتكلم بكلام الصوفية؛ وكان ثقة حسن الوعظ مليح الإشارة.

أَخذ الطَّرِيقَة الصوفية عَن الشَّيْخ أبي عَليّ الدقاق، وَأبي عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ، كما سَمِعَ الحَدِيْث مِنْ: أَبِي الحُسَيْنِ الخَفَّاف؛ وَمِنْ أَبِي نُعَيْمٍ الإِسفرَاييِنِي، وغيرهم. ودرس الْفِقْه على أبي بكر الطوسي، وَقَرَأَ "علم المنطق" على أبي بكر بن فورك، وَأبي إِسْحَاق الإِسْفِرَايِينِيّ، حج مَعَ الْبَيْهَقِيّ، وَأبي مُحَمَّد الْجُوَيْنِيّ، ومَضَى إِلَى حَلْقَة أَبِي بَكْرٍ الطُّوْسِيّ، وَتَفَقَّهَ عَلَيه. حَدَّثَ عَنْهُ: أَوْلَادُهُ؛ وَأَخُوْهُ وَجيه، وَمُحَمَّد بن الفَضْلِ الفَرَاوِي، وَعَبْدُ الوَهَّابِ بن شَاه وَآخَرُوْنَ.

زكاه الكثير من العلماء؛ لكن ابن تيمية كان يعيب عليه وعلى غيره من أئمة التصوف، إغفالهم سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين، والاكتفاء بسير المتأخرين من الزهاد والمتصوفين كان القشيري أشعري العقيدة، شافعي المذهب، صوفي المشرب. وكتب في كل فن منها. أما تفسيره" لطائف الإشارات" فقد كان سفرًا نفيسًا صنفه–رحمه الله– متحريًا التوفيق بين الحقيقة والشريعة، وقاصدًا إلى إثبات أمر مهم: ألا تعارض بين الشريعة والحقيقة، وأن ما يقال من التناقض بينهما خروج عن الحق، فلا شريعة بلا حقيقة، ولا حقيقة بلا شريعة. ولا يفوتنا أن نشهد للقشيري بالذوق الأدبي الذي يتمتع به، فالمتصفح لتفسيره يجد الروح الأدبية في بلاغة الكلمة، وروعة العبارة، التي تظهر جلية في أساليبه وتعابيره.

المبحث الرابع: محي الدين بن عربي (ت: 638هـ)، وتفسيره

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية

المطلب الثاني: منهجه في التفسير

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية

المبحث الرابع: محي الدين بن عربي (ت: 638هـ)، وتفسيره

المطلب الأول: حياته الشخصية والعلمية

هو محمد بن علي بن محمد، الطائي الحاتمي المرسي، محي الدين، يكنى أبا بكر، ويعرف بابن عربي وبالحاتمي أيضاً. ولد في مرسية، من مدن الأندلس في السابع عشر من شهر رمضان، سنة خمسمئة وستين هجرية (560هـ)، الموافق للسادس والعشرين من شهر تموز، عام ألف ومئة وخمسة وستين ميلادي (1165م)، كان أبوه من أئمة الفقه والحديث، وجدُّهُ كان قاضيًا وعالمًا مشهورًا في بلاد الأندلس؛ لذلك نشأ نشأة صالحة نقية من الشوائب، ارتحل به أبوه إلى أشبيلية، ودفعه إلى كبير قرائها، وعميد فقهائها أبي بكر بن محمد، فقرأ عليه القرآن، وأتم القراءات السبع قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره. ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث، منهم: أبو طاهر السلفي، وأبو الحسن بن نصر، وممن أجازه: ابن عساكر، وأبو الفرج بن الجوزي. [320] وفي هذه الأثناء كان يتردد على إحدى مدارس الأندلس التي تعلم سرًا مذاهب محدثة مفعمة بالرموز والتأويلات، موروثة عن الفيثاغورية والأورفيوسية والفطرية الهندية، كان ابن العريف أشهر أساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن، الذي لم يره ابن عربي، وإنما تتلمذ على كتاباته، وعلى رواية تلميذه أبي عبد الله الغزال.

[320] انظر: محمد الخضر حسين، **موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين**، جمعها وضبطها: علي الرضا الحسيني (دمشق: دار النوادر، 1431هـ)، 248/4.

كان ابن عربي ذكياً كثير العلم. كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب. ثم تزهد وتعبد، وتفرد وتوحد، وسافر وتجرد، وأتهم وأنجد، وعمل الخلوات. ثم باشر الرحلات الكثيرة الطويلة التي استمرت نيفًا وعشرين سنة، بدأت عام خمسمئة وسبع وتسعين، وانتهت عام ستمئة وثلاثة عشرين، وقد كانت رحلته الأولى إلى مكة حيث لقي الشيخ أبا شجاع بن رستم الأصفهاني، الذي يعد من كبار شيوخ بلاد فارس في حينها. فأحبه الشيخ وتوسم فيه الولاية، فزوجه ابنته نظام، وكانت مثالاً في الكمال الروحي والجمال البشري، قد جمعت بين حسن الخُلُقِ وجمالِ الخَلْقِ، فساهمت في تصفية حياته الروحية، بل كانت أحد دوافعه إلى الإمعان فيها؛ حيث اتخذ منها رمزًا للحكمة الخالدة، ونظم القصائد الرمزية في الجمال المطلق، وجعلها في ديوان سماه "ترجمان الأشواق".

طوف ابن عربي في بلاد المشرق ما بين القاهرة والموصل وبغداد وحلب، ثم حطَّ الرحال في قونية بتركيا، فاستطاب سكناها، وتزوج فيها بأرملة ذات ولد، تبناه ورباه وأسبغ عليه من عطفه وعلمه، حتى أصبح من أخص تلاميذه، وغدا من كبار العلماء المشهورين في تركيا، وهو صدر الدين القونيوي. وأخيرًا يرتحل محي الدين –رحمه الله– إلى دمشق ليستقر فيها، حيث كان أميرها أحد تلاميذه، ومن المؤمنين بعلمه ونقائه، ويعيش بقية حياته هناك يؤلف ويعلم، وكان يُعَدُ واحدًا من كبار العلماء بين أهل العلم والفقه في دمشق.[321]

[321] انظر: عمر بن علي بن الملقن، **طبقات الأولياء**، تحقيق: نور الدين شريبه (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1415هـ)، 469. ابن عربي، **الفتوحات المكية**، المقدمة، 3/1، وما بعدها بتصرف.

أما شيوخه الذين أخذ عنهم:

" قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف بإشبيلية بالسبع، وقرأ أيضاً السبع على أبي القاسم الشّرّاط القرطبي، وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للدّاني، وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي، وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم. وزاد في الرياض: "أنه سمع من ابن بشكوال وغيره، وتلقى العلم، ومال إلى الأدب، وأخذ الحديث عن شيوخه، منهم: أبو الحسن بن نصر، وأبو القاسم الخرستاني، وممن أجازه: ابن عساكر، وأبو الفرج بن الجوزي" [322] وقد ذكر ابن عربي نفسه مانصّه: "ومن شيوخنا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي، حدّثني بجميع مصنّفاته في الحديث، وحدّثني بكتب الإمام أبي محمد ابن حزم."[323]

تلاميذه:

أول من أخذ عنه ولده سعد الدين، الذي سمع الحديث والدرس منه، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور؛ وكذلك ولده عماد الدين، وقد دفنا بسفح قاسيون بجانب أبيهما، وأخذ عنه الملك المظفر غازي ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب.[324] ومن أخص تلاميذه ربيبه الذي نشأ في رعايته بعد أن تزوج أمه في قونية: صدر الدّين أَبُو عبد الله القونيوي، له تصانيف فِي السلوك، وَله تَفْسِير الْفَاتِحَة، توفّي بقونية سنة اثنتين وَسبعين وستمئة، وأوصى أَن يحمل تابوته إِلَى دمشق ويدفن معَ شَيْخه ابْن عربي.[325] كما أخذ

---

[322] انظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968م)، 162/2. شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، تحقيق: مصطفي السقا وآخرون (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939م)، 54/3. الخضر حسين، **موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين**، 248/4.

[323] المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 164/2.

[324] انظر: المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 170/2 وما بعدها.

[325] ابن الملقن، **طبقات الأولياء**، 468. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 141/2.

عنه شرف الدين عمر بن الفارض[326]، قال ابن الأبَّار: "وقد لقيته جماعة من العلماء والمتعبدين وأخذوا عنه، وقال كذلك: أفادني بعض أصحابنا أنَّه أجاز إجازة عامة لمن أحب الرواية عنه."[327]

آثاره العلمية:

لقد صنف الشيخ –رحمه الله – كتبًا كثيرة منها المطبوع، ومنها المخطوط، ومنها المفقود، ولعل من أبرز الآثار التي وثقها العلماء: "موسوعة التفسير" التي عرض من خلالها فلسفة التصوف في فهم القرآن المجيد، و "كتاب الفتوحات المكية"، الذي وُصف بأنه من النصوص الصوفية الموغلة في التعمق، وأن لغته رمزية وبها إشارات إلهية. و"كتاب فصوص الحكم"، الذي أثار جدلاً كبيراً في وقته. و"ترجمان الأشواق"وهو ديوان شعري خصصه في وصف نظام بنت شيخه أبي شجاع بن رستم الأصفهاني، التي تعرف إليها وتزوجها في مكة سنة (598 هـ). وكتاب شجرة الكون، يتحدث فيه عن الكون مشبهاً إياه بشجرة أصلها كلمة "كُن" ، و"كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام"، و" كتاب اليقين"، الذي تناول موضوع اليقين الذي حير العديد من فلاسفة ذلك العصر، و"ملاك التأويل وحقائق التنزيل"، و" الجذوة المقتبسة والحظوة المختلسة" و "كتاب المعارف الإلهية" و "كتاب الإسراء إلى المقام الأسرى" و " كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم" و"جامع الأحكام في معرفة الحلال والحرام" وكتب أخرى عديدة.[328]

وقد انتشرت كتب ابن عربي وتعاليمه بسرعة هائلة عبر العالم. ولم تكن كتاباته حكراً على النخبة من المسلمين، بل وجدت طريقها إلى الطبقات الدنيا من المجتمع نتيجة انتشار المد الصوفي. كما تُرجمت أعماله إلى اللغات الفارسية والتركية والأوردية.

---

[326]انظر: محمد صديق خان البخاري القِنَّوجي، **أبجد العلوم** (بيروت: دار ابن حزم، 1423هـ)، 605.

[327] المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 163/2. التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، 55/3.

[328] التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، 54/3. محمد بن جعفر بن إدريس الحسني الكتاني، **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة**، تحقيق: محمد المنتصر بن محمد الزمزمي (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1421هـ)، 41.

آراؤه الفقهية:

وللشيخ محي الدين اختيارات في المسائل الفقهية ينفرد بها عن سائر الفقهاء، منها: جواز مسح الرجلين في الوضوء –وهذا مذهب الشيعة الإمامية–؛ ومنها قوله: بجواز السجود في التلاوة إلى أي وجهة كانت. ومنها جواز إمامة المرأة للنساء والرجال، ومنها أنه لا يؤثر نزع الخف في طهارة القدم، ومنها عدم انتقاض الطهارة بأكل لحوم الإبل، يخالف بذلك مذهبه المالكي." [329]

أقوال العلماء فيه: [330]

أقوال العلماء في ابن عربي على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: من العلماء من نَصَّ على تكفيره بناء على ظاهر كلامه المخالف للشريعة المطهرة، وألفوا في ذلك رسائل عديدة، فمنها للعلامة السخاوي، ومنها للسعد التفتازاني، ومنها للملا علي القاري. ومنهم من ذكره في تصنيفاته ولم يؤلف فيه كتاباً مستقلاً، كالإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، فإنه ذكره في "لسان الميزان" وحط عليه، ونسب إليه سوء الاعتقاد، ومنهم أبو حيان ذكره كذلك بسوء الاعتقاد في تفسيريه " البحر، والنهر".

وقال العلامة أبو حيان عند تفسير قوله تعالى في المائدة ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ [المائدة 73] " ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تسربل[331]

---

[329] نعمان بن محمود الألوسي، **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين** (القاهرة: مطبعة المدني، 1981م)، 85-86.

[330] الألوسي، **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**، 85 وما بعدها. محمد أمين بن عمر الدمشقي، ابن عابدين، **حاشية ابن عابدين** (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1966م) 238/4. ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، 333/7. الذهبي، **التفسير والمفسرون**، 302/2. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **لسان الميزان**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2002م)، 391/7، رقم 7229.

[331] تسربل: لبس. انظر: إبراهيم مصطفي وغيره، **المعجم الوسيط**، باب السين، مادة (سرب).

بالإسلام ظاهراً، وانتمى إلى الصوفية حلول الله-تعالى-في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة كالحلاج، والشوزي وابن أحلى وابن عربي المقيم بدمشق..."[332].

القسم الثاني: ومن العلماء من جعله من أكابر الأولياء العارفين. قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي في "طبقات الأولياء": كان عارفاً بالآثار والسنن قوي المشاركة في العلوم أخذ الحديث عن جمع، ...ثم تزهد وساح، ودخل الحرمين والشام، وله في كل بلد دخلها مآثر، انتهى." [333].

كما نقل ابن العماد عن بعض العلماء قوله: "برز منفرداً مؤْثراً التخلي والانعزال عن الناس ما أمكنه، حتى إنه لم يكن يجتمع به إلا الأفراد؛ ثم آثر التأليف فبرزت عنه مؤلفات لا نهاية لها، تدل على سعة باعه، وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة..."[334]

القسم الثالث: من اعتقد ولايته وحرم النظر في كتبه. قال العلامة ابن عابدين في حاشية الدر، وابن العماد الحنبلي في تاريخه "الشذرات " يقول السيوطي في كتابه "تنبيه الغبي بتبرئة ابن العربي": والقول الفيصل في ابن عربي اعتقاد ولايته، وتحريم النظر في كتبه، فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا، ... وقد نص على ذلك الغزالي في بعض كتبه، وقال: إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة، ومن حمله على ظاهره كفر.[335]

قال التلمساني في أزهار الرياض: "وقد دست في كتب الشيخ محي الدين مقالات يجل قدره عنها، وقد عرض من المتأخرين ولي الله الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني لتفسير كلام الشيخ على وجه يليق، وذكر من البراهين على ولايته ما شرح صدره أهل التحقيق...".[336]

---

[332] الألوسي، **جلاء العينين**، 86- 87.

[333] ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، 333/7.

[334] ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، 333/7.

[335] الألوسي، **جلاء العينين**، 89.

[336] التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، 56/3.

وأخيرًا للبيضاوي جواب سؤال رفع إليه في أمر الشيخ محي الدين: "الذي أعتقده في حال المسؤول عنه، وأدين الله تعالى أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً، وإمام التحقيق حقيقة ورسماً، ومحي رسوم المعارف فعلاً واسماً".[337] ويقول الإمام الذهبي –رحمه الله– له من التفسير الإشاري ما يمكن أن يجعله شيخ المفسِّرين الإشاريين".[338]

ويرى الباحث أنَّ الشيخ ابن عربي الذي فسر القرآن الكريم على طريقة التصوف الإشاري، سليم العقيدة، غزير العلم، رقيق الحس، مرهف المشاعر. وإن قيل ما قيل فيه من آراء العلماء، الذين لا شك في إخلاصهم، وغيرتهم على دينهم. وبعدما يتأمل الباحث وصية ابن عربي في مقدمة كتابه الفتوحات المكية، وكأنه قد كُشف له سَجْفُ الغيب، واستشرف أقوال أهل العلم فيه، وفتاواهم وأحكامهم، فكتب كلامًا طويلًا، يعلن من خلاله عقيدة التوحيد النقية، الخالية من الدَخَلِ والتجديف، يبين من خلالها إيمانه بصفات الله العظيم، ومكانة رسوله الكريم، وعالم الغيب الذي ورد ذكره في القرآن والسنة، وسأورد قوله في مطلع وصيته، حيث يكشف عن عقيدة التوحيد عنده بشهادته الأولى، فيقول:" فيا إخوتي وأحبائي– رضي الله عنكم– أشهدكم عبد ضعيف مسكين، فقير إلى الله في كل لحظة وطرفة، أشهدكم على نفسه، بعد أن أشهد الله وملائكته، ومن حضره من المؤمنين وسمعه؛ أنه يشهد قولًا وعقدًا، أن الله إله واحد، لا ثاني له وألوهيته منزهة عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له في الملك، ولا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه –تعالى في وجوده –

---

[337] محمد بن عبد الله المعروف بكِبْرِيت، **رحلة الشتاء والصيف**، تحقيق: محمَّد سَعيد الطنطاوي (بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 1385هـ)، 2280.

[338] انظر: رأي الذهبي في **التفسير والمفسرون**، 252/2.

فالعالم كله موجود به، وهو وحده متصف بالوجود لنفسه، ليس بجوهر متحيز فيقدر له مكان، ولا بعرض فيستحيل إليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء..."[339]

كما يُستشف من شهادته الثانية إيمانه بالرسالة والرسول والملائكة واليوم الآخر وما فيه من عذاب وثواب، ونعيم مقيم للموحدين، وعذاب أليم للكفار والجاحدين، أنه بريء مما نسب إليه من سوء الاعتقاد، وأن ماورد في كتابه مما يخالف عقيدة أهل السنة، مدسوس عليه، بغرض تشويه سمعته، والنيل من دينه، حيث يقول: " وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم، على نفسي بتوحيده، فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من وجوده سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيرًا ونذيرًا...فأنا مؤمن بهذا إيمانًا لاريب فيه ولا شك؛ كما آمنت وأقررت أن سؤال فتَّانَيِّ القبر حق، وبعث الأجساد من القبور حق، والعرض على الله–تعالى–حق، والحوض حق والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة حق والنار حق ...."[340].

وكل مُنصف يقرأ شهادته هذه في مقدمة الفتوحات، وما فيها من حقيقة الإيمان، التي يعتقدها أهل السنة من هذه الأمة، وما يجد في كتبه من عبارات ورموز توحي بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود؛ يحكم للشيخ محي الدين –رحمه الله– بالبراءة من كل عقيدة فاسدة خارجة عن عقيدة الإسلام النقية؛ وأن هذه العبارات مدسوسة في كتبه من حاقد ملحد، غايته النيل من ثقة الناس بالشيخ، بل غايته تشويه العقيدة الصحيحة، وتشويش إيمان المطالع لهذه الكتب؛ لذلك حرم النظر فيها بعض العلماء الواثقين بولايته وعلمه.

---

[339] ابن عربي، **الفتوحات المكية**، 62/1 وما بعدها.

[340] انظر: ابن عربي، **الفتوحات المكية**، 64/1 وما بعدها.

المطلب الثاني: منهجه في التفسير:

لابد من التنويه أولاً بأن تفسير القرآن المطبوع في مجلدين، والذي يتداوله الناس، وينسبه بعض أهل العلم للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، لا صلة له بالشيخ لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هو لعبد الرزاق الكاشاني المتوفى عام (730هـ)، أي بعد وفاة الشيخ الأكبر بحوالي مائة عام، والنسخة الخطية لهذا التفسير موجودة بالمكتبة السليمانية بتركيا تحت رقم 18 – 17، وتحمل خاتم المؤلف"عبد الرزاق الكاشاني"

ولقد فقدت المكتبة الإسلامية تفاسير الشيخ الأكبر ابن عربي ضمن ما فقدته من كنوز العلم الضائعة، حيث إنه لا يوجد أي أثر لتفاسيره إلا تفسير فاتحة الكتاب، وقسم من سورة البقرة، في مجلد باسم: "إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن.." . أما التفسير الأكبر المسمى بـ:" الجمع والتفصيل في معرفة معاني التنزيل" والذي ذكره الشيخ مرات عديدة في الفتوحات المكية، فإنه لم يبق منه أثر[341].

وقد أخذ الباحث محمود محمود الغراب، بجمع بعض تفاسير ابن عربي لآيات القرآن الكريم من فتوحاته المكية، وفصوص الحكم، وما تبقى من تراث علمي منسوب إليه، وجعله في كتاب سماه "رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم، من كلمات الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن العربي الطائي الحاتمي" ومن خلال هذا الكتاب، نقرأ كلمات للشيخ ابن عربي في التفسير، ونستطيع بناء تصور لمنهجه في التفسير. فبعض العبارات المنسوبة الى الشيخ، والتي يصرح من خلالها بضرورة الأخذ بظاهر النص، وعدم التفسير بالرأي فقط، ويتبين لنا أنه لم يكن يغفل تفسير الظاهر، بل لقد عَدَّ إغفال الظاهر والاكتفاء بالرأي فقط كفرًا.

---

[341] انظر: محمود محمود الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم من كلمات الشيخ الأكبر محيي الدين محمد ابن العربي الطائي الحاتمي**، (د.م، د.ت)، المقدمة، 4/1.

فها هو ذا يقول: "كل مفسر فسر القرآن، ولم يخرج عما يحتمله اللفظ فهو مفسر، ومن فسره برأيه فقد كفر "[342]. بهذا التصريح ينفي الشيخ التهمة، التي نسبها إليه كثير من العلماء، الذين حكموا عليه بأنه يفسر الآيات القرآنية بالإشارة والرموز الصوفية، ولا يعنى بظاهر النص.

إنه لم ينف التفسير الظاهر وإنما أراد أن يبين أن لغة العرب التي نزل بها القرآن المجيد، حمالة وجوه، ويمكن أن يفهم كل عالم ما يتبادر إلى ذهنه من المعاني التي تحملها الآيات القرآنية؛ ولربما تشرق في آفاق الوجدان زيادات ذوقية غير مرتبطة بظهور الآيات، ويجزم ابن عربي أن هذه الإشراقات الذوقية لا تتأتى إلا للعارفين من الأولياء، فيقول: " فاغطس في بحر القرآن العزيز إن كنت واسع النفس، وإلا فاقتصر على مطالعة كتب المفسرين لظاهره، ولا تغطس فتهلك... ".[343]

وقد تحاشى ابن عربي –رحمه الله– ماورد من الإسرائيليات في التفسير؛ لأنه يرى: أن الرسول –صلى الله عليه واله وسلم– أمرنا ألا نصدق اليهود ولا نكذبهم في حكاياتهم، فإنَّ ذكر هذه الحكايات في التفسير يعد رداً لما أوصانا به الرسول.

قال –رحمه الله–: " أما المفسرون الذين يأخذون حكايات اليهود في تفسير القرآن، فقد أمرنا رسول الله –صلى الله عليه واله وسلم– ألا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم، فمن فسر القرآن برواية اليهود، فقد رد أمر رسول الله، ومن رد أمر رسول الله فقد رد أمر الله..."[344].

ومع أن ابن عربي لا يُعْنى بالتفسير الظاهري، إلا أننا نجده كثيرًا ما يفسر القرآن تفسيراً ظاهرياً، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿يُخادعوَنَ اللهَ والذين آمنُواَ وما يَخَدعوَن إلا أَنفُسُهْمَ وما يَشعُرون﴾ [البقرة:9] نجده يسلك في تفسيره مسلك سائر المفسرين في تفسير المعاني الظاهرة، حيث يقول:

---

[342] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 12/1.

[343] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 16/1.

[344] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 13/1.

﴿يُخادِعونَ اللَّه...﴾ بجهلهم القائم بهم بأن الله لا يعلم، ﴿...وما يَخدُعون إِلا أَنفُسهُمَ وما يَشعُرون﴾ في خداعهم الذين آمنوا، فإن من خادع المؤمن فما خدع إلا نفسه، وأما من يخادع الله فهو جاهل بالله ..."[345].

بيد أن الشيخ –رحمه الله– يغلب على تفسيره الجانب العرفاني، فيكثر من الإشارات والإيماءات في تفسيره، فنجده يسهب في استشراف المعاني الرمزية، ويفصل طويلًا في الفيوضات والإشراقات الروحية، حتى ليظن المتأمل في تفسيره، أنه يخرج عن مقاصد الآيات، لكن منهجه –رحمه الله– يتناول الدلالات التي لا تنتهي في آيات القرآن المجيد؛ فنجده عند قول الله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ وبعد أن يثبت الوحدانية لله جل في علاه، ونفي الربوبية عمن سواه، يقف عند ذيل الآية ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّار﴾ فيقول: "فعن الفردية، ظهرت الأفراد، وعن الاثنين ظهرت الأشفاع، ولا يخلو كل عدد أن يكون شفعا أو وترا إلى ما لا يتناهى التضعيف فيه، والواحد يضعفه أبدا، فبقوة الواحد ظهر ما ظهر من حكم العدد، والحكم لله الواحد القهار ...". [346] إنه يثبت وحدانية الله المطلقة المتمثلة باسم الواحد الفرد، والواحد تكتسب المدد منه الأعداد كلها، فبقوة الواحد ظهرت الأعداد، والله وحده الذي يملك المتقابلات من الأمور كلها، من العدم والإيجاد، فهو المعز المذل، والمحيي المميت، والقابض الباسط...؛ ولا يملك هذه المتقابلات إلا هو وحده سبحانه.

وعند تفسير قوله تعالى:﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:106] نجد له فهمًا فريدًا في معنى الشرك، فكل الخلق مؤمنون بوجود الله، ولكن الكثير منهم مشرك بالتوحيد، ويميز بين الوجود والتوحيد، فقد أثبت إيمان الخلائق جميعهم بوجود الله، وأشرك الكثير منهم بوحدانيته؛ يقول–رحمه الله–: " ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل بتوحيد الله، فالمشرك مؤمن بوجود الله لا

---

[345] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 65/1.

[346] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 383/2-384.

بتوحيده ﴿إلا وَهُمْ مشْرِكُونَ﴾؛ والشرك منه جلي وخفي، فالمؤمن بتوحيد الله مؤمن بوجود الله، وما كل مؤمن بوجود الله يكون مؤمنا بتوحيد الله..." [347]

هذا الفهم في التفريق بين الإيمان بالوجود والإيمان بالتوحيد، ربما لم يتطرق إليه أحد من المفسرين من قبل، وفي هذا التمييز بين الوجود والوحدانية ملمح لطيف، قد أشار الله إليه من قبل بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...﴾ [لقمان:25] فهم يقرون بوجود الله وقدرته وعظيم خلقه، لكنهم يشركون معه في عبادته، ولا يقرون بتوحيده.

وينقل لنا ابن عباس –رضي الله عنهما–صورة طريفة من عقيدة العرب قبل الإسلام، تعزز ما ذهب إليه ابن عربي من مفهوم الإيمان بالوجود، والشرك بالتوحيد، فيقول: " كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ. قَالَ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلَكُمْ! قَدْ. قَدْ[348]» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ. تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بالبيت".[349]

المطلب الثالث: بعض الإشارات في تفسيره ودلالاتها التربوية

إن الإشارات التي استنبطها الشيخ–رحمه الله– من آيات القرآن المجيد كثيرة وفيرة، فلا يكاد يمر بآية إلا ويشير إلى معنى طريف، يضيف إلى مخزون الأمة الثقافي، ومنهجها العلمي دلالات تربوية، يستفاد منها في صقل الفكر، وإثراء الوجدان، وتوجيه السلوك الإنساني إلى المناحي الإيجابية، وتوفير البيئة الصالحة للتعايش بين أفراد المجتمع.

فعند قوله –تعالى–: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:189] يقف الشيخ متأملًا أصل خلق الإنسان، ويستنبط إشارة تربوية رائعة توجه الاهتمام

---

[347] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 397/2.

[348] قوله صلى الله عليه وسلم: «وَيْلَكُمْ! قَدْ. قَدْ» معناه: كفاكم هذا الكلام فاقتصروا عليه ولا تزيدوا.

[349] مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1955م)، كتاب الحج، 843/2، رقم 1185.

إلى النساء شقائق الرجال، ليبين أن معدن الخلق واحد، وغريزة الحنين إلى الجانب الآخر أمر فطري كحنين الغريب إلى وطنه، والديار إلى ساكنيها؛ وينبه إلى وجوب حب المرأة واحترام وجودها، والتعامل معها بالمحبة والمودة والرحمة، فيقول: "يدل على أن النفوس خلقت من معدن واحد ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ حنين الكل إلى جزئه، كاستيحاش المنازل لساكنيها، ولأن المكان الذي في الرجل، الذي استخرجت منه المرأة عمّره الله بالميل إليها، فحنينه إلى المرأة حنين الكبير على الصغير، فمن عرف قدر النساء وسرهن لم يزهد في حبهن..."[350]. وهكذا يقرر الشيخ قاعدة إنسانية في علاقة الرجل بالمرأة، علاقة رحمة ومودة، مبنية على الحب المكتسب من الله تعالى، علاقة الألفة الباعثة على السكينة والاطمئنان، لا على الشهوة الجامحة، والنزوة العابرة.

ومن روائع إشارات الشيخ في فهمه لآيات الله –جل في علاه– نجد قاعدة تربوية مهمة يوجه من خلالها المجتمع المسلم إلى احترام العلماء وتوقير مكانتهم العلمية وعدم الاستهانة بأحدهم، فيقف عند قوله –سبحانه–: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[الرعد:2]. يرى أن السموات تقوم على عمد تخفى على عامة الناس، وتحتجب عن بصائرهم، وتتجلى لخاصتهم، فيرونها بعين البصيرة، فكل عمود منها إنسان كامل وأمر شامل، فيقول: "يدل ذلك على أن هناك عمدًا قائمًا عليه اعتماد السبع الشدائد، لكنه عن البصر محجوب، فهو ملحق بالغيوب، فقال من أوجد عينها، فأقامها بغير عمد ترونها، فما نفى العمد، لكن ما يراه كل أحد، فلا بد لها من ماسك، وما هو إلا المالك، فمن أزالها بذهابه فهو عمدها المستور في إهابه.".[351]

---

[350] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 205/2.

[351] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 405/2.

إنه يوجه القلوب والأفكار إلى احترام العلماء الربانيين، وتبجيلهم والاهتمام بهم والأخذ عنهم، وملازمة صحبتهم فمكانة العلماء غاية في الإجلال والإكبار، ليعرف الناس قدرهم، ويدركون مكانتهم، فيصبح قولهم مسموعًا، ورأيهم مسددًا، ترد إليهم جليل القضايا، ويستفتون في عظائم الأمور.

أما عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: 70] فسيتنبط إشارة لطيفة تتمثل بإيذان الاتصال بين الأخوة بعد الانفصال، وفتح باب الصلح ولَمّ الشمْلِ بعد زمن الفرقة والبعاد، فيقول: "جعل يوسف –عليه السلام – الصواع حجابا يقرع بذلك للاتصال بالأحبة باباً".[352]

وعندما يريد الحديث عن النفس ومكانتها، وأسباب انحرافها، نجد له فهمًا لطيفًا لحقيقة معادن النفس ودواعي هبوطها، وميلها إلى الشهوات والنزوات، فيقف عند قول الله تعالى: ﴿ وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَاّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف:53].

ليبين أن للنفس مكانة عظيمة عند الله، حيث أقسم بها –سبحانه– كي ينبه عباده للاهتمام بها: ﴿ ونفس وما سواها﴾ [الشمس:7]. فيقول الشيخ: "النفس ليست أمارة بالسوء من حيث ذاتها، وإنما ينسب إليها ذلك من حيث إنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور، ولجهلها بالحكم المشروع في ذلك. ثم إن قول الله تعالى: ﴿ إِن النَّفَس لأَمَارَةٌ بِالسُّوء ﴾ ما هو حكم الله عليها بذلك، وإنما الله حكى ما قالته امرأة العزيز في مجلس العزيز، وهل أصابت في هذه الإضافة، أو لم تصب، هذا حكم آخر مسكوت عنه ...". [353] إذن هو يبرئ النفس من صفة الأمر بالسوء، خلافًا لعامة شيوخ التصوف، الذين ينسبون إلى النفس الأمر بالسوء، ويتهمونها بالدعوة إلى المهالك. [354]

ويبين سبب انحراف النفس عن الحق وإقبالها على الباطل بطاعتها للشيطان وسماعها لوسوسته فيقول: "والذي هو للنفس أنها لوامة نفسها إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به".[355] ولعله بهذه الإشارة التي ترفع قدر النفس وتبرئها من صفة الأمر بالسوء، يؤسس لمنهج تربوي إنساني يقوم على معرفة لمة

---

[352] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 392/2.

[353] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 387/2.

[354] انظر: القشيري، **الرسالة القشيرية**، 283/1.

[355] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 387/2.

الملك للاستجابة لإلهاماتها، ومعرفة لمة الشيطان والحذر من خواطرها. "فحق العبد أن يقف عند كل هم يخطر له، ليعلم أنه لمة ملك أو لمة شيطان، وأن يمضي النظر فيه بنور البصيرة لا بهوى من الطبع، بل بنور اليقين".[356]

ويريد أن يعزز قيمة العهد، وضرورة الالتزام بالوعد فيقف عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ العَهْدَ كانَ مَسْؤلاً﴾ [الإسراء:34] ليشخص العهد ويجعله ماثلًا بين يدي الله –سبحانه– في موقف رهيب تخشع فيه الأصوات، وتعنو الجباه، فجميع الخلق بين يديه يسمعون شهادة العهد، وهو يسمع المساءلة ويعيها، فيشهد عمن وفَّى بالعهد، ومن نقض وغدر، فلا مجال حينها للمراوغة والكذب، يقول: "ما أعجب قوله تعالى ﴿إِنَّ العَهْدَ كانَ مَسْؤلاً﴾ أي الصفة المسماة بالعهد هي التي تسأل، فيقال لها : هل وفَّى بك هذا العبد ؟ تجيب، وذلك أنه يتصور من المعاهِد والمعاهَد أنْ يصدُقا أو أن يُنكرا، ولا يتصور ذلك في العهد الذي هو الصفة، فلذلك سئل العهد، لتحققه بقيامه بالقسط، وبما عهد إليه من أمانة وخيانة".[357] إنها إشارة لطيفة تنبه المسلم لضرورة الالتزام بالعهد، والحرص على الوفاء بالوعد، لكي يبقى المجتمع المسلم متوازنًا مستقرًا، خاليًا من المنازعات والمخاصمات.

ومن ألطف لفتات الشيخ –رحمه الله– وإشاراته، تعرية فئة من الناس التي تصحب الصالحين لحاجات دنيوية دنيئة، يندسون في صفوفهم ويشاكلونهم في مواجدهم، كي يشتهروا بحالهم، ويوسموا بوسمهم، ولكن هيهات!، فكل يغني على ليلاه. إنه يتواجد كما يتواجدون، ويطرب كما يطربون، ويهيج كما يهيجون، بيد أن القلوب متباينة، والنوايا مفترقة.

---

[356] عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، **فيض القدير** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1356هـ)، 356/2، رقم:2034.

[357] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 541/2.

يقف الشيخ عند قوله جل شأنه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:9، 10]. فيقول: " ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ بالأعمال الصالحة، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ فأدخلها في الصالحين وليست منهم، فإن من أمراض الأحوال صحبة الصالحين حتى يشتهر في الناس أنه منهم، وهو في نفسه مع شهوته، فإن حضروا سماعًا، وهو قد تعشق بجارية أو غلام-والجماعة لا تعلم بذلك - فأصابه وجد وغلب عليه الحال لتعلقه بذلك الشخص الذي في نفسه، فيتحرك ويصيح ويتنفس الصعداء، ويقول : الله الله؛ أو : هو هو؛ ويشير بإشارات أهل الله، والجماعة تعتقد في حاله أنه حال إلهي، مع كونه ذا وجد صحيح وحال صحيحة، ولكن فيمن ؟ "[358].

ما أكثر المندسين المرائين في كل زمان ومكان، غايتهم الشهرة والظهور، وغرضهم الانتفاع بصحبة الصالحين ليشتروا الدنيا بالدين، ويبيعوا بدينهم عرض من الدنيا قليل.

إنه ينبه الأذهان، ويوجه الأنظار إلى هذه الشريحة من الناس تمتهن مظاهر الدين، وتتزيا بزي الصالحين، كيلا ينخدع بها أصحاب القلوب السليمة، ولا يتبعها السذج من العامة.

وهكذا يتناول الباحث سيرة الشيخ محي الدين بن عربي (ت: 638هـ)، فيوجز في سرد حياته الشخصية، ويفصل في بيان موروثه العلمي. يعرف بابن عربي. ولد في مرسية، من مدن الأندلس، نشأ نشأة صالحة نقية من الشوائب، ارتحل به أبوه إلى أشبيلية، ودفعه إلى كبير قرائها، وعميد فقهائها أبي بكر بن محمد، فقرأ عليه القرآن، وأتم القراءات السبع قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره. ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث، منهم: أبو طاهر السلفي، وأبو الحسن بن نصر، وممن أجازه: ابن عساكر، وأبو الفرج بن الجوزي.

---

[358] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 506/4.

وللشيخ محي الدين اختيارات في المسائل الفقهية ينفرد بها عن سائر الفقهاء، منها: جواز مسح الرجلين في الوضوء. ومنها قوله: بجواز السجود في التلاوة إلى أي وجهة كانت. ومنها جواز إمامة المرأة للنساء والرجال. وأخذ عنه ولده سعد الدين، وكذلك ولده عماد الدين، ومن أخص تلاميذه ربيبه الذي نشأ في رعايته صدر الدّين أَبُو عبد الله القونوي، كما أخذ عنه عمر بن الفارض، وأجاز إجازة عامة لمن أحب الرواية عنه.

أما آثاره العلمية: فقد صنف كتبًا كثيرة منها المطبوع، ومنها المخطوط، ومنها المفقود، ولعل من أبرز الآثار التي وثقها العلماء: "موسوعة التفسير" التي عرض من خلالها فلسفة التصوف في فهم القرآن المجيد، و "كتاب الفتوحات المكية"، و "فصوص الحكم"، الذي أثار جدلاً كبيراً في وقته و"ترجمان الأشواق" وهو ديوان شعري، و"كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام"، و" كتاب اليقين" وكتب أخرى عديدة.

أما أقوال العلماء فيه فعلى أقسام ثلاثة: منهم من نص على تكفيره بناء على ظاهر كلامه المخالف للشريعة المطهرة، ومنهم من جعله من أكابر الأولياء العارفين، ومنهم من اعتقد ولايته وحرم النظر في كتبه. ولابد من التنويه بأن تفسير القرآن المطبوع في مجلدين، وينسبه بعض أهل العلم للشيخ محيي الدين ابن عربي، لا صلة له بالشيخ لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هو لعبد الرزاق الكاشاني المتوفى عام (730هـ) والنسخة الخطية لهذا التفسير موجودة بالمكتبة السليمانية بتركيا.

وقد تحاشى ابن عربي –رحمه الله– ماورد من الإسرائيليات في تفسيره؛ لأنه يرى: أن الرسول –صلى الله عليه واله وسلم– أمرنا ألاّ نصدق اليهود ولا نكذبهم في حكاياتهم.

أما الإشارات التي استنبطها من آيات القرآن المجيد فكثيرة وفيرة، فلا يكاد يمر بآية إلا ويشير إلى معنى طريف، يضيف إلى مخزون الأمة الثقافي، ومنهجها العلمي دلالات تربوية قيّمة. ويبقى ابن عربي ومؤلفاته مادة جدل لا ينتهي على مر الزمان.

مخطط توضيحي لأشهر المفسرين الإشاريين في العصر العباسي وتفاسيرهم

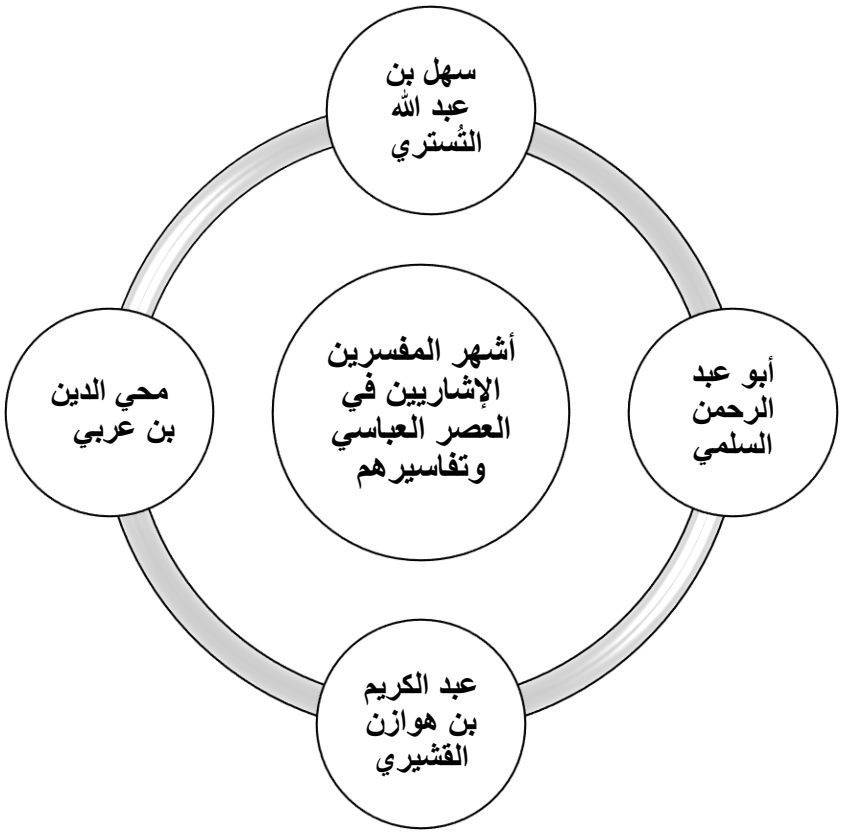

مقارنة موجزة بين مناهج أعلام المفسرين الإشاريين:

المتأمل في تفاسير من سبق من أعلام المفسرين الإشاريين، يتبين له أبرز الملامح في مناهجهم. **فتفسير الإمام سهل التستري –رحمه الله–:** يعد من أهم التفاسير، التي تمثل التفسير الصوفي للقرآن الكريم. إذ لم يكن هذا التفسير تقليديًا، فقد جمع ما استطاع من المعاني اللغوية، والشرعية، والأخلاقية، والكونية. وكان ترجمة لأحاسيسه ومشاعره، عند تدبره الآيات القرآنية. فلم يقتصر في تفسيره على الجانب الإشاري لمعاني آيات القرآن الكريم. بل كان يذكر المعنى الظاهر للآية في كثير من الأحيان. وقد يقتصر على ظاهر المعنى فقط، وربما اقتصر على المعنى الإشاري لوضوح المعنى الظاهر وشهرته.

وحجم هذا التفسير صغير نسبيًا، إذا ما قيس بالتفاسير الأخرى، فهو مطبوع في مجلد واحد؛ لم يستقص فيه القرآن آية آية، بل وقف عند آيات متفرقة من كل سورة. ونجد في مقدمة التفسير كلمة يوضح خلالها ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى كل منهما، كما يُعَرِّفُ كلاً من معنى الحد والمطلع. وكثيراً ما يسرد حكايات الصالحين وأخبارهم، ليكون شاهداً لما يدعو إليه، كما يضمن تفسيره هذا رقائق ومواعظ نفيسة، وحكم وأمثال جليلة، وكثيرًا ما يستشهد في تفسيره لبعض الآيات، بأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

ولكن مهما ذكرنا من محاسن هذا التفسير المبارك، فقد يلاحظ المتصفح له أن التستري –رحمه الله – عند استشهاده بالحديث النبوي لم يُعْنَ بإسناده كعادة المحدثين، ولربما يأتي بأحاديث وأخبار اشتهرت على ألسنة الناس، قد تكون ضعيفة، أو لا أصل لها، ولربما يورد قول بعض الصالحين فينسبه إلى رسول الله. كما يؤخذ على سهل –رحمه الله – في تفسيره بعض الإشارات المشكلة، التي يقف عندها العلماء متسائلين، ما مدى الصلة بين الظاهر والباطن؟ وذلك لبعد القياس بين ظاهر المعنى، والباطن الذي يشير

إليه. كما أنه يوجز القول في إشاراته ولا يفصّل؛ فأقواله في غاية الإيجاز والاختصار؛ بل ربما اعترى بعض هذه الإشارات إلغاز وإبهام، مما يضع القارئ في حيرة من فهمها. كما يجد قارئ هذا التفسير، أن سهلًا –رحمه الله– يتجاوز الكثير من الآيات، فلا يقف عندها ولا يفصح عن تفسير لظاهرها ولا لباطنها.

أما تفسير أبي عبد الرحمن السلمي "حقائق التفسير": فيتسم بسمة أهل الحقيقة من الصوفية، ويصطبغ بصبغتهم في الإشارات والإيماءات التي تظهر لهم. ويستوعب جميع سور القرآن، ولكنه لا يتعرض لكل الآيات، وهو لا يتعرض لظاهر القرآن. ثم إنه لم يكن له في هذا التفسير–حسب قوله – سوى ما جمعه من إشارات السابقين من علماء الصوفية، ورتبها على السور والآيات، في كتاب سماه "حقائق التفسير."

وأكثر مَنْ نقل عنه السلمي في تفسيره: أبو العباس أحمد بن عطاء الآدمي[359]، وجعفر الصادق، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التستري، وآخرين. غير أن اقتصاره على المعاني الإشارية، والإعراض عن المعاني الظاهرة في هذا الكتاب، جعل الكثير من العلماء يرفض هذا التفسير وينال من صاحبه.

وأما تفسير الإمام القشيري "لطائف الإشارات": فيعتمد على كشف خفايا الألفاظ، وبواطنها، دون التوقف عند حدود ظاهر معانيها المعجمية، وإنما ينظر إلى اللفظة القرآنية على أنها جوهر يدق على فهم العامة. والعلماء من أهل التجريد هم وحدهم الذين يتاح لهم الكشف عن هذا الجوهر.

ومنهج القشيري في تفسيره يمثل نمطًا متزنًا في التفاسير الإشارية، مقبولًا لدى عامة العلماء؛ فهو يتعامل مع اللفظة أو الآية، بذكر المعنى الظاهر، ثم يعمد إلى استنباط الإشارات منها؛ فيبدأ بتفسير الآية

---

[359] أبو العباس: هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ببغداد، ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، روى عن: يوسف بن موسى، وغيره، رَوَى عَنْهُ: محمد بن عليّ بن حُبيش، تُوُفِّي في ذي القعدة سنة 309هـ. انظر: الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 141/7.

لغويًا، ثم يعزز تفسيره الظاهري باللطائف الإشارية، ويكثر من الاستشهاد بالأشعار، التي تضفي على تفسيره مسحة أدبية رائقة، تشهد له بالذوق الأدبي، الذي يتمتع به؛ فالمتصفح لتفسيره يجد الروح الأدبية في بلاغة الكلمة، وروعة العبارة، التي تظهر جلية في أساليبه وتعابيره.

وقد سار القشيري في تفسيره على خطة واضحة محددة التزم بها من أول التفسير إلى آخره، حيث يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة، وأحيانا حرفًا حرفًا، والبسملة تتكرر بلفظها في مفتتح كل سورة، ومع ذلك يلجأ إلى تفسير كل بسملة على نحو ملفت للنظر، فتختلف وتتنوع، ويلاحظ المتأمل أن تفسير البسملة يتماشى مع السياق العام للسورة كلّها، فالله، والرحمن، والرحيم، لكل كلمة منها دلالات خاصة في كل سورة.

أما تفسير ابن عربي –رحمه الله–: فقد تفرق في فتوحاته المكية، وفصوص الحكم، وما تبقى من تراث علمي منسوب إليه، وقد جمع محمود الغراب الكثير من تفسيره وجعله في كتاب سماه: "رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن" ومن خلال هذا الكتاب، نقرأ كلمات للشيخ ابن عربي في التفسير، نستطيع من خلالها بناء تصور لمنهجه في التفسير. فبعض العبارات المنسوبة الى الشيخ، والتي يصرح من خلالها بقوله: "كل مفسر فسر القرآن، ولم يخرج عمّا يحتمله اللفظ فهو مفسّر، ومن فسّره برأيه فقد كفر...".[360]

فهو لم ينف تفسير الظاهر وإنما أراد أن يبين أن لغة العرب التي نزل بها القرآن المجيد، حمَّالة وجوه، ويمكن أن يفهم كل عالم ما يتبادر إلى ذهنه من المعاني التي تحملها الآيات القرآنية؛ ولربما تُشرق في آفاق الوجدان زيادات ذوقية غير مرتبطة بظواهر معاني الآيات، ويجزم أن هذه الإشراقات الذوقية لا تتأتى إلا للعارفين من الأولياء. وقد تحاشى ابن عربي –رحمه الله– ماورد من الإسرائيليات في التفسير؛ لأنه يرى: أن

[360] الغراب، **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم**، 12/1.

الرسول – صلى الله عليه واله وسلم– أمرنا ألَّا نصدق اليهود ولا نكذبهم في حكاياتهم، فإنَّ ذكر هذه الحكايات في التفسير يعد رداً لما أوصانا به الرسول عليه السلام.

بيد أن الشيخ ابن عربي على الرغم من إقراره بظاهر التفسير، لكنه يغلب على تفسيره الجانب العرفاني، فيكثر من الإشارات والإيماءات، فنجده يسهب في استشراف المعاني الرمزية، ويفصل طويلًا في الفيوضات والإشراقات الروحية، حتى ليظن المتأمل في تفسيره، أنه يخرج عن مقاصد الآيات، لكن منهجه –رحمه الله– يتناول دلالات المعاني التي لا تنتهي في آيات القرآن المجيد. إنه يثبت وحدانية الله المطلقة المتمثلة باسم الواحد الفرد، والواحد تكتسب المدد منه الأعداد كلها، فبقوة الواحد ظهرت الأعداد، والله وحده الذي يملك المتقابلات من الأمور كلها، من العدم والإيجاد، فهو المعز المذل، والمحيي المميت، والقابض الباسط...؛ ولا يملك هذه المتقابلات إلا هو وحده سبحانه.

وبعد هذه التطوافة في رحاب مناهج المفسرين الإشاريين، نجد أنهم لا ينكرون ظاهر التفسير، ولكنهم يعنون بمآلات المعاني، ودلالات الألفاظ، لاستنباط الملامح التربوية، التي تعالج أحوال النفوس البشرية، وتصحح مسارات السلوك الإنساني. ولكل من هذه التفاسير اللمسات التربوية البارزة، والبصمات المؤثرة في النفوس، ولكن تفسير القشيري "لطائف الإشارات" الذي حظي بالقبول لدى خاصة المسلمين وعامتهم؛ يتصدر التفاسير الإشارية كلها، لما اتسم به من مسحة أدبية تميز بها، ولعناية صاحبه بظاهر المعنى إلى جانب باطنه، ويليه تفسير التستري، الذي لا يقل قيمة عن لطائف الإشارات، لاهتمام صاحبه بظاهر المعاني إلى جانب باطنها، لكن الإيجاز والاختصار في هذا التفسير أتاح للطائف الإشارات التقدم عليه، وأحله المرتبة الثانية في التفاسير الإشارية.

أما تفسير السلمي "حقائق التفسير" فعلى الرغم من شغف عامة المتصوفة به، والإقبال على مطالعته، إلا أنه لا يعدو كونه جامع آثار وأقوال للسابقين من علماء التصوف ومشاهيرهم. وليس للسلمي بصمة في بتفسير آية منه.

ويظل تفسير ابن عربي محل قبول ورفض، وأخذ وردّ؛ لما يزخر من رموز مبهمة، وإيماءات غائمة، يعجز عن فهم أسرارها أكثر العلماء فضلًا عن عامة المسلمين، ولا يدركها إلا جهابذة السالكين لطريق التصوف. ويظل هذا التفسير كنزًا ثمينًا، ومنهلًا ثرًّا، ينهل منه طلبة العلم؛ لدراسة فيوضاته وإشاراته، وحل رموزه وإيماءاته. وينُصح العامة بعدم مطالعته؛ خوفًا من حمل بعض الإشارات على غير المقصد الذي أراده المفسر.

مخطط توضيحي للفصل الثالث وأقسامه

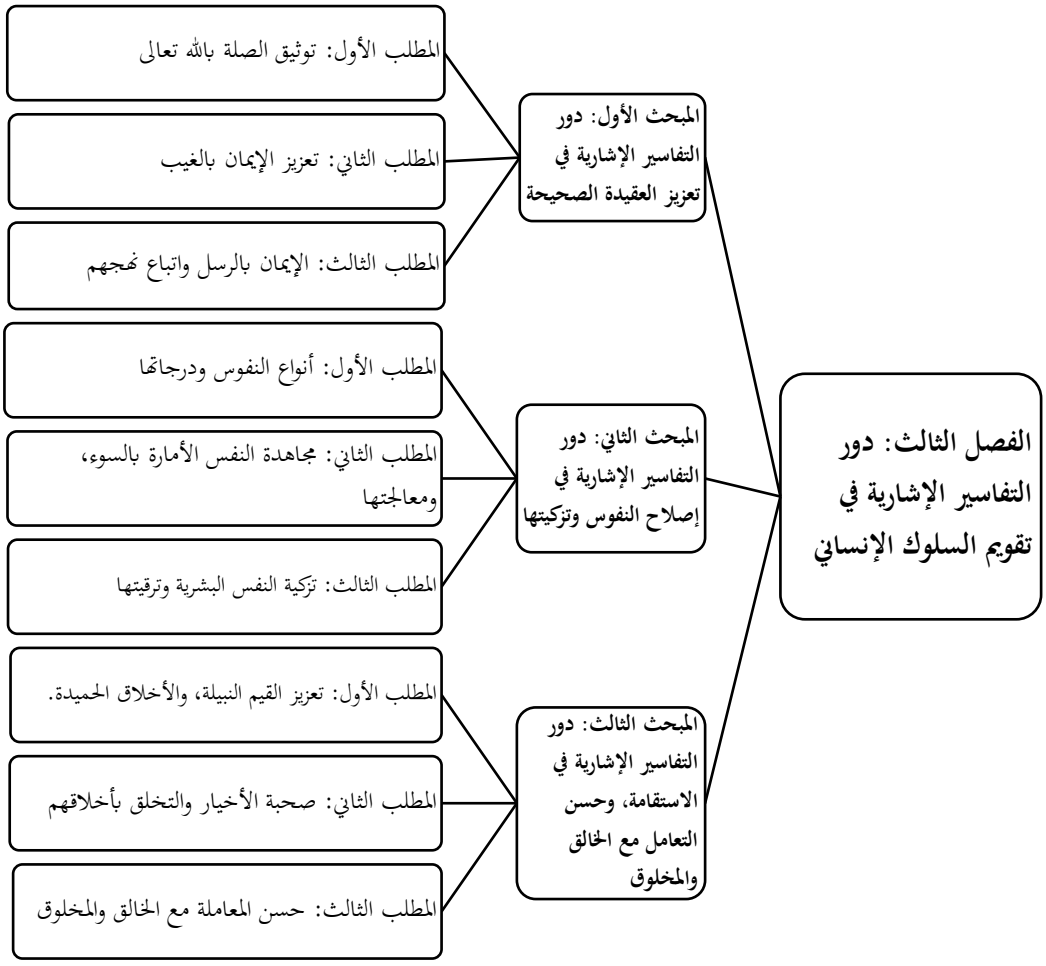

الفصل الثالث: دور التفاسير الإشارية في تقويم السلوك الإنساني

مازال القرآن الكريم هو المنهج الإلهي للإنسان وسلوكاته، في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالله –سبحانه– هو العالم الحق بما ينفع الإنسان وبما يضره ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[الملك:14]. هذا المنهج الذي يحمل في طياته كل شيء يتصل بالإنسان من مصالح دنياه وأخراه، يحتاج إلى من يكشف ما ينطوي عليه من أسرار، ويجلّي ما يتضمنه من أوامر ونواهٍ وحكم وعبر، ليجد المنارات المضيئة، التي يهتدي بها السائرون، ويستدل بها الحائرون إلى سواء الصراط.

وقد انبرى العلماء من سائر التخصصات لاستجلاء تفاصيل هذا المنهج، لغة، ونحوًا، وصرفًا، وفقهًا، وعقيدة، وكرسوا جهودهم لقراءة صفحاته، وبيان تفاصيل ماورد في ثناياها، من أركان الإيمان وأركان الإسلام؛ وهما ركنان من أركان الدين الثلاثة؛ وانبرى العارفون من علماء التصوف للركن الثالث، الذي يمثل الإحسان، للدلالة على السبل الموصلة إلى مرضاة الله، وبيان المقاصد والغايات، الرامية إلى استقامة السلوك الإنساني الذي يرضاه الله، ولكي يتذوق الإنسان طعم حلاوة الإيمان في الحياة، فيحسن التعامل مع كل شيء على منهج حكيم رسمه له الله، وهو ما ندب إليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ودعا إليه أصحابه ومن تبعهم بإحسان. لكي يسعدوا في الدنيا، ويفوزوا في الآخرة، حيث قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ يَكُنِ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ بِهِ فِي النَّارِ».[361]

[361] عبد الرزاق بن همام الصنعاني، **المصنف**، تحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات (القاهرة: دار التأصيل، 2013م)، 248/10، رقم21391.

المبحث الأول: دور التفاسير الإشارية في تعزيز العقيدة الصحيحة

لا يسعد الإنسان في هذه الحياة، ولا يستقر له عيش حتى يهتدي إلى العقيدة الصحيحة، وهي الإيمان بالله ومحبته، وبما جاء من عند الله والعمل بأحكامه، لأن ذلك هو منهج السعادة والهناء في الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97] الحياة الطيبة، والعيش الرغد، والسعادة كلها تنحصر في التعرف على الله، وفهم مرادات الله، فما خلق الإنسان إلا لعبادة الله وحده، وليتجرد من كل ميل أو هوى، ومن كل عقيدة تشوش عليه سعادته الأبدية. وقد حرص العلماء الربانيون على تَلَمُّس السبل، التي تعزز هذه العقيدة العزيزة الفريدة، واستنباط الإشارات التي تزيد إيمان العبد بربه، وبما يقربه إليه بطاعته، ليحيا الحياة الطيبة التي أرادها له الله جل في علاه.

المطلب الأول: توثيق الصلة بالله تعالى:

يسعى الربانيون من العلماء العارفين إلى توثيق الصلة بين العبد وربه، فيستنبطون الإشارات اللطيفة من الآيات القرآنية، يعززون من خلالها روابط المحبة والمودة في نفس العبد المؤمن، لكي يستأنس بالله تعالى، ويقبل على عبادته برغبة واهتمام. ولهم في ذلك أقوال كثيرة مثيرة، تبعث على التأمل المثمر، الذي يعزز عقيدة التوحيد؛ يقول سهل التستري: "من قال لا إله إلا الله فقد بايع الله، فحرام عليه إذ بايعه أن يعصيه في شيء من أمره، في السر والعلانية، أو يوالي عدوه، أو يعادي وليه".[362]

يركز الشيخ على العهد والميثاق، فكل من بايع الله بشهادة التوحيد ملزم بالطاعة التامة في سائر شؤون حياته، ولا يتحقق ذلك إلا بعقيدة الولاء والبراء، حيث يوالي ويحب من والى الله، ويبرأ ويعادي كل

[362] عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، 2004م)، 62. كحالة، **معجم المؤلفين**، 284/4.

من يحيد عن شرع الله. ويَقُولُ أيضًا: "حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْيَقِينِ، وَفِيهِ سُكُونٌ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَحَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ، وَفِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ".[363]

يتبين المؤمن من هذا القول مدى حقيقة التوحيد بالانتماء إلى الله وعبادته، فالإخلاص لله في السر والعلن أصل في محبته والإيمان به، فلا يجتمع في القلب محبوب مع الله، فإذا أحب العبد مولاه فلا يميل إلى سواه، ولا تسكن نفسه لأي من مكروهات الله، فالله عزيز غيور، لا يقبل من عبد أن يكون في قلبه أحد سواه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».[364]

لذلك يقف التستري -رحمه الله-عند قول الله -تبارك وتعالى-:﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ...﴾ [البقرة: 257] ليعزز هذه الرابطة من الصلة بين العبد وربه، فإذا أخلص العبد سريرته لله وحده، قابله الله -سبحانه- بالولاية والعناية والرعاية. فيقول: " في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ولاية الرضا، فهو المتولي لهم بما سبق لهم من هدايته ومعرفته إياهم على توحيده، وذلك لعلمه بتبرئهم من كل سبب إلا من خالقهم، فأُخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن الكفر والضلالة والمعاصي والبدع إلى الإيمان...".[365]

وهكذا يكشف -رحمه الله- عن مكافأة من آمن بالله، وأخلص دينه لله، ولم يؤثر عليه أحدًا سواه، حيث يتولاه الله، فيفيض عليه من أنوار الهداية، فيبصر الحق ويتبعه، ويرى الباطل فيجتنبه، وتغمره سعادة الإيمان، فتتوثق صلته بربه، ويلتذ بطاعته وذكره. ولا تنجلي البصيرة ولا يتحقق ذلك إلا بهبة كريمة، وفيض جزيل من الله:﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: 40].

---

[363] أحمد بن علي البغدادي الخطيب، **المنتخب من كتاب الزهد والرقائق**، تحقيق: عامر صبري (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2000م)، 59.

[364] مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الحج، 233/8، رقم 2985.

[365] التستري، **تفسير التستري**، 37.

وحينما سئل التستري عن قول الله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الأنعام :52] أراد أن يشير إلى شريحة من المؤمنين ويبين مدى تعلقهم بربهم، وحبهم له وثقتهم به، فيقول: "أي يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة...أزهد الناس أصفاهم مطعماً، وأعبد الناس أشدهم اجتهاداً في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه"[366]. إنه يربط حب المؤمن لربه، واستغراقه في ذكره، بالزهد في الدنيا، وطيب المطعم، والعمل الدؤوب بأحكام الله، وتمثل شريعته، ببذل النصيحة لكل مؤمن في هذه الحياة.

وعند قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:54]. نجد الإمام التستري يفيض في التحبيب بالله تعالى، ويبين مدى الرحمة التي يهبها –سبحانه– لعباده المؤمنين، الذين يتقربون إليه، بتوخي طاعته والعمل بمراضيه، والبعد عن نواهيه، فيروي عن النبي دواد–عليه السلام– مناجاة، يكشف من خلالها تحبب الله إلى خلقه، ملبيًا مطالبهم، واصفًا قربه منهم، واستجابته لهم؛ فيقول: "وقد حُكي لنا: أن الله –تعالى– أوحى إلى عبده داود عليه السلام: "يا داود من عرفني أرادني، ومن أرادني أحبني، ومن أحبني طلبني، ومن طلبني وجدني، ومن وجدني حفظني." يكشف لعباده أن من عرفه أحبه، ومن أحبه ووجده معه لا يتخلى عنه ولا يستبدله، ودل على سبيل هذه المحبة، معرفة فضله، ودوام ذكره.

ثم يروي شوق داود لربه، ورغبته في وصاله، فيسأل عن مظان وجوده، والمراضي التي يمكن أن يجده عندها، فيقول: "قال داود – صلوات الله عليه–: إلهي، أين أجدك إذا طلبتك؟ فقال: عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي. "فيدله الله على سر القرب إليه، وصفة العبد المحبوب لديه، إنه الذل والانكسار بين يديه، ودوام الافتقار والاحتياج إليه، والخشية من غضبه، والخوف من عقابه، ثم ينقل إلينا إيمان داود

[366] التستري، **تفسير التستري**، 61.

ويقينه على الله الذي بيده ملكوت كل شيء، حيث يطلب من ربه دواء قلبه الصادي، وروحه العطشى، ووجدانه الشغوف المتطلع إلى قرب ربه، فيقول: قال داود: "إلهي، أتيت أطباء عبادك للتداوي، فكلهم دلوني عليك، فبؤساً للقانطين من رحمتك، فهل لي وجه أن تداويني؟ فقال الله عزَّ وجلَّ: الذين أتيتهم كلهم دلوك علي؟ فقال: نعم. قال: فاذهب فبشر المذنبين، وأنذر الصديقين. فتحير داود فقال: يا رب، غلطت أنا أم لا؟ قال: ما غلطت يا داود. قال: وكيف ذلك؟ قال: بشر المذنبين بأني غفور، وأنذر الصديقين بأني غيور ...".[367]

من هذه المناجاة الطريفة التي ينقلها لنا التستري –رحمه الله– ندرك مدى عناية الله بخلقه، ورعايته لهم، فهو غفار لذنوب الخطائين، تواب على العصاة الغافلين، غيور على الصديقين المحبين، ينذرهم ويحذرهم حتى لا يتخذوا من دونه وكيلاً، ولا يجعلوا من دونه خليلًا، يطالبهم بدوام ذكره، وإخلاص سرائرهم له، وتكريس نواياهم في سائر أعمالهم له، ويبشرهم إن تخلوا عن الأغيار واستيقظوا من الغفلات، واستوحشوا من سائر الخلق والكائنات، واستأنسوا به في سائر الأوقات، أن لهم مكان القرب من نواله، ومقام الصدق عند جلاله.

وعند قول الله تعالى:﴿ ...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ ﴾[يوسف:18]. يقف سهل –رحمه الله– ليوضح الصبر الجميل، فيُجَمِّلَ مقام الصبر في تصور العبد المؤمن، بالتعرف إلى أفضال الله، وعوائده الحسنى، بحيث لو اطلع العبد على ما أعد الله من الكرامة للصابر الراضي بقضائه سبحانه، لرضي بمقدوره، بل سَعِدَ وسُرَّ بتدبيره؛ لذلك فهم سهل –رحمه الله– من الصبر الجميل، استدامة الرضا مع الصبر، وعندما سئل عن الرضا مع الصبر ما علامته؟ قال: " ألا يجزع فيه. فسئل: بأي شيء يحصل

---

[367] انظر: التستري، **تفسير التستري**،61. ورد هذا الحديث في كتاب **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، للأصبهاني، 32/4. وعبد الرحمن بن علي الجوزي، **صفوة الصفوة**، تحقيق: أحمد بن علي (القاهرة: دار الحديث، 2000م)، 293/2. وقال في **الحلية**: 364/2، إنَّ الحديث بين الله –عزّ وجلّ– ونبيه موسى عليه السلام.

التجمل بالصبر؟ قال: بالمعرفة بأن الله تعالى معك، وبراحة العافية، فإنما مثل الصبر مثل قَدَحٍ أعلاه الصبر وأسفله العسل..."[368]

إنه يوضح الصورة الحقيقية لواقع الحياة الإنسانية، الغائبة عن إدراك الجاهلين، السادرين في مَهَامِهُ[369] الغفلات، والهائمين في وديان الشهوات، والمستغرقين في أطباق السُبات، يريد أن ينبههم إلى حقيقة ثابتة في الوجود، وهي أن ما بعد الضيق إلا الفرج، وما بعد العسر إلا اليسر، وما بعد الصبر إلا وافر الأجر، وأن الله دائمًا مع الصابرين، لا يتخلى عنهم، يصيبهم لكي يلتجئوا إليه، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب، فكون الله معهم على كل أحوالهم، لا يغفل عنهم، ولا يفارقهم عند مصابهم، يتطلب منهم توثيق العلاقة به؛ بكثرة ذكره، والضراعة إليه، فما يصيب الله العبد إلا ليسمع ضراعته، ولا يبتليه إلا ليرفع قدره، فإذا فهم العبد هذه المعادلة، سجد قلبه لله حبًا، وخضع لمقدوره راضيًا. لأن ما يكون في ظاهره شرٌّ ربما كان في الحقيقة هو محض الخير، وكثير من نواميس الكون قائمة على مدلول قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ...﴾ [البقرة:216].

وفيما يقصه الله علينا من خبر إبراهيم الذي رزق الولد بعدما طعن في السن، وبلغ الشيخوخة من العمر، ومال قلبه بفطرته إليه، وزاد حبه له عندما بلغ معه السعي، وزانته نضرة الشباب، رأى في المنام أن يذبح ولده، وعلم أنها رؤيا حق، وعزم على تنفيذ أمر ربه، وأخبر ولده الذي تربى على الانصياع لأحكام الله، واستجاب الولد لمطلب أبيه، واستسلما لأمر الله، وباشرا تنفيذه، ولكن السكين تعطلت خاصيتها، ويد الوالد عجزت عن قطع وتين الولد، وجاء النداء من السماء: ﴿وناديناهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ

---

[368] التستري، **تفسير التستري**، 81.

[369] مهامه: ومفردها مهمهة، القفر من الأَرْض والمفازة بعيدة. انظر: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، مادة (م و م و)، (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م)، 224/1. أحمد مختار، بمساعدة فريق عمل، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، مادة (م ه م ه)، 2134/3.

الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:104، 105]، هنا يقف الإمام التستري ليستنبط إشارة لطيفة، يعزز من خلالها عقيدة التوحيد، بإخلاص الحب لله وحده، فلا يقبل –سبحانه– شريكًا معه في قلب عبده.

فيقول: "لما أحب إبراهيم – عليه الصلاة والسلام– ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته، حتى أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلص السِّرُّ له، ورجع عن عادة الطبع، فداه بذبح عظيم". [370] والمتأمل في هذه الإشارة التي عرضها الشيخ عند هذه القصة القرآنية، يتعرف إلى عوائد الله، فيلزم قلبه التعلق به وحده دون سواه.

كما نجد الإمام القشيري–رحمه الله–يستنبط إشارة لطيفة من قوله تعالى: ﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾[البقرة:144]. حيث يدعو المؤمن أن يصرف قلبه كله إلى الله، ولا يجعل التعلق بغيره من الكائنات، فهو وحده أحق أن يوجه القلب إليه، ولا يلتفت إلى غيره، فيقول:"ولكن لا تعلّق قلبك بالأحجار والآثار، وأفرد قلبك لي، ولتكن القبلة مقصود نفسك، والحقّ مشهود قلبك، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره، ولكن أخلصوا قلوبكم لي، وأفردوا شهودكم بي."[371]

نجده ينقل القارئ من المحسوس الملموس إلى المعنى المجرد، من توجه المصلي بوجهه إلى الكعبة المشرفة في صلاته، ينقلنا إلى توجه القلب، إلى رب الكعبة، إلى الله –سبحانه وتعالى– في كل أحايينه، لأنه هو وحده المستحق بالتوجه إليه دون غيره، ولأنه المنعم، المتفضل بالنعم على سائر الكائنات؛ ولأن منه الإيجاد والإمداد، فهو الذي أوجد الكائنات، وأمدها بأسباب الحياة.

---

[370] التستري، **تفسير التستري**، 131.

[371] القشيري، **لطائف الإشارات**، 134/1.

كما نجده يقف عند الآية الكريمة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحِدٌ لا إِلَٰهَ إِلَّآ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:163] ليعزز الصلة الوثيقة بين العبد وربه، بإشارة لطيفة ترفع من قدر المؤمن بانتسابه إلى الله – جلَّ في علاه– حيث يقول – رحمه الله–: "شرّفهم غاية التشريف بقوله ﴿وإلهكم﴾. وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا: علامة من يعدّه من خاصّ الخواص أن يقول له: عبدي ...".[372]

ففي كاف الخطاب المتصلة بالله، –سبحانه– هذه النسبة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ يرتقي بها العبد المؤمن من طين التعلقات بصور الكائنات، إلى سمو الذات، بانتسابه إلى إله الأرض والسموات، فيجد نفسه قريبًا من خالقه، مكرمًا معززًا بانتسابه إلى بارئه، يُشرف بعبوديته له، وانتمائه إليه.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ﴾ [البقرة:148] يقف الإمام القشيري، ليقول على لسان الحضرة الإلهية: "إنّ كل قوم اشتغلوا عنّا بشيء حال بينهم وبيننا، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبنا."[373] يشير إلى خطاب المولى –سبحانه– ودعوته عباده الصالحين إلى الاستباق إليه، والمسارعة إلى مرضاته، وكأن القشيري يعزز قضية انتماء المؤمنين إلى مولاهم، وقربهم من بارئهم، فلكل قوم وجهة يتجه إليها، وقد اشتغل كلٌ بها بقلبه وروحه، وكانت وجهة المؤمن خالصة لخالقه وبارئه.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...﴾ [البقرة:186] يقف القشيري متأملًا الخطاب الإلهي الذي يفيض بالحب والقرب، ويوحي بالود والعطف، فيستنبط من هذا الخطاب إشارات تدعو العبد إلى توثيق صلته بالله تعالى، وتغريه بأنسه والتوجه إليه، فيقول على لسان الحضرة الإلهية: " أي إذا سألك عبادي عني فبماذا تجيبهم؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد، فأنت وإن كنت السفير بيننا وبين الخلق، فهذا الجواب أنا أتولاه ﴿فَإِنِّي

---

[372] القشيري، **لطائف الإشارات**، 143/1.

[373] القشيري، **لطائف الإشارات**، 135/1.

قَرِيبٌ﴾، رفع الواسطة من الأغيار عن القربة ..."[374]. فهو قريب بسمعه وبصره، يجيب دعوة كل داع، مهما كان حاله، وعلى أية صفة، يجيبه ويلبيه، ويخص المؤمن بالنصرة والمؤازرة، وبالمودة والمحبة.

ويقفَ أَبُو عُثْمَان الحيري[375]عند قَوْله عَزَّ وَجَلَّ:﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ...﴾ [العنكبوت: 5] فيبشر المحبين بالقرب، ويستنبط إشارة لطيفة، يترجم من خلالها لواعج شوق المحبين المتلهفين إلى لقاء الله، فيدعوهم لترقب لقاء محبوبهم، وقرب وصولهم إليه، فيقول: "هَذَا تعزية للمشتاقين معناه: أني أعلم أَن اشتياقكم إِلَي غالب، وأنا أجَّلت للقائكم أجلًا، وعن قريب يَكُون وصولكم إِلَى من تشتاقون إِلَيْهِ".[376]وهكذا يسعى الحيري إلى طمأنة المحبين المولهين، الذين لوعتهم حرقة الشوق إلى لقاء محبوبهم، فينقلهم إلى فضاء الآمال بقرب الوصال، فتزداد ثقتهم بربهم، ويزداد إقبالهم على ذكره والاشتغال بطاعته.

ولكنَّ أبا مُحَمَّد الجريري[377]يستنبط من قول الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] إشارة يحذر من خلالها كل من تتعلق أنفسهم بأسباب الدنيا، فينهمكون في غمرات اللذات، ويهيمون في وديان الشهوات، ويغفلون عن حقيقة وجودهم، ووظيفة

---

374 القشيري، **لطائف الإشارات**، 156/1.

375 هو سعيد بن إسماعيل هو أبو عثمان الحيري –رحمه الله– نيسابوري، منه انتشر طريق التصوف بنيسابور، قال عبد الله بن محمد الرازي: لقيت الجنيد ويوسف بن الحسن وغيرهم، من المشايخ فلم أر أحدا أعرف بالطريق إلى الله من أبي عثمان. انظر: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، **سير السلف الصالحين**، تحقيق: كرم بن حلمي بن فرحات (الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، د.ت)، 1118/3.

376 القشيري، **الرسالة القشيرية**، 499/2.

377 أبو محمد الجريري، الزاهد. قيل: اسمه: أحمد بن محمد بن حسين. وقيل: عبد الله بن يحيى. لقي السَّرِيَّ السَّقَطِيَّ والكبار، ورافق الجنيد، وكان الجنيد يتأدب معه، وإذا تكلم في شيء من الحقائق، قال: هذا من بابة أبي محمد. فلما توفي الجنيد، أجلسوه مكانه، وأخذوا عنه آداب القوم. حج في سنة إحدى عشرة، فقتل في رجوعه يوم وقعة الهبير، وطئته الجمال النافرة، فمات شهيدا، سنة 12هـ وهو في عمر التسعين. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 467/14.

حياتهم، فيَقُول –رحمه الله–: " من استولت عَلَيْهِ النفس صار أسيرا فِي حكم الشهوات، محصورا فِي سجن الهوى، وحرَّم اللَّه عَلَى قلبه الفوائد..."[378]

فكل إنسان منوط بحال يتوافق مع قابليته، ويتجانس مع مقاصده؛ فمن كانت رغبته الدنيا ومتاعها وغرورها، يصرفه الله عن سعادة الدنيا والآخرة، ويحرمه لذة المناجاة، وسعادة ذكره لمولاه، فيعيش في الدنيا حياة الضنك والشقاء، وتكون عاقبته الخيبة والخسران. أما من أخلص قلبه لله، وتوجه إليه بكل مشاعره ومواجده، فإن الله معه يتولاه، ويجيب دعاءه ولا ينساه.

أما أبو عبد الرحمن السلمي –رحمه الله– فيتأمل قول الله –تعالى–:﴿والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما﴾[الفرقان: 64]؛ ليلتقط إشارة تصور حال المولهين المحبين من العباد الصالحين، وكيف يقضون ساعات أعمارهم في لذة الطاعات، وسرور المناجاة، وما يعتريهم من المواجد والأشواق آناء التسابيح والأذكار، فمن قَلَّت آفاتُه اتَّصلَت بالحقّ أوقاتُه، فيقول: " أَقَتُوا أوقاتهم في الخدمة، تلذذا في المناجاة، وتقربا إلى الله، وتحببًا إليه، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– حاكيا عن ربه « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[379]. وهكذا نجد السلمي يُشَوِّق المؤمن للتقرب لحضرة الحق، بمداومة الذكر، واستغلال العمر بأفعال الخير، ليتسنى له ذوق حلاوة الإيمان، بمعرفة الله، وتوثيق الصلة به.

وسُئِلَ أَبُو الْحسن بن الصائغ[380] عَن صفة المريد الذي يسلك طريق أهل الله، وينتسب إلى حضرة مولاه، فَقَالَ:" صفته مَا قَالَ الله عز وَجل: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِم الأَرْض بِمَا رَحبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِم أنفسهم ...﴾ [التوبة: 118] وعقب على ذلك بقوله: "من توالت عَلَيْهِ هموم الدُّنْيَا، فليذكر هَمًّا

---

[378] القشيري، **الرسالة القشيرية**، 102/1.

[379] السلمي، **حقائق التفسير**، 68/2. انظر: تمام الحديث في **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، للمتقي الهندي، 770/7، رقم:21327.

[380] أَبُو الحسن الصَّائِغ الدينَوَرِي، واسْمه عَليّ بن مُحَمَّد ابْن سهل، كَانَ من كبار الْمَشَايِخ، أَقَامَ بِمصْر وَمَات بهَا، وَكَانَ من المعاملين المخلصين فِي الْمُعَامَلَة، انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 241.

لَا يَزُول ليستريح مِنْهَا."[381] أراد أن يصور حال المريد الصادق، الذي يسلك طريق التصوف، فنقل السائل إلى جو هذه الآية الكريمة، ليعلم أن من اتسعت آفاقه، وتنورت بصيرته، فعرف حقيقة الوجود، وأن هذه الحياة الدنيا ضيقة الآفاق، كثيرة الهموم والأحزان، لا ينعتق الإنسان من أسرها، ولا يتحرر من ربقة قيودها، إلا باللجوء إلى الله في سائر شئونه، فيجعل أنسه بالله وحده، ويفرده في وجدانه، لأن الْأنس بِاللَّه نور سَاطِع، والأنس بالخلق غم وَاقع، فيجعل هم الآخرة بين عينيه، وهموم الدنيا خلف ظهره، ويتمثل قول النبي –صلى الله عليه وسلم–:«مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ، جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ»[382] عندئذٍ تزول هموم الدنيا عن العبد الصادق، مهما كانت غمراتها، ويستريح قلبه من عنائها، فيسعد على كل حال، ويرضى بكل مقدور.

أما إِبْرَاهِيم الخواص[383] فقد استنبط من قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْمُنَافِقِين: 29] فهمًا لطيفًا يبعث العزة في النفس، والنشوة في الروح، ويدفع المؤمن لتوثيق الصلة بالله، والانتماء إليه، فقال: "على قدر إعزاز الْمُؤمن لأمر الله يلْبسهُ الله من عزه، وَيُقِيم لَهُ الْعِزّ فِي قُلُوب الْمؤمنِينَ".[384] فقد أناط علو المنزلة في الدنيا، وحسن المكانة في قلوب الناس، بتوثيق الصلة بالله، وربط القلب بتوحيده، والعمل بأحكامه وشرائعه. وقد جعل –رحمه الله– حقيقة المعيشة في الحياة عسرها ويسرها، وحلوها ومرها، مرهون بالقلب الذي يَشْرُفُ بانتسابه إلى الله، ويسقط ببعده عن الله. وله فهم عجيب عند قول الله –عز شأنه– ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدُّخان: 32]. فهو

---

[381] السلمي، **طبقات الصوفية**، ص241

[382] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 467/35، رقم: 21590.

[383] هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، وكنيته أبو إسحاق، كان من أقران الجنيد، له مقامات في الرياضات، مات في جامع الري، قيل: مرض بالري في مسجد الجامع، وكان به علة القيام، وكان إذا قام يدخل الماء يغتسل ويعود إلى المسجد، ويركع ركعتين، فدخل مرة الماء ليغتسل فخرجت روحه وهو في وسط الماء. انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 220. الأصبهاني، **سير السلف الصالحين**، 1324/4.

[384] السلمي، **طبقات الصوفية**، 222.

يصف اختيار الله لعباده مبني على سابق علم بما يكون منهم من نقائص أو عيوب، وما يبدر عنهم من مخالفات أو ذنوب، فالله –سبحانه– عليم بأحوال عباده، خبير بسلوكاتهم وطبائعهم؛ يقول–رحمه الله–: الْخَتَّار من الْخَتَّار من عباده لَا لسابقة لَهُم إِلَيْهِ، بل لإِرَادَة لَهُ فيهم ثمَّ علم مَا يخرج مِنْهُم وَمَا يَبْدُو عَلَيْهِم ..."[385]. فمراده –سبحانه– سابق لما عليه الخلق من الخطأ والزلل، وهو الذي ارتضاهم لنفسه عبادًا، وقبلهم على ما فيهم من نقائص وعيوب، ما يدعو العباد إلى الأمل بالقبول عند الله على ما يقترفونه من الخطايا والذنوب، ويعزز لديهم توثيق الصلة بالله، وعدم اليأس من فضله ورحمته.

ولايفوتنا في هذا المقام الوقوف عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ...﴾ [فاطر: 32] لندرك مدى مَنّ الله وكرمه، وسعة عفوه وجوده؛ وأنه اصطفى أصنافًا ثلاثة من عباده: منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات؛ وكل من هذه الأصناف مشمول بفضل الله الجليل، وعفوه الجزيل، حيث أذن لهم بدخول الجنات، والتنعم بعيشها الرغيد.

من أعجب ما يدعو العبد للتعلق بربه، ويعزز الثقة به، ماورد من لطائف الإشارات التي يسوقها الشيخ محي الدين بن عربي عند وقوفه على معنى الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15] حيث يجعل افتقار الخلق بكل شيء مرده إلى الله سبحانه، وأن الله لا يرد طالبًا، ولا يصد قاصدًا؛ فيقول:" وكأن الحق يقول للناس: ذلك الافتقار الذي تجدونه في أنفسكم متعلقه الله لا غيره..."[386] وكأن الشيخ –رحمه الله – يوقظ النفس الغافلة عن النعم التي يسديها الحق– سبحانه– إلى خلقه في كل حَرَكَةٍ وسَكَنَةٍ، مع كل نَفَسٍ، ومع كل لقمة طعام، أو جرعة ماء، ليتحقق

---

[385] السلمي، **طبقات الصوفية**، 222.

[386] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 446/3.

العبد المؤمن بحال الافتقار التام إلى بارئه ومولاه، فيأوي إليه من باب الذل والانكسار، والفقر والاضطرار، متبرئًا من حوله وطوله، وعلمه وفهمه، وعزمه وقوته.

كما يقف الشيخ عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115] ليقرر حقيقة إيمانية وهي أن الله –سبحانه–حاضر لا يحتجب عن خلقه، ولا يغيب عنهم، فكل من يتوجه إليه بقلب صادق، وروح نقية، يجده تجاهه، ويقول: "هذه حقيقة منزهة بلا خلاف، فإن الله – جل جلاله– عن التقييد، فهو قبلة القلوب، فوجه الله موجود في كل جهة يتولى أحد إليها، ولا بد لكل مخلوق من التولي إلى أمر ما ..."[387]. وهكذا نجده في هذه الإشارة يحبب الخلق إلى خالقهم، ويدعوهم للتوجه إليه بكليتهم، لأنه دائمًا معهم لا يتخلى عنم، يحوطهم بواسع رحمته، على أي حال من أحوالهم. يجيب دعوة المضطرين، ويغيث المكروبين، ويسعف الملهوفين، بغض النظر عن سلوكاتهم وأخطائهم وخطاياهم.

وعندما يتأمل قول الله –جل في علاه–: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ...﴾ [البقرة:186] نجد له استنباطًا طريفًا يقرب العبد من ربه ويوثق علاقته به، فيضع العبد في ساحة القرب من الربِّ، حتى إذا سأله أجابه، لا يرده ولا يخذله، يحقق مراداته وآماله، ويبلغه مقاصده وغاياته، يقول الشيخ: "إن الله تعالى ما أخبر نبيه بقربه من السائلين من عباده إلا ليُعْرَفَ بثلاثة أمور: هي القرب والسمع والإجابة، فلم يترك لعبده حجة عليه..."[388]

نعم فكل من تحقق بقرب الله منه لا يلتفت إلى سواه، ولا يستجدي غيره، فهو الملاذ الآمن، والملجأ المكين، فلربما حجب السائل عن حاجته رحمة به، لأن السائل لا يدري عواقب الأمور، ولا يراها كما يراها ربه الرحيم، فلربما كانت في الرغبة ندامة، تعقبها حسرة.

---

[387] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 179/1.

[388] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 266/1.

لذلك يسلم المؤمن مقاليد الأمور إلى الحكيم العليم، ويرضى بما دبر له وأعطاه، أو منعه وحجب عنه، ففي العطاء نعمة وفضل، وفي المنع رحمة وعدل.

وعند قول الله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ [محمد:11] يستنبط الإمام التستري -رحمه الله- إشارة تقرب العبد من ربه، وتحببه بخالقه فيقول: " ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالرضى والمحبة والحفظ على مقام القرب."[389] وكأنه ينبه التالي لهذه الآية ليتدبرها، ويوقظه من غفلته، ليتأمل رحمة الله ولطفه بعباده، لكي يتجه إلى مولاه الذي يتولاه بالمحبة والرضى، والأنس والقرب؛ فيوثق الصلة به، ويزداد قربًا منه، ويداوم على طاعته .

ويؤيد القشيري هذا الفهم ويزيد عليه من آفاق الأمل والرجاء لعامة الموحدين، الذين يشهدون لله بالوحدانية، على ما هم عليه من تقصير، وغفلات ومخالفات، فالله وليهم على كل الأحوال. يقول- رحمه الله-:"...ويصح أن يقال إنّ هذه أرجى آية في القرآن، ذلك بأنه -سبحانه= يقول: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولم يقل: مولى الزهّاد والعبّاد وأصحاب الأوراد والاجتهاد..."[390]. إشارة نورانية تبعث في نفس المؤمن التفاؤل بالقبول عند الله، والأمل بالفوز في الآخرة، فمن باشر الإيمان شغاف قلبه، فالله وليه وحبيبه على ما كان منه.

ويأتي الإمام الرازي ليستنبط من الآية المباركة السالفة إشارة، يحرض المؤمن من خلالها على توثيق صلته بالله، بكثرة الطاعات، والاجتهاد في العبادات، وإخلاص العمل لله وحده، ليكون قريبًا منه، فيتولاه برحمته وفضله، ويرعاه بإحسانه وجوده؛ يقول رحمه الله: "وَأَقُولُ: الْوَلِيُّ هُوَ الْقَرِيبُ فِي اللُّغَةِ فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ

---

[389] التستري، **تفسير التستري**، 145.

[390] القشيري، **لطائف الإشارات**، 406/3.

قَرِيبًا مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ طَاعَاتِهِ وَكَثْرَةِ إِخْلَاصِهِ، وَكَانَ الرَّبُّ قَرِيبًا مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ فَهُنَاكَ حَصَلَتِ الْوِلَايَةُ".[391]

ويقف أبو طالب المكي عند قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة: 54] يعزز صلة العبد المؤمن بربه، فيدعوه لتقديم محاب الله على محابه، وشئون الآخرة على شئون الدنيا فيقول: "ومن علامة محبة المولى تقديم أمور الآخرة من كل ما يقرَّب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس...ثم إيثار محبته على هواك واتباع رسوله فيما أمرك به ونهاك" [392]. وهذا هو الميزان الدقيق لمعرفة حقيقة محبة العبد لله سبحانه، فالمنهج الذي ينبغي أن ينتهجه المؤمن المحب هو طاعة محبوبه، وتقديم أمره على كل أمر.

ولعل للحارث المحاسبي فهم قريب مما نقل عن أبي طالب المكي، حيث يَقُول: "المحبة ميلك إِلَى الشيء بِكُلِّيَتِكِ، ثُمَّ إيثارك لَهُ عَلَى نفسك وروحك وَمَالِك، ثُمَّ موافقتك لَهُ سرًا وجهرًا، ثُمَّ علمك بتقصيرك فِي حبه" [393]. دليل حب العبد لله ميله إليه بالكلية، وعلاوة على ذلك شعوره الدائم بتقصيره في جنبه. وكان من دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم–وهو ساجد: «... لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ. أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[394] وذلك إقرار بالتقصير في جنب الله، وشعور بالعجز عن إدراك منتهى حمده سبحانه.

وهكذا يبدو لكل من يتأمل الإشارات السالفة الذكر، أن السادة الصوفية كانوا يحرصون على ترغيب الناس بالإقبال على الله –سبحانه– والعمل بمقتضى حكمه وتوثيق الصلة به، من خلال إشارات

---

[391] محمد بن عمر بن الحسن، فخر الدين الرازي، **مفاتح الغيب = التفسير الكبير** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، 431/21.

[392] محمد بن علي المكي، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426 هـ)، 88/2.

[393] القشيري، **الرسالة القشيرية**، 490/2.

[394] مالك بن أنس، **الموطأ**، 299/2، رقم:725.

يلتقطونها من الآيات القرآنية التي يخاطب الله بها عباده، كي يعملوا بمقتضاها، فيسعدوا بالوصال، وينالوا الرضا والقبول. ويتبين لكل منصف أن علماء الصوفية يعززون ثقة العبد بربه، ويحذرونه من الغفلة والغَيْبَة عن حكمة وجود هم في هذه الحياة.

المطلب الثاني: تعزيز الإيمان بالغيب:

الإيمان بالغيب أصل من أصول الدين، لا ينفك عنه مؤمن، يصدق بما جاء في كتاب الله، وبما أخبر الرسول عن ربه، وقد وردت الأخبار المتواترة في الكتاب والسنة، تكشف سجف المجهول عن معالم بعض الغيب، كالجنة والنار، والميزان والصراط، وعالم البرزخ، والبعث والنشور بعد الموت، والحشر والحساب، وكل هذه المغيبات لا يدركها المرء بحسه، ولا يراها ببصره، ولا يصغي لما فيها بسمعه. ولكن هذا الإيمان قد تخامره الخواطر، وتشوبه الكوادر، فلا تطمئن القلوب إلا باليقين، ولا تسكن إلا ببلوغ حق اليقين ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة:260] عند ذلك يصدق المؤمن جازماً بالغيب، ويوقن بكل ماورد في الكتاب الذي ليس فيه ريب، ويثق بكل ما أخبر به الصادق المصدوق عن ربه.

وقد اجتهد العلماء العارفون، والأولياء الصادقون بتعزيز الإيمان بالمغيبات، فبدرت منهم لوامع الإشارات، التي يمكن أن يستلهم منها المؤمن معالم الغيب، فيزداد إيمانه، ويقوى يقينه، وكأنه يرى ويسمع، ويعيش بروحه كل عوالم الغيب. قال عبد الله بن خبيق:[395] "لَا يسْتَغْنى حَال من الْأَحْوَال عَن الصدْق، والصدق مستغن عَن الْأَحْوَال كلهَا، وَلَو صدق العَبْد فِيمَا بَينه وَبَين الله حَقِيقَة الصدْق، لاطلع على خَزَائِن من خَزَائِن الْغَيْب، ولكان أَمينا فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض"[396]، وهنا يربط ابن خبيق-رحمه الله- بين

[395] عَبْد اللَّهِ بْن خبيق، من الزهاد المتصوفة، صحب يُوسُف بْن أسباط، كَانَ كوفي الأصل، ولكنه سكن أنطاكية، وطريقته فِي التصوف طَرِيقَة النوري، فَإِنَّهُ صحب أَصْحَابه، وَأسْندَ الحَدِيث...، انظر: ابن الملقن، **طبقات الأولياء**، 338.

[396] السلمي، **طبقات الصوفية**، 122.

صدق العبد وصفاء سريرته وبين استشراف عوالم الغيب، وخزائنه التي حجبها الله عن خلقه إلا من ارتضى منهم: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدا﴾ [الجن: 26-27].

ولكن الرسل يقرون بعجزهم عن إدراك الغيب، ويعلنون جهلهم بخفاياه، فعندما يسألهم ربهم عن استجابات أممهم لدعواتهم، يكلون العلم إليه، وينفون علمهم بالسرائر وما تخفي الضمائر، وينقل لنا ربنا هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة فيقول –سبحانه وتعالى–: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قالُوا لَا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [109] وهنا يلتقط الإمام التستري إشارة لطيفة من هذه الآية، فيقول: " يعني لا علم لنا بما كان في قلوبهم من الإيمان بك وغيره، إنما علمنا بما أظهروه من الإقرار باللسان "[397]. لقد فهم –رحمه الله– أن السؤال عن أحوال الأمم في استجابتها يتعلق بالنوايا والضمائر، وهذه من الخصوصيات الغيبية التي لا يعلمها إلا الله. وعندما عجب بعض من سمع هذه الإشارة، وسأل الشيخ مستفهمًا: يطالبهم بحقيقة ما في قلوب الأمة؟ فاستدرك موضحًا: "لا، وإنما وقع السؤال بنفسه إياهم عن حقيقة الظاهر الذي لا يظهر إلّاّ بحقيقة الباطن، فأجابوا بالإشارة إلى رد العلم إلي "[398].

وهنا يكشف الشيخ عن قضية إيمانية، وهي أن مظاهر الإيمان لا تقبل من العبد حتى تتوافق مع سريرته، لذلك يعد النفاق عند الله من أقبح الخصال، وهو أشد من الكفر الصريح. فالرسل في هذا المشهد يتبرؤون من العلم بمكنون القلوب، ويكلون ذلك إلى الله العالم بدقائق الغيوب، الذي لا يظهر على غيبه أحدًا من خلقه، إلا بنطاق محدود.

ولكن الإمام القشيري له فهم آخر عند هذه الآية، حيث يرى أن الملك الجبار يتجلى على الأنبياء بالجلال في هذا المقام، فيُذْهَلُ الأنبياء، ويُحالُ بينهم وبين التبسط بالقول، ويُرْتَجُ عليهم، فلا يستطيعون

---

397 التستري، **تفسير التستري**، 60.

398 التستري، **تفسير التستري**، 60.

الإفصاح عن إجابة للسؤال؛ يقول –رحمه الله–: " يكاشفهم بنعت الجلال، فتنخنس فهومهم وعلومهم، حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق، ويقولون: ﴿لا عِلْمَ لَنا ﴾ وهكذا تكون الحالة غدًا: من قال لشيء، أو مال لشيء مما يكون نعتًا بمخلوق، فعند ظهور وابل التعزّز تتلاشى الجملة، فالملائكة يقولون: «ما عبدناك حق عبادتك» والأنبياء يقولون: ﴿لا عِلْمَ لَنا﴾.[399]

فأمام جلال الواحد الأحد تنمحق الأغيار، وعند انبعاث النور تنهزم جحافل الظلام، وهكذا يتجلى الحق ويظهر، فيتلاشى الباطل ويزهق.

وحينما يكون إيمان العبد بالغيب متمكنًا في وجدانه تهون عليه مصائب الدنيا، فلا يأسف على ما فاته منها، ولا يفرح بما فتح عليه، لعلمه أن الله بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، وهو العليم بمصالح خلقه، الحكيم في تدبير شئونهم، فكسبهم مرهون بمشيئته، وسعيهم منوط بإرادته.

وعند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:3] يقف سهل التستري –رحمه الله– ليستنبط إشارة لطيفة يعزز من خلالها الإيمان بالغيب فيقول: " فالمتقون الذين يؤمنون بالغيب، فالله هو الغيب، ودينه الغيب، فأمرهم الله – عزَّ وجلَّ– أن يؤمنوا بالغيب، فيتبرؤوا عن الحول والقوة، فيما أُمروا به ونهوا عنه؛ اعتقاداً وقولاً وفعلاً..."[400]

فمتأمل هذه الإشارة عند تفسير الآية يقوى يقينه بالله، ويرضى بمقدوره، ويتبرأ من حوله وقوته، ويلجأ إلى كنف الله وحمايته، معتقدًا أن عمله الصالح بشتى أنواعه مهما حسن، فإنما هو بتوفيق من ربه، وتيسير من خالقه، وأما كفه عن المعاصي والآثام، والوقوف عند حدود الله تعالى، فإنما هو حفظ وعصمة من فضله وكرمه.

---

[399] القشيري، **لطائف الإشارات**، 453/1.

[400] التستري، **تفسير التستري**، 26.

كما يقف الإمام التستري عند قوله- جل شأنه-: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ...﴾[الأعراف: 185]. فيتأمل افتقار الخلق إلى الخالق، واحتياجهم في كل أحوالهم إليه، وهم لم يشهدوا ما يدبر لهم من قبله، وما يعد لهم في عالم غيبه من فواضل نعمته ورحمته، في سائر أحوالهم السارة والضارة، ولو اطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع، فيقول: " ذكر الله تعالى قدرته في خلقه ووصف حاجتهم إليه، وما خلق من شيء سمعوه ولم يروه، فاغتروا به، ولو شاهدوا ذلك بقلوبهم لآمنوا بالغيب، فأداهم الإيمان إلى مشاهدة الغيب الذي غاب عنهم..."[401]. وهكذا نجد التستري-رحمه الله-يدعو المؤمنين لتوثيق إيمانهم بربهم، وتعزيز ثقتهم به، ليستشرفوا سجف الغيب، وتدرك بصائرهم منازل المقربين، ويكون لهم شرف الهداية، فيهتدوا ويهدوا.

وأما الإمام القشيري فعند تفسير الآية السالفة الذكر نجد له فهمًا آخر للإيمان بالغيب، حيث يفرق بين من يؤمن بالغيب عن علم واطلاع، ببرهان العقل، والاستقراء والاستدلال، وبالتقصي والاعتبار، ومن كوشف بالمعارف والأسرار، وتجلت في قلبه لوامع الأنوار، وشتان بين من تواردت إلى قلبه شوارد الريب، وخواطر الظنون، وبين من أشرقت في نفسه شموس الأسرار، فاستغنى باليقين عن الأدلة والشواهد، حيث يقول -رحمه الله-: "إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب، وأن من أُيّدوا ببرهان العقول، آمنوا بدلالة العلم، وإشارة اليقين، فأوردهم صدق الاستدلال ساحات الاستبصار..."[402]

ومتأمل هذه الإشارة يسمو بروحه، فتنعتق من ظلمات الناسوت، وتطوف في آفاق الملكوت، تتلمس السبيل الأمثل لاستشراف لوامع أسرار الغيب، فيقوى لديه اليقين، وكأنه رأي عين، ويتمكن في وجدانه الإيمان بالغيب، فيتحقق بكل ما جاء به الأمين عن رب العالمين.

---

401 التستري، **تفسير التستري**، 70.

402 القشيري، **لطائف الإشارات**، 56/1.

عند ذلك يستغني بالصباح عن المصباح، وباليقين عن الحيرة والشتات؛ فتغدو النفس مطمئنة، والروح مستقرة. والسريرة واثقة بموعود الله سبحانه، تبتغي رضوانه، وتتشوف إلى لقائه.

أما عند الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ...﴾ [هود:123] فنجد الإمام القشيري يوجه فكر القارئ إلى الثقة بالله، وحسن الظن بمراده، والأمل بسعة رحمته، وترويض النفس على لوازم عبوديته، لتقوى روابط الإيمان بالغيب وبما أسَرَّهُ الله عن خلقه، وأخفاه عن عباده، فيُسْلِم المؤمن وجهه لله، ويطمئن لموعوده. يقول –رحمه الله–:"عَمَّى عن قلوبهم العواقب، وأخفى دونهم السوابق، وألزمهم القيام بما كلَّفهم في الحال، فقال: «فَاعْبُدْهُ» فإن تَقَسَّمَ القلب، وتَرَجَّم الظّنّ، وخيف سوء العاقبة فتوكّل عليه، أي استدفع البلاء عنك بحسن الظّنّ، وجميل الأمل، ودوام الرجاء"[403]. هنالك عندما يدرك المؤمن أنه عبد لله مملوكه، بيده ضره ونفعه، وخفضه ورفعه، ويعلم مدى رحمته، وسعة عفوه، يُسَلِّمُ أمره إليه، ويحسن الظن به، ويتوكل عليه. فتطمئن نفسه، ويفرخ روعه، وتسعد روحه.

ويقف أبو عبد الرحمن السلمي عند قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ [آل عمران: 179] ليلتقط إشارة طريفة يعزز من خلالها تقويم السلوك البشري، وانعتاق النفوس من قيود الشهوات، فيرى أن احتجاب العبد عن عالم الملكوت لا يكون إلا بسبب كثافة حجب الأغيار، وانطباع صور الأكوان في صفحات القلب، وكثرة تعلقات النفوس بكلاب الشهوات، التي تنهش في جنبات الأرواح، فلو انعتق العبد من ربقة أسر الدنيا وتعلقاتها، لاطَّلع على الكثير من أسرار الوجود، ولظهرت له العجائب من خلال كشف أستار الغيب، وبقدر إخلاص سره؛ يرى ويسمع ما كان محجوبًا عنه من خفايا ملكوت ربه؛ يقول –رحمه الله–: " قيل في هذه الآية: ما كان الله ليطلعكم على الغيب وأنتم

403 القشيري، **لطائف الإشارات**، 164/2.

تلاحظون أشباحكم وأفعالكم وأحوالكم، فإنما يطلع على الغيب من كان أمين السر والعلانية، موثوق الظاهر والباطن، فيفتح له من طريق الغيب بقدر أمانته ووثائقه..."[404].

ويستدل على دعواه بما انكشف للرسول الأعظم من أسرار الغيب، فيما كان وفيما سيكون، فيقول: " ألا ترى النبي –صلى الله عليه وسلم – كيف حكم على الغيب بقوله: «عشرة من قريش في الجنة».[405] لم يقتصر العلم اللدنيّ الذي خص به رب العزة –جل جلاله–رسوله محمداً اصلى الله عليه وسلم، على تبشير العشرة بالجنة قبل دخولها، بل قد أخبر أمته عما كان من أحداث الزمان، وما سيكون في آخره، وعن الكثير من مشاهد القيامة، وأوصاف نعيم أهل الجنة، وعذابات أهل النار.

ونجد للإمام الأكبر محي الدين بن عربي يعلق على الآية: ﴿الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصلاةَ وَمِما رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]، بإشارة لطيفة، يعزز من خلالها أعلى مراتب الإيمان بالغيب، حيث يلج المؤمن رحاب الإحسان، فتزول دونه الحجب، وتشرق في سماء قلبه شموس المعارف، فتنطمس معالم الريب، وتزول خواطر الشكوك، ويغدو الإيمان بالغيب شهودًا، وأخباره يقينًا. ويصبح قول المؤمن وفعله وسلوكه خالصًا لله وحده.

يقول –رحمه الله–: "وأعلى مراتب الإيمان ظهور عروقه الكلية الضاربة إلى الروح الروحانية، وثمرة ذلك تعديل الأخلاق وتبديلها، أو صرفها فيما ظهر حسنًا جميلاً بالنسبة إلى تلك المصارف، ويؤول الأمر من هذه المرتبة إلى أن تزول الحجب كلها أو أكثرها... ويصير الإيمان إحسانا، ويعود الكشف عيانا ..."[406].

---

[404] السلمي، **حقائق التفسير**، 128/1.

[405] عن ابن عمر، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «عَشَرَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ في الجَنَّةِ: أَبُو بَكرٍ في الجَنَّةِ، وعُمَرُ في الجَنَّةِ، وعُثْمَانُ في الجَنَّةِ، وعَلِيٌّ في الجَنَّةِ، وطَلْحَةُ في الجَنَّةِ، والزُّبَيْرُ في الجَنَّةِ، وسَعْدٌ وسَعِيدٌ في الجَنَّةِ، وعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ في الجَنَّةِ، وأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ في الجَنَّةِ» رواه سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق: فريق من الباحثين (د. م، د.ت)، 144/13، رقم:13823.

[406] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 50/1.

إنها مرتبة الإحسان التي يصبو إليها كل مؤمن، ويتشوف إلى بلوغها كل عاقل، فهذه المرتبة التي ندب إليها رسول الله في الحديث الذي يرويه عمر بن الخطاب، حينما قَدِمَ جبريل بصورة بشرية يسأل رسول الله عن أمور كثيرة، لكي يعلم الصحابة أمور دينهم، وذلك حينما سأله عن الإحسان، وهو الركن الثالث للدين، فأجابه: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك».[407]

إنها مرتبة اليقين، بل عين اليقين، حيث تنكشف الحجب التي تستر القلب، وتتجلى حقائق الإيمان، حينئذٍ يرى المؤمن معالم الغيب بارزة، وبوارقها لامعة، فتستكين النفس لتصاريف الأقدار، وتستريح من شوائب الأكدار. فتطمئن لأحكام خالقها، وتدرك أسرار حِكَمِ بارئها. وأمام الآية الكريمة التي تتمثل فيها خزائن الغيب، ومفاتحها، وأسرار بواطنها وخوافيها، يقف المؤمن مدهوشًا عند تأملها، متعجبًا من مقاليد أمورها، التي اختص الرب –جل جلاله– بعلمها، وتدبير شئونها، إنها آية "مفاتح الغيب" التي أنزلها على نبيه في محكم التنزيل:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلغَيبِ لَا يَعلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعلَمُ مَا فِي ٱلبَرِّ وَٱلبَحرِ وَمَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلأَرضِ وَلَا رَطبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

ونجد لعلماء التفسير الإشاري فهومًا طريفة لهذه الآية، فمنهم من يرى أن ستر الغيب عن الخلق رحمة بهم، وشفقة عليهم، لأن ما في خزائن الغيب فوق طاقة التحمل، فلو قدر لكم مطلوبكم الذي تتشوفون إليه لما أطقتم، ولكنه تفرد بعلمه وحكمه، فـ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:23]. يقول الإمام القشيري–رحمه الله – بلسان الحضرة الإلهية:" لو قَدَّرت على إبداء

[407] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**،435/1، رقم367.

ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم عليّ- شفقة عليكم، لكن المتفرّد بالحكم لا يُعارض فيما يريد."[408]

وهكذا يرى في هذه الآية لطف الله ورحمته بعباده الذين لايطيقون إدراك سعة ملك الله وملكوته، ويقرر تفرد الله -سبحانه-بحكمه المطلق في سائر شئون خلقه، ثم يمضي الشيخ في تلمس أسرار هذه الآية المباركة ليلتقط لنا إشارة يعزز من خلالها فهم المؤمن لقدرة الله المطلقة، وتفرده -سبحانه- في الإيجاد والإمداد، فيقول: " ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ﴾، المفتاح ما به يرتفع الغلق، والذي يحصل مقصود كلّ أحد، وهو قدرة الحق- سبحانه- فإنّ التأثير لها في الإيجاد، والموصوف بقدرة الإيجاد هو الله".

ثم يمضي في استجلاب الحقائق واللطائف الرحمانية من هذه الآية، ليعرض لنا إشارة مهمة، يقف عندها المتأمل مذهولًا، حيث يربط بين شمول علم الله، وعموم قدرته، وبين تلقي المؤمن الموقن بمرادات الله وفيوضات رحمته، حيث يفتح لعبده، شعاعًا من شموس غيبه، يبصر به بعض غيوبه، ويستشرف آماد علمه المكنون. يقول رحمه الله: "ويقال: أراد بهذا شمول علمه، أي هو المتفرّد بالإحاطة بكل معلوم، وقطعا لا يُسأل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء. ويقال عندك مفاتح الغيب وعنده مفاتح الغيب فإن آمنت بغيبه مدّ الشمس على غيبك".[409] وهكذا نجد الإمام القشيري يرى أن للمؤمن سبيل إلى كشف سجف الغيب، بقدر تفانيه عن الصفات الحيوانية، وتحليه بالحلل الروحانية، ومفاتح غيب المؤمن منوطة بالتخلي عن الشهوات، والتحلي بالمكرمات، لينعم باللطائف النورانية، التي يتكرم الرب على عبده بقدرها.

---

[408] القشيري، **لطائف الإشارات**، 479/1.

[409] القشيري، **لطائف الإشارات**، 479/1. نسبة المفاتح إلى الإنسان- إن صحّ أن القشيري قالها- يمكن تأويلها على أنها جمع مفتح مصدر ميمي بمعنى الفتح والفتوح، وهما من فضل الله، ولكنهما بالنسبة إلى المفاتح الالهية كنسبة ضوء المصباح إلى ضوء الشمس، إذا ظهر شعاع الشمس غمر ضوء المصباح ... هكذا نفهم من السياق- والله أعلم، انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**، 479/1.

أما السلمي –رحمه الله– فيدعو المؤمن لتعزيز الصلة بالله، والثقة بموعوده، ليحظى بالفيوضات النورانية، والهبات الرحمانية، فينقلنا إلى فهمٍ آخر، فمفاتح الغيب الخاصة بالله –تعالى– كثيرة لا يحصيها إلا الله، متنوعة مملوءة بشتى صنوف الحياة؛ لا يُطْلِع عليها إلا الصفي الخليل والولي الحبيب، فيفتح لأهل الخير المحبة والرحمة، ولأهل الشر الفتنة والمهانة، ولأهل الولاية الكرامات، ولأهل السرائر السِّر، ولأهل التمكين جذبًا، ومن مفاتح غيبه ما قذف في قلبك من نور معرفته، وبسط فيه بساط الرضا بقضائه، وجعله موضع نظره [410]. فخزائن الغيب عنده –سبحانه– مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يفتح أبوابها لأهل الخير بالبركة والرحمة والمحبة، ولأهل الشر بالبلاء والفتنة، يرفع أهل المعروف بفضله إلى الدرجات العلا، ويمكن لخاصة عباده بساط قربه، فيصطفيهم ويجتبيهم، ويكتب لهم السعادة الدائمة التي لا شقاء بعدها.

وللإمام ابن عربي فهم لطيف وذوق طريف لمفاتح الغيب: فهي أسماء إلهية، أسرارها غيبية مُسْتَكِنَّةٌ في خزائن علم الله تعالى، لا يعلمها إلا هو، وهي منوطة بحقائق مخصوصة، وهبية غير مكتسبة، يهبها الله لمن يشاء من خلقه. ولا يهبها لقلب غافل أو نفس لاهية، ولا يستحقها من تمرغت نفسه في وحول الشهوات، وانطمست بصيرته بحجب المعاصي والخطيئات، فلابد لاستقبالها من الأخذ بالأسباب، والأسباب ناموس كوني قامت عليه الأرض والسموات، وإنما يهبها المولى –سبحانه– للقلوب المنورة بالأذكار، والنفوس العامرة بالمجاهدت.

يقول–رحمه الله–:"ومفاتيح هذا الغيب هي الأسماء الإلهية التي لا يعلمها إلا الله العالم بكل شيء، والأسماء نسب غيبية إذ الغيب لا يكون مفتاحه إلا غيبا، وهذه الأسماء تعقل منها حقائق مختلفة، معلومة

[410] انظر: السلمي، **حقائق التفسير**، 201 بتصرف.

الاختلاف كثيرة، ولا تضاف إلا إلى الحق، فإنه مسماها ولا يتكثر بها..." [411] إذن من الغيب انبثق عالم الشهادة، الذي يمثل الوجود، فتراه العيون، وتتلمسه الأحاسيس، ومفاتح الغيب التي اختص الله بها، ربما أطلع عليها من له استعداد لتحمل الطاقة المنبثقة منها، وعنده استعداد لاستقبالها، ولا يكون ذلك إلا لنبي مرسل، أو ملك مقرب، أو ولي عارف محبب.

وعلى قدر الطاقة الروحية التي يكتسبها العبد بالذكر الكثير، والعمل الحسن الجميل، يكون المدد الإلهي والعطاء الرباني، حيث تتنزل الأنوار القرآنية، واللطائف الرحمانية الهادية، التي تتشربها القلوب الصافية النقية. وهذه المنح الربانية غيبية لا تراها العيون ولا تدركها الظنون، ينكرها الغافلون، ويجحدها الساهون، لكن يعرفها الربانيون الذين تنورت بصائرهم بأنوار الإيمان، ورقت مشاعرهم بذكر الرحمن، فيتلقفونها بهممهم العالية، ونفوسهم الزاكية.

ومن أخص مسائل الغيب قضية الروح، ذاك السر المكنون والكنز الدفين، الذي اختصه الله – تعالى– بعلمه، وأكنه في خزائن غيبه، فلا يعلم محتواها إلا هو، ولا يَطَّلِعُ عليها أحد من خلقه. ويقف علماء الصوفية أمام قول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] ليستشرفوا ملامح فيوضاته، ويقتبسوا لمعًا من أنواره، فيضفوا على الروح إشارات تنم عن فتوحات من فضل عطاء ربهم، وإلهامات من سيب كرمه.

وينقل السلمي في تفسيره بعض مقولاتهم– فيصف بعضهم الروح بقوله " الروح شعاع الحقيقة يختلف آثارها في الأجساد"، ويعرفها آخر بقوله:" الروح عبادة، والقائم بالأشياء هو الحق"، ويقول آخر :" إن الأرواح نعيمها في التجلي وعذابها في الاستتار" [412]. ولعل هذه التعريفات كلها تقف عند حدود:

---

[411] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 82/2.

[412] السلمي، **حقائق التفسير**، 395.

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فلا علم لصوفي مهما رق حجابه أن يدرك كنه الروح ومعدنها، ولا يمكن استشراف ما ستره الله عن خلقه، واختص به لنفسه وأمره.

ويقف ابن عطاء الآدمي[413] أمام الروح ليقول لنا:"إن الله ستر الروح على جميع خلقه، وستر صفة من صفات نفسه، وستر مايبدو منه، وستر ما يعامل به الخلق عند معاينته، إلا أن العلماء اتفقت أنها لطيفة، وأنها خلقت قبل الأجسام، واختصاصها من بين المخلوقات بكونها في يد ربها..."[414]. لقد أقر ابن عطاء- رحمه الله- بعجز الإنسان عن إدراك هذا الغيب، الذي حجبه الله عن خلقه، وقد عرَّف الروح بأنها لطيفة، وأنها خلقت قبل الأجسام، واختصاصها من بين المخلوقات بكونها في يد ربها، ولكنه أعلن عن وقوف الإنسان أمام هذا الغيب حائرًا عن إدراك ماهيته وكنهه.

ويقف القشيري أمام هذه الآية لينكشف له من سجوف الغيب شعاع من نور الروح، ليُعَرِّفها: بأنها محل الأحوال اللطيفة والخصال الحميدة، وكما أن البصر محل الرؤية، والأذن محل السمع، ويمثل الإنسان جملة هذه الحواس، كذلك أجرى الله ناموس الكون على أساس أن الروح قوام الحياة، ولا حياة بلا روح. يقول رحمه الله: "يقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله -سبحانه- في القالب، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحمودة، وكما يصح أن يكون البصر محلّ الرؤية والأذن محلّ السمع... إلى آخره"[415]. وهكذا نجد أن القشيري -رحمه الله -حام حول حقيقة الروح، ولم يدخل حماها لأن غيب هذه الحقيقة لا يدركه أحد من خلق الله، فقد تحدث عن وظيفة الروح وفاعليتها في الجسد، لكنه سكت عن ماهيتها وكنهها.

---

[413] أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي بأنّه: من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم، له لسان في فهم القرآن يختصّ به، وقال عنه أبو سعيد الخراز:التصوف خُلقٌ وليس إنابة، وما رأيت من أهله إلا الجنيد، وابن عطاء، صحب إبراهيم المارستاني، والجنيد، توفي في سنة 309هـ . انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 207، رقم 42.

[414] السلمي، **حقائق التفسير**، 396.

[415] القشيري، **لطائف الإشارات**، 367/2.

لكن ابن عربي –رحمه الله– له فهم عجيب لمعنى الروح فعند قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يرى أن كل ما يتنزل من علم الغيب على قلوب العباد، وما يهبه الله لخلقه من غير سبب كسب ولا جهد عمل، ما يكون إلا بواسطة الروح: يقول –رحمه الله–: "فعلوم الغيب تنزل بها الأرواح على قلوب العباد، فإن الروح هو المُلْقي إلى القلب علم الغيب، قال تعالى : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ﴾[غافر:15]...ونحن نعلم أن ثَمَّ علماً اكتسبناه من أفكارنا ومن حواسنا، وثَمَّ علمًا لم نكتسبه بشيء من عندنا بل هبة من الله–عز وجل– أنزله في قلوبنا وعلى أسرارنا..." [416] .

وهكذا نجد أقوال العلماء وتفسيراتهم في قضية الروح تتردد بين وصف وظيفتها في الحياة، وبين مكانتها في الإيجاد والإمداد، فهي سبب الوجود، وبها تقوم الحياة، ويقوم الكائن الحي بما قدر له وما يريد؛ وربما كان للروح وظائف أُخرى، فهي مرسال البارئ –سبحانه– إلى قلوب من يصطفي من عباده، وبها يُحملُ العلم اللَّدُنيُّ، والرحمة العندية إلى من يشاء من خلقه.

ويبقى الغيب سرًا مكنونًا، اختص الله –سبحانه وتعالى– نفسه به، ربما أطلع من شاء من خلقه على بعضه، لحكمة يعلمها ويريدها، ولكن غيبه المطلق خاص به — جل في علاه– لا يعلمه إلا هو؛ فلا يدعي علم الغيب أحد إلا اتهم بالكذب، وسقطت عدالته، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "من قال: إن أحدًا يعلم الغيب إلا الله فقد كذب، وأعظم الفرية على الله، قال الله: ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل: 65]".[417]

المطلب الثالث: الإيمان بالرسل واتباع نهجهم

---

[416] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 572/2.

[417] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، 585/18.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾ [البقرة:213]. فالنبوة ضرورة لإصلاح ناموس الحياة، ونظام الكون؛ وهي فضل من الله ورحمة بالعباد؛ فقد خلق الله الناس على فطرة التوحيد، ولكن الفطرة وحدها لا تكفي لتلمس سبيل الهداية، والعقول لا تصل إلى المنهج الرباني الحق لتسيير شؤون الحياة بلا دليل، لأن العقول متفاوتة، وقاصرة عن إدراك الحقائق. من هنا كان التبليغ الذي يأتي به الأنبياء، تشريعاً من الله، موافقاً لما تحكم به العقول السليمة. وبالتالي فإن طبيعة الحياة الاجتماعية تقتضي نظاماً مستقيماً يحقِّق العدل في سائر العلاقات الإنسانية، وجميع السلوكات البشرية. فكان بعث الأنبياء -عليهم السلام- إلى الناس لطفاً إلهيّاً، استدعته الحكمة الربانية، واقتضته المصلحة لسائر الخلق.

والأنبياء -عليهم السلام-رسل الله -تعالى- إلى عباده، وهم القائمون بأوامره ونواهيه، قد استقامت أحوالهم، وسمت مقاصدهم، وهبهم الله الحكمة، وطبعهم على المعرفة، فهم أفضل الخلق على الإطلاق، وهم أصحاب الدرجات العلا في الآخرة بالاتفاق، وقد جعلهم الله أسوة حسنة لخلقه، ولأن الناس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا ينزجرون عن أهوائهم وشهواتهم، دون أن يشهدوا آداب المرسلين، ويعتبروا بأخبار أهل القرون الماضين، فتكون دعوة المرسلين ووصاياهم، وقصص الغابرين من الأمم وأخبارهم واعظًا لهم"[418].

وإشارات المفسرين من أئمة التصوف العارفين، تزخر بالدعوة لتبجيل المرسلين، وتعظيم مقام النبيين، وتعزيز إيمان الناس بهم وبرسالاتهم، التي حملوها إلى الخلق من رب العالمين، وانتهاج نهجهم، والتأسي بخصالهم إذ هم أسوة حسنة، وقدوة صالحة، لكل من يرجو مرضاة ربه، والفوز بموعوده. فحينما يخاطب الحق -سبحانه- عباده بقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ

[418] انظر: علي بن محمد الماوردي، **أعلام النبوة** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1409هـ)، 35 بتصرف.

وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136]. يندبهم للإيمان بالأنبياء جميعهم، وتصديق رسالاتهم، تلك الرسالات التي تمثل توحيد الله وتمجيده، وإسلام مقاليد النفوس إليه وحده. وإن كانت الشرائع مختلفة، والمناهج متفاوتة، ولكنها كلها ترمي إلى هدف واحد، وغاية واحدة.

يقف الإمام القشيري عند هذه الآية الكريمة، ليستنبط إشارة لطيفة، يعزز من خلالها ثقة المسلم بأنبياء الله عامة، وبالنبي الخاتم خاصة، حيث يدلل على أنَّ لنبينا الفضل والتقدم على سائر من سبقه من الأنبياء، وأنَّ لأمته الأفضلية على سائر الأمم؛ يقول رحمه الله: "لمّا آمن نبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم- بجميع ما أنزل من قبله، أُكْرِمَ بجميع ما أكرمه من قبله، فلمّا أظهر موافقة الجميع، أمر كلّ من بالكون الانضواء تحت لوائه فقال: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»[419]. ولمّا آمنت أمّته بجميع ما أنزل الله على رسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، ضربوا في التكريم بالسّهم الأعلى، فتقدموا على كافة الأمم".[420]

وهكذا يكتسب المؤمن منزلة التقدم والرفعة على سائر الخلق بانتمائه إلى رسل الله، وإيمانه برسائلهم، وبتصديقه لهم والإقرار بما يحملون من شرائع، كما يفخر بانتمائه إلى أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهي خير الأمم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: 110، ويكون خير الناس للناس، في الدنيا يدعو على بصيرة إلى المنهج الحق ودين الحق، وفي الآخرة يقوم مقام الشهادة على الأمم جميعًا.

وتتكرر الآيات الداعية إلى الإيمان بالرسل وتعزيرهم وتوقيرهم، وتصديق رسائلهم، والله يمتن على خلقه ببعثة هؤلاء الرسل الذين جاؤوا بالبينات من ربهم ليسترشد الناس بما حملوه من ربهم من تعاليم

---

[419] ورد الحديث في مستدرك الحاكم برواية: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». انظر: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م)، 83/1، رقم:82.

[420] القشيري: **لطائف الإشارات**، 129/1.

تزكيهم وتبصرهم وتهديهم، وعلى رأسهم سيد الرسل وإمامهم محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، الذي امتن الله على خلقه ببعثته ورسالته، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾[آل عمران:164]وقد علق السلمي رحمه الله على هذه الآية بقوله: "أكبر منن الله تعالى على الخلق وسائط الأنبياء ليصلوا إليه، لأنه لو أظهر عليهم من صفاته ذرة لأحرقتهم جميعًا".[421]

ولقد اشترط على عباده لكي يقبلهم في جملة الفائزين أن يتبعوا الرسول الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقال سبحانه في محكم التنزيل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]. وقد علق الإمام التستري على هذه الآية بإشارة لطيفة فقال: "جعل المحبة في اتباعه، وجعل جزاء اتباعه محبته لعباده، وهي أعلى الكرامة."[422] وهنا يشير –رحمه الله– إلى حقيقة دقيقة، وهي أن حب الله ورضاه مرهون باتباع نهج رسول الله، لأن منهجه يوصل العبد إلى الله، ولا سبيل للوصول إليه، والدخول عليه إلا من باب رسول الله، وعن طريقه.

أما الإمام القشيري فيعقب على هذه الآية بلطائف جمة، كلها تعزز اتباع النبي والانتماء إلى رسالته والعمل بسنته، ومنها قوله: "ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحد نفس، إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد صلّى الله عليه وسلّم" [423]. إذن لا مطمع لأحد بالدخول على الله إلا من باب رسول الله، ولا يمكن لسالك أن يصل إلى حضرة الله إلا بالسير على سبيل رسول الله. ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...﴾ [يوسف:108].

---

[421] السلمي، **حقائق التفسير**، 125.

[422] التستري، **تفسير التستري**، 79.

[423] القشيري، **لطائف الإشارات**، 235/1.

ويؤيد أبو عبد الرحمن السلمي قول القشيري عند تفسير هذه الآية بإشارته: " لا وصول إلى النور الأعلى لمن لا يستدل عليه بالنور الأدنى، ومن لم يجعل السبيل إلى النور الأعلى التمسك بآداب صاحب النور الأدنى، ومتابعته –صلى الله عليه وسلم–، فقد عمي عن النورين جميعًا، فأُلبس ثوب الاغترار"[424].

لقد عبر عن حضرة الحق – سبحانه وتعالى – بالنور الأعلى، وبحضرة النبي الكريم بالنور الأدنى، وليس للنبي من نور إلا بإفاضة النور الإلهي عليه، فالله نور السموات والأرض. أفاض من نوره على رسوله تفضلًا وكرمًا، فأنى لمن لا يستهدي بنور رسول الله أن يدرك قبسًا من نور الله جل في علاه.

كما ينقل السلمي عن محمد بن الفضل[425]إشارة لطيفة عند ذكر الآية الكريمة:﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ يعزز الانتماء إلى منهج الرسل، والتمسك بالشريعة الغراء، ومتابعة صاحب الرسالة في كل صغيرة أو كبيرة، فيقول: "نفى اسم المحبة عمن يخالف شيئًا من سنن الشريعة ظاهرًا وباطنًا، أو يترك متابعة الرسول –صلى الله عليه وسلم– فيما دقَّ وجلَّ، لأن المتابع له لا يخالفه في شيء من طريقته صلى الله عليه وسلم"[426].

يبدو لمن يتابع إشارات السادة الصوفية عامة، وهذه الإشارة خاصة، أن السالك طريق الإحسان لا يمكن أن يبلغ مناه، ولا يصل مبتغاه حتى يتمثل الشريعة ويجعلها نصب عينيه، ولا حَظَّ لطالب الحقيقة مالم يلتزم كتاب الله، ويتبع سنة رسول الله. فيتحقق بدقائق السنة ويتشربها، لينال مراده من مولاه، ويحظى بالوصال.

---

[424] السلمي، **حقائق التفسير**، 96.

[425] الإمام الزَّاهد أبو عبد الله محمد بن فضل البَلْخي الحنفي، المتوفى سنة تسع عشرة وثلاثمائة. كان بلخي الأصل، سكن سمرقند وكان مُفَسِّرًا واعظًا، صحب أحمد بن خضرويه البلخي، وروى عن قتيبة. قال القشيري في آخر باب حفظ قلوب المشايخ: سمعت أبا علي يقول: لما نفاه أهل بلخ من البلد دعا عليهم فقال: اللهم امنعهم الصّدق فلم يخرج منها من بعده صدِّيق. ينظر: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني، حاجي خليفة، **سلم الوصول إلى طبقات الفحول**، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط (إستانبول: مكتبة إرسيكا 2010م)، 221/3.

[426] السلمي، **حقائق التفسير**، 97.

وكذلك عندما يقف الشيخ محي الدين عند قوله تعالى:﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ تلمع له إشارة الاتباع، فيرى أن محبة الله لا تتأتى للعبد إلا إذا لزم السنة المطهرة، واتباع النبي الكريم في سائر تقلبات حياته، يقول رحمه الله: "باتباع الشارع واقتداء أثره، صحت محبة الله للعبد، وغفرت الذنوب، وصحت السعادة الدائمة..."[427]

وكأن فهم الشيخ –رحمه الله– لهذه الآية يتوافق مع حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي يروي عن رب العزة –جل جلاله– قوله: «...وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ...»[428] وفي الحديث إشارة إلى ملازمة الحب للاتباع والطاعة، فكلما لازم العبد طاعة الله واتباع سنة نبيه كان إلى الله أقرب؛ وفي مقام القرب تمحى السيئات، وترفع الدرجات، ويصبح العبد مؤيدًا بسلطان الله، محفوفًا بعنايته.

ومن الإشارات التي يقف القارئ أمامها مندهشًا من طرافة استنباطها، والتي تعزز الإيمان بالرسل الكرام عامة، وبمحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم خاصة، ما يلتمع للإمام التستري–رحمه الله– من قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ...﴾ [هود:40].حيث يقول: " قوله تعالى: ﴿وَفارَ التَّنُّورُ ﴾ قال: كان تنوراً من حجارة، وهو تنور آدم صار لنوح قد جعل الله فوران الماء منه علامة عذابه، وجعل ينبوع عيون قلب محمد صلّى الله عليه وسلّم بأنوار العلوم رحمة لأمته، إذ أكرمه الله تعالى بهذه الكرامة...".[429]

وهكذ ينتقل التستري من انبثاق الماء وفورانه من التنور، الذي ينذر بالعذاب، إلى انبثاق نور الحياة وأنوار الأنبياء من ينبوع عيون قلب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الذي يفيض بالرحمة؛ أليس النبي

---

[427] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 441/1.

[428] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، 2384/5، رقم:6137.

[429] التستري، **تفسير التستري**، 79.

هو القائل:«إنما أنا رحمة مهداة»؟[430] وقد ارتهنت محبة العبد لله باتباع رسوله، كما جعل الله محبته لعباده مرهونة باتباع الرسول وانتهاج شريعته. ويؤكد –رحمه الله – على اتباع سنة النبي –صلى الله عليه وسلم– والاقتداء بنهجه، ويرى أن مذهب التصوف قائم على أصول ثلاثة، أولها وأهمها الاقتداء بالنبي –عليه السلام– في الأقوال والأفعال، مع إخلاص النية بالطاعات والعبادات، وسائر شؤون الحياة، وتتبع السنة في كل حركة أو سكون، وفي كل سرٍّ أو علن، ثم تحري الحلال في المأكل والمشرب والملبس والمسكن[431].

وَعزز هذا الاتجاه بلزوم الاتباع حتى في القيام بالطاعات والعبادات فقال: "كُلُّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ بِغَيْرِ اقْتِدَاءٍ: طَاعَةً كَانَ أَوْ مَعْصِيَةً، فَهُوَ عَيْشُ النَّفْسِ يَعْنِي: بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، وَكُلُّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ بِالِاقْتِدَاءِ; فَهُوَ عِتَابٌ عَلَى النَّفْسِ يَعْنِي لِأَنَّهُ لَا هَوَى لَهُ فِيهِ "[432]. وسُئِلَ عَنِ الْفُتُوَّةِ والرجولةَ فقَالَ: " اتِّبَاعُ السُّنَّةِ "[433].

ولما رأى بعض المتواكلين الذين يدعون التصوف والزهد، ويرون ترك السعي والكد لطلب الرزق، وقف في وجوههم كالطود وأعلن أن السعي للكسب، والكد لطلب الرزق سنة نبوية ومن نفاها فقد نفى السنة، ومن تنكر لها فقد تنكر للسنة، ولم يغفل التوكل إلى جانب السعي، وعدَّهُ من لوازم الإيمان، فقد كان حال النبي –عليه الصلاة والسلام– عين التوكل والسعي والكسب سنته، فلا تفريط في السنة ولا جحود للتوكل، ومن أراد تمثل الحال النبوي فلا يترك سنته في السعي[434].

---

[430] المتقي الهندي، **كنز العمال**، 445/11، رقم: 32093.

[431] انظر: القاضي عياض بن موسى اليحصبي، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** (بيروت: دار الفكر الطباعة والنشر، 1409هـ)، 16/2، بتصرف.

[432] القشيري، **الرسالة القشيرية**، 60/1.

[433] إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الاعتصام**، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي (الرياض: دار ابن عفان 1992م)، 126/1.

[434] انظر: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة 2001م)، 498/2، بتصرف.

ويقف أَبو عَليّ الْجوزجَاني[435] أمام قول الله تعالى: ﴿وَإِن تطيعوه تهتدوا﴾ [النُّور: 54] حينما يسأله بعض أصحابه: كَيفَ نهتدي إِلَى طرِيق الله تعالى، فيقول: "الطّرق إِلَيْهِ كَثِيرَة، وَأَصَح الطّرق وأعمرها وأبعدها عَن الشّبَه اتِّبَاع السّنة قولا وفعلا، وعزما وعقدا وَنِيَّة؛ لِأَن الله تَعَالَى يَقُول ﴿وَإِن تطيعوه تهتدوا﴾. فيعود السائل ليستوضح السبيل إلى اتباع السنة، فيجيبه الجوجزاني- إجابة الحكيم، يحدد فيها المنهج القويم لبلوغ الهداية الربانية، ويحصر السبيل لمن ابتغى الهداية في اتباع النهج القويم، الذي عليه النبي الكريم وسائر الأنبياء والمرسلين، معززًا فكرته ومستأنسًا بقول الله تعالى: ﴿ثمَّ أَوْحَينَا إِلَيْك أَن اتبع مِلَّة إِبْرَاهِيم حَنِيفا﴾ [النحل:132]حيث يقول: "مجانبة البدع وَاتِّبَاع مَا اجْتمع عَلَيْهِ الصَّدْر الأول من عُلَمَاء الْإِسْلَام، والتباعد عَن مجَالِس الْكَلَام وَأَهله، ولُزُوم طَرِيق الِاقْتِدَاء والاتباع... ﴾ [436].

أي تمثل هذا المنهج بالاتباع وتجنب الابتداع، وباعتزال الجدل والمراء، والمجالس التي يكثر فيها القيل والقال، والاقتداء بسيد المرسلين -عليه الصلاة والسلام- الذي أمره ربه -جل في علاه- باتباع الملة الحنيفية ملة إبراهيم، وهي ملة التوحيد الخالص، الذي لا يشوبه شرك ولا إلحاد.

وينقل السلمي عن بعض العارفين من الصوفية فهمهم لمعاني الآيات القرآنية، حيث يجعل لمفرداتها معانٍ تربط المؤمن بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيرى في الفجر نبيًا، وبالليالي العشر رمز لنبي آخر، فهذا ابن عطاء الآدمي يفسر قوله -تعالى-:﴿والفجر* وليالٍ عشرٍ*﴾ " أنَّ الفَجْرَ هو محمد -صلى الله عليه وسلم- لأنه به تفجرت أنوار الإيمان، وغابت ظُلَمُ الكفر، أما الليالي العشر فهي ليالي موسى -عليه السلام- التي اكتمل بها ميعاده بقوله: ﴿وأتممناها بعشر﴾"[437] .

---

[435] أَبُو عَليّ الْجوزجَاني واسْمه الْحسن بن عَليّ، من كبار مَشَايِخ خُرَاسَان لَهُ التصانيف الْمَشْهُورَة تكلم فِي عُلُوم الْآفَات والرياضات والمجاهدات وَرُبمَا تكلم أَيْضا فِي شَيْء من عُلُوم المعارف وَالْحكم، صحب مُحَمَّد بن عَليّ التِّرْمِذِيّ وَمُحَمّد بن الْفضل وَهُوَ قريب السن مِنْهُم، انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 196.

[436] السلمي، **طبقات الصوفية**، 197-198.

[437] السلمي، **طبقات الصوفية**، 394.

وهكذا يحرص أولئك العلماء على ربط الكثير من آيات القرآن الكريم بشخوص الأنبياء، وما لهم عند الله جل وعلا؛ لتعزيز مكانتهم في نفوس المؤمنين، فيحرصون على اتباعهم والتأسي بهم؛ كما يتبين لكل منصف من الباحثين أنَّ الصوفية من أحرص الناس على اتباع السنة وانتهاج الشريعة، على النقيض مما يتهمهم به الجاهلون من المغرضين: بأنهم أهل بدع وشطح وانحراف عن النهج القويم. والمتأمل لقول مُحَمَّد بن حَامِد الترمذي[438]، الذي لم يجد لأحد تَمام الهمة بأوصافها إِلَّا لأهل الْمحبَّة، وأن ما بلغه أهل المحبة من المنازل الشريفة، والمقامات السامية إلا باتِّبَاع السّنة ومجانبة الْبِدْعَة، واتخاذهم الأسوة الحسنة والقدوة المثلى، رَسُول الله –صلى الله عليه وسلم– لأنهم يعلمون أنه كَانَ أَعلَى الْخلق همة وأقربهم زلفة[439]. ولما سُئلت مُؤمنَة بنت بَهْلُول[440] من أَيْن اسْتَفَدْت هَذِه الْأَحْوَال؟ قَالَت": من اتِّبَاع أَمر الله على سنة رَسُول الله – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم– وتعظيم حُقُوق الْمُسلمين وَالْقِيَام بِخِدْمَة الْأَبْرَار الصَّالِحين[441].

وبهذا لا يخفى على المتأمل في حال علماء الصوفية، وأهل الزهد منهم، أن لهم قصب السبق في اتباع نهج الرسل، والتحلي بأخلاقهم، كما لا يخفى على كل منصف أن أهل الإشارات منهم قد استنبطوا من الآيات التي تتطرق لذكر الأنبياء إشارات وإيحاءات تنم عن إجلال مقامهم، وتقديرهم والانتماء إليهم وحبهم، والولاء لمنهجهم والتزام سبيلهم على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام.

---

[438] وَهُوَ مُحَمَّد بن حَامِد بن مُحَمَّد ابْن إِسْمَاعِيل بن خَالِد، وكنيته أَبُو بكر، وَهُوَ من أَعْيَان مَشَايِخ خُرَاسَان وأطهرهم خلقا، وَأَحْسَنهمْ سياسة؛ لَقِي الْمَشَايِخ ببلخ مثل أَحْمد بن خضرويه وَمن دونه، وَله أَصْحَاب ينتمون إِلَيْهِ. انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 217.

[439] السلمي، **طبقات الصوفية**، 218 بتصرف.

[440] مُؤمنَة بنت بَهْلُول، إحدى أعلام التصوف السني، من عابدات دمشق، كَانَت من العارفات الْكِبَار، انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 390.

[441] السلمي، **طبقات الصوفية**، 390.

وهكذا يتناول الباحث في هذا المبحث دور التفاسير الإشارية في تعزيز العقيدة الصحيحة من خلال توثيق الصلة بالله تعالى، والإيمان بالغيب والإيمان بالرسل، لذلك يركز المفسرون الإشاريون على كلمة التوحيد ودورها في الصلة بالله، من خلال تفسير بعض الآيات القرآنية، التي يدعون من خلالها إلى صرف القلب كله إلى الله، وعدم التعلق بغيره من الكائنات، فهو وحده أحق أن يوجه القلب إليه، ولا يلتفت إلى غيره، ويرشدون إلى الأسباب الموصلة إلى توثيق الصلة بالله تعالى من كثرة الطاعات، والاجتهاد في العبادات، وإخلاص العمل، وتقديم محاب الله على محاب النفس، وتفضيل شئون الآخرة على شئون الدنيا .

ومن لوازم تعزيز العقيدة الصحيحة، الإيمان بالغيب والتصديق بما جاء في كتاب الله، وبما أخبر به الرسول عن ربه، وقد وردت الأخبار المتواترة في الكتاب والسنة، تكشف غياهب المجهول عن معالم بعض الغيب، كالجنة والنار، والميزان والصراط، وعالم البرزخ، والبعث والنشور بعد الموت، والحشر والحساب، وكل هذه المغيبات لا يدركها المرء بحسه، فلا يراها ببصره، ولا يصغي لما فيها بسمعه. وهذا الإيمان قد تخامره الخواطر، وتشوبه الكوادر، ولا تطمئن القلوب إلا باليقين، ولا تسكن إلا ببلوغ حق اليقين وقد اجتهد العلماء العارفون، لتعزيز الإيمان بالمغيبات، فبدرت منهم لوامع الإشارات، التي يمكن أن يستلهم منها المؤمن معالم الغيب، فيزداد إيمانه، ويقوى يقينه، وكأنه يرى ويسمع، ويعيش بروحه كل عوالم الغيب. وحينما يكون إيمان العبد بالغيب متمكنًا في وجدانه تهون عليه مصائب الدنيا، فلا يأسف على ما فاته منها، ولا يفرح بما فتح عليه، لعلمه أن الله بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار.

كما يركز المفسرون الربانيون على الإيمان بالرسل واتباع نهجهم، لأن النبوة ضرورة لإصلاح ناموس الحياة، ونظام الكون؛ وهي فضل من الله ورحمة بالعباد؛ فقد خلق الله الناس على فطرة التوحيد، ولكن الفطرة وحدها لا تكفي لتلمس سبيل الهداية، والعقول لا تصل إلى المنهج الرباني الحق لتسيير شؤون

الحياة بلا دليل، لأن العقول متفاوتة، وقاصرة عن إدراك الحقائق. من هنا كان التبليغ الذي يأتي به الأنبياء، تشريعاً من الله، موافقاً لما تحكم به العقول السليمة.

وتتكرر الآيات الداعية إلى الإيمان بالرسل وتعزيرهم وتوقيرهم، وتصديق رسائلهم، وتتكرر معها الإشارات التربوية التي يحرص أصحابها من العلماء الربانيين على تعزيز الإيمان بهؤلاء الرسل، الذين جاؤوا بالبينات من ربهم، لكي يسترشد الناس بما يصلهم من تعاليم تزكيهم وتبصرهم، وتهديهم سواء السبيل.

المبحث الثاني: دور التفاسير الإشارية في إصلاح النفوس وتزكيتها.

النفوس البشرية تبع لطبائع أصحابها وسلوكاتهم، والناس أجناس ومعادن، كما ورد في الحديث: عَنْ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا ...»[442]. منهم الطيب ومنهم الخبيث ومنهم دون ذلك، وما طيبهم ولا خبثهم إلا بطيب أنفسهم أو خبثها، وتُدْرَك طبائعهم بسلوكاتهم وتصرفاتهم، والسعيد من دان نفسه وحاسبها، والشقي من اتبعها هواها وجاراها؛ فماهي هذه النفس التي أقسم الله بها؟

للنفس معانٍ متعددة مختلفة تتحدد دلالاتها بالسياقات التي تضمها، يقول الرازي في مختار الصحاح: " النَّفْسُ: الرُّوحُ، يُقَالُ: خَرَجَتْ نَفْسُهُ. وَالنَّفْسُ الدَّمُ، يُقَالُ: سَالَتْ نَفْسُهُ. ...وَالنَّفْسُ الْجَسَدُ. وَيَقُولُونَ: ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ... وَنَفْسُ الشَّيْءِ عَيْنُهُ يُؤَكَّدُ بِهِ، يُقَالُ: رَأَيْتُ فُلَانًا نَفْسَهُ ..."[443]. وهكذا يتبين لنا أن للنفس معانٍ كثيرة، حددتها السياقات، ولقد ذكرها الله –سبحانه– في القرآن الكريم، بشتى معانيها. فجعلها المنبت الأول لنشأة الوجود الإنساني، ودعا الناس لتقواه وشكره على هذه النشأة، فقال: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾[النساء:1].

ولفت النظر لمكانتها في الوجود، فأقسم بها وبجبلتها التي فطرها عليها، ونبه الإنسان لإكرامها ورفع شأنها، بتجنيبها سفاسف الأمور، وتخليها عن رذائل الطباع، وتحليتها بفضائلها، فقال في محكم التنزيل:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا*﴾ [الشمس:7-8-9-10).

---

[442] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المناقب، 1288/3، رقم:3304.

[443] الرازي، **مختار الصحاح**، مادة (ن ف س).

كما أعلن عن سُنة من سنن الحياة فقرر: أن النفس الإنسانية مآلها الموت والفناء لامحالة، وأنه لا بقاء لنفس ولا خلود لها في هذه الدنيا، ولا تُستثنى نفس منها أيًا كانت، فقال –عزَّ من قائل–: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:35]. وفي المعاد يوم الحشر والنشور ترى كل نفس ما عملت، وكل نفس بما كسبت رهينه، ولا تحمل نفس وزر نفس أبدًا، كما لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا. فقال عز وجلَّ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (البقرة–48). وتظل النفس هي المسؤولة عن أفعال الإنسان وأفكاره ونزواته، وأخلاقه وانفعالاته وتوجهاته، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ومن رحمة الله وعدله أن جعل للإنسان سلطانًا على نفسه، يمكنه كبح جماحها إذا جمحت، وضبط نزواتها وشهواتها إذا هوت وجنحت؛ وقد أدرك هذا الحال من النفس حكماء العرب وعلماء الدين، يقول أبو ذؤيب الهذلي[444]:

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبْتَها ***وإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ[445].

كما يُشَبِّهُها الإمام البوصيري – رحمه الله–بالطفل الرضيع المتعلق بأمه، والذي لو لم يفطم عن لبنها لطال رضاعه، ولظل يستسيغ الرضاع:

والنفس كالطفل إن تُهْمِلْهُ شَبَّ على*** حُبِّ الرَّضـاعِ وإنْ تَفْطِمه يَنْفَطِمِ[446].

---

[444] هو خويلد بن خالد، جاهليّ إسلاميّ. وكان رواية لساعدة بن جؤيّة الهذليّ. وخرج مع عبد الله بن الزّبير فى مغزى نحو المغرب، فمات، فدلّاه عبد الله بن الزبير فى حفرته. انظر: عبد الله بن عبد المجيد بن قتيبة الدينوري، **الشعر والشعراء** (القاهرة: دار الحديث 1423هـ)، 639/2.

[445] انظر: المفضل بن محمد الضبي، **المفضليات**، تحقيق: أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار **المعارف**، د.ت)، 522/6.

[446] انظر: محمد يحيى حلو، **البردة شرحا وإعرابا وبلاغة** (دمشق: دار البيروتي، 1426هـ)، 224.

المطلب الأول: أنواع النفوس ودرجاتها

النفس البشرية آية من آيات الله عزَّ وجلَّ؛ يصعب على العلماء والباحثين في مجال علم النفس أن يكونوا على دراية تامة بدراستها، وفهم مكنونها وكنهها، ليس بسبب نقص المعلومات المتاحة، ولكن بسبب غموضها وتشعباتها وتناقضاتها. ومع اتسامها بالغموض، وتميزها بالإبهام، فإن الله – سبحانه وتعالى– الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قد كشف في كتابه الكريم عن بعض صفاتها، وذكر بعض أصنافها: فنص في محكم التنزيل على ثلاثة أصناف من الأنفس وهي: النفس الأمارة بالسوء – النفس اللَّوَّامَة– النفس المطمئنة. ولكل صنف من هذه النفوس سمات وخصائص، نقف على كل منها، نتلمس ملامحها ومعالمها.

أ–النفس الأمارة بالسوء:

وهي الحريصة على دفع صاحبها نحو اقتراف الخطايا والمعاصي، وتزيين الشهوات لإيقاع صاحبها في المهلكات. وقد عرفها الشريف الجرجاني في كتاب التعريفات بقوله: النفس الأمَّارة: "هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسية..."[447]. أما الجنيد فقد عرفها من قبل بقوله: "النفس الأمارة بالسوء هِيَ الداعية إِلَى المهالك، المعينة للأعداء ..."[448].

وهكذا تتشابه التعريفات للنفس الأمارة بالسوء، بل تتفق أوصاف الحكماء لهذه النفس، فهي التي تدعو إلى اقتراف الشهوات المحرمة، وتصبغ صاحبها بصبغة السوء، فيتحلى بالأخلاق الذميمة.

وقد حذر منها التستري وعدها من الأنداد التي تعبد من دون الله، لأن إصغاء المرء لشهوات نفسه ومطالبها، وإطاعتها في رغباتها تصرفه عن الله، فتكون ندًا لله. لذلك فسر قول الله – تعالى–: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22] فعرف الأنداد بالأضداد، وعلق على معنى

---

[447] الجرجاني، **التعريفات**، 243.

[448] القشيري، **الرسالة القشيرية**،283/1.

الآية ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً﴾ بقوله: "أي أضداداً فأكبر الأضداد النفس الأمّارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله"[449]. فمن لَمْ يتهم نَفْسه عَلَى الدوام وفي سائر الأوقات، وَلَمْ يخالفها فِي جَمِيع الأحوال كَانَ الهلاك مصيره ومنتهاه، وحسن الظن بالله وبالناس أمر حسن، أما بالنفس فلا ينبغي حسن الظن بها، وقد صدق من قال:

ساءَ ظنّي بشُؤُني كلِّها***إنَّ سوءَ الظَّنِّ من أَزكى الفِطَنْ[450]

بلى والله من اتبع هواه فقد جعل مع الله إلهاً آخر، يطيعه في كل ما يدعوه إليه، ويلبي كل رغباته وشهواته؛ فيعمى عن الحق لا يبصره، ولا يهتدي إليه، ولا يسمع دعوة الداعين، ولا نصح الناصحين، لأن الله يختم على قلبه، عقوبة له على اتباع هواه، والإعراض عن فضل مولاه؛ ويصور الحق –سبحانه– حال هذا الصنف من الناس بقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ... ﴾ [الجاثية:23]. فمن كان مغموراً في لذة نفسه متبعًا هواها، غير متورع عن شهواتها وغواياتها، مؤثرًا لذائذ الدنيا ونزواتها على نعيم الجنة ومقاماتها، فأنى يكون له الفوز والنجاة في القيامة.

وعند قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة:257] يُعَرِّفُ التستري الطاغوت بالشيطان. ثم يستدرك بقوله: " بأن رأس الطواغيت النفس الأمارة بالسوء، لأن الشيطان لا يقدر على الإنسان إلّاّ من طريق هوى النفس، فإن أحس منها بما تهم به ألقى إليها الوسوسة."[451]. وكأن الشيطان لا يمكنه أن يوسوس للإنسان إلا إذا وجد لديه نفسًا مستعدة للمعصية، تقدم هواها على أحكام دينها، وتعنى بشهواتها ورغباتها أكثر من عنايتها بأوامر ربها.

---

[449] التستري، **تفسير التستري**، 27.

[450] البيت من قصيدة للشاعر "بهاء الدين الصيادي، المعروف بالرواس" مطلعها: (أيُّ قلبٍ هامَ فيكُمْ وسكَنْ*** أَو تَولى غيرَكُمْ طولَ الزَّمَنْ) انظر: بهاء الدين محمد مهدي الصيّادي، المعروف بالرواس، **ديوان مشكاة اليقين ومحجة المتقين** (بيروت: دار الفكر، د.ت)، 336.

[451] التستري، **تفسير التستري**، 37.

وقد ذكرها –سبحانه–على لسان امرأة العزيز، التي أقرت بخطيئتها بعدما حصحص الحق، وظهرت براءة يوسف عليه السلام، فقال: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَاّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف:53] وهذه النفس هي الغالبة والشائعة في حياة البشرية. ومن هذه الآية المباركة يستنبط التستري إشارة طريفة حيث يقول: "إن النفس الأمارة هي الشهوة، وهي موضع الطبع، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، ...، وإن الله تعالى خلق النفس وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وجعل الهوى الباب الذي منه هلاك الخلق"[452]. لقد وسم النفس الأمارة بالشهوة، وأنَّها طبعت على الجهل، ونفس الجاهل تميل إلى الهوى الذي يودي إلى الهلاك.

ولما سئل عن معنى الطبع وماهيته، والسبيل إلى التحصن من غائلة الجهل، الذي يهلك صاحبه، أخذ يفصح عن أصناف الطبائع المهلكة والمنبثقة عن النفس الأمارة بالسوء، فقال: "طُبِعَ الخلق على أربع طبائع: أولها طبع البهائم، البطن والفرج، والثاني طبع الشياطين، اللعب واللهو، والثالث طبع السحرة، المكر والخداع، والرابع طبع الأبالسة، الإباء والاستكبار."[453]

هنا يقسَّم الشيخ طبائع النفوس البشرية الأمارة بالسوء إلى أقسام أربعة، قسم بهائمي يغلب على صاحبه شهوات المأكل والمشرب، وشهوات الجنس، وقسم شيطاني يميل صاحبه إلى اللهو واللعب، والمرح والعبث، أما القسم الثالث فصاحبه جُبِل على المكر والخداع، والختل والغدر، والقسم الرابع، فصاحبه متشبع بالعجب والغرور، والاستعلاء والاستكبار؛ لا يرى في الكون من هو خير منه، ديدنه الاستهزاء بالناس، وسجيته السخرية منهم.

ولما سأله بعض تلامذته عن العلاج من هذه الأمراض، والبرء من تلك الأسقام؛ وكيف الخلاص من هذه الطبائع، أجاب إجابة الحكيم، فأفاض في بيان السبيل إلى العصمة من هذه الطبائع الخبيثة،

---

[452] التستري، **تفسير التستري**، 82.

[453] التستري، **تفسير التستري**، 82.

وأضاف إليها ما يفيد السائل ويزيده معرفة بشؤون شتى فقال: " العصمة من طبع البهائم الإيمان، والسلامة من طبع الشياطين التسبيح والتقديس، وهو طبع الملائكة، والسلامة من طبع السحرة الصدق والنصيحة والإنصاف والتفضل، والسلامة من طبع الأبالسة الالتجاء إلى الله- تعالى- بالتضرع والصراخ، وطبع العقل العلم، وطبع النفس الجهل، وطبع الطبع الدعوى"[454].

لقد وصف العلاج لأسقام النفس بالترياق المجرب الشافي الوافي، فللخلاص من قاذورات النفس الأمّارة وظلماتها، لابد من تعزيز الثقة بالله، والإيمان بكل ما قدره وقضاه، ومداومة الذكر لجناب الله، وتخلية القلب مما سواه، وإرادة الخير لكل عباد الله، ولزوم الضراعة والابتهال إلى الله، ولزوم الوقوف بباب الله. ثم لفت النظر إلى العقل ومكانته في حياة الإنسان، وقدرته على التحكم بالنفس والطبيعة، ولا يتأتى ذلك إلا بالعلم النافع، والفقه في أحكام الدين، والحذر من الادعاء بما ليس لديه.

ولكن لابن عربي فهم آخر للنفس الأمارة، فهي عنده: " ليست أمارة بالسوء من حيث ذاتها، وإنما ينسب إليها ذلك من حيث إنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور، ولجهلها بالحكم المشروع في ذلك"[455]. إذن فالشيطان هو الذي يقود النفس إلى السوء، ويستغل ما عندها من استعداد للفجور، ولا يتم له ذلك إلا عندما تختفي نوازع التقوى، وتخبو جذوة الإيمان، وتستعر الشهوات، فيغدو الإنسان عبدًا لها، وتبعًا لإملاءاتها، حينئذٍ ينشط الشيطان، فيوحي للنفس ما يحرفها عن جادة الصواب، ويقحمها سبل المهالك. وكأنه يوحي للمؤمن بضرورة الاعتناء بالعلم وصنوفه، والتفقه بأمور الدين وأحكامه، كي ينجو من حبائل الشيطان، ونزوات النفس وشهواتها.

ب- النفس اللَّوَّامَةُ :

---

[454] التستري، **تفسير التستري**، 82.

[455] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 387/2.

يخوض علماء الصوفية في تعريف ماهية النفس اللوامة، والراجح عندهم أنها نفس كريمة يقظة، تلوم صاحبها إذا زلَّ أو كلَّ، ولكن هناك من عدها والنفس الأمارة سواء، مثل الإمام التستري الذي جعلها قرينة الحرص بعيدة المدى في الآمال، حيث يقف عند تفسير الآية:﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:2] ليرى أن:" النفس الأمارة بالسوء هي النفس اللوامة، وهي قرينة الحرص وطول الأمل"[456] .فلم يفرق –رحمه الله– بينها وبين النفس الأمارة، وعدهما من جنس واحد. ولعل الآمر بالسوء مختلف عن اللائم، فمن يأمر غير الذي يلوم.

بل لقد كان هناك من أجحف بحقها، وبالغ في اتهامها، فعدها كافرة، منافقة، مرائية، كما نقل أبو عبد الرحمن السلمي عن أبي بكر الوراق[457] قوله: "النفس كافرة في وقت، منافقة في وقت آخر؛ لأنها لا تفي بالوعد، وهي مرائية لأنها لا تحب أن تعمل عملًا، ولا تخطو خطوة إلا لرؤية الحق، فمن كانت هذه صفاته فهي حقيقة بدوام الملامة لها"[458]. وكأن الشيخ الورّاق –رحمه الله– رأى في النفس اللوامة أنها هي الملومة دائمًا، لكفرها طورًا ونفاقها طورًا آخر، ورياءها بسائر أعمالها. ويرى الباحث أن هذا التصور يجانب الحقيقة، لأن المعنى اللغوي لكلمة لوَّامة يوحي بأن النفس هي الفاعل باللَّوم، بل إن صيغة المبالغة تدل على زيادة اللَّوم وكثرته، فكيف يتصور نقلها من الفاعلية إلى المفعولية؟

أما الإمام القشيري فإنه عندما يقف عند آية القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، يعرفها بأنها النفس التي تلوم صاحبها، وتعرف نقصان حالها، تلوم نفسها على كفرها، إن كان صاحبها كافرًا، وكذلك تلوم نفسها على تقصيرها في جنب الله، إن كان صاحبها مؤمنًا. وفي الحالتين تلوم، فهي لوامة

---

[456] التستري، **تفسير التستري**، 182.

[457] أَبُو بكر الْوَرّاق، وَهُوَ مُحَمَّد بن عمر الْحَكِيم أَصله من ترمذ وَأَقَام ببلخ لَقِي أَحْمد بن خضرويه وَصَحبه، وَصَحب مُحَمَّد بن سعد بن إِبْرَاهِيم الزَّاهِد، وَمُحَمّد بن عمر بن خشنام الْبَلْخِي، لَهُ الْكتب الْمَشْهُورَة فِي أَنْوَاع الرياضات والمعاملات والآداب، وَأَسْنَدَ الحَدِيث. انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 178، رقم: 33.

[458] السلمي، **حقائق التفسير**، 361.

[459]. فالنفس اللوامة في رأيه تصحب كل إنسان إن كان مؤمنًا وإن كان كافرًا، فالمؤمن تلومه على التقصير في جنب الله، والكافر تلومه على إعراضه عن طاعة الله، وإنكاره وجحوده لدين الله. والذي يراه الباحث أن الأنفس تختلف باختلاف أصحابها، فهناك القاسطون، وهناك المقسطون، وهناك الصالحون، وهناك دون ذلك، ولكلٍ نفسُهُ وجبلته، وسلوكه ومنهجه.

ولعل النفس اللوامة هي التي تراوح بين الخير والشر، تغالب شهواتها تارة، وتسقط في حمأة المعصية تارة أخرى، فصاحبها دائم التقلب بين الملامة والحسرة، والخشية والهيبة، ويكون ذلك عقب اقتراف ذنب أو خطيئة، أو تقصير في جنب الله، أو تفريط بحقه سبحانه.

وربما لا أُبعد كثيرًا عن حقيقتها إنْ سميتها بمفهوم الضمير الحي؛ فعندما يستيقظ الضمير من غفلته، ويصحو من رقدته، وينتبه إلى تصرفات صاحبه، يأخذ باللوم والتأنيب، والعتب والتذكير بالفطرة التي فطره الله عليها، من حب الخير والرغبة في فعله، وكراهية الشر والرغبة في تجنبه. وقد عرف الشريف الجرجاني النفس اللوامة بقوله: "النفس اللوامة: هي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت به عن سِنَة الغفلة، كلما صدرت عنها سيئة، بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها وتتوب عنها" [460].هنا تبدو النفس اللوامة مستنيرة بعد ظلمة، متنبهة بعد غفلة، كلما صدر عن صاحبها ذنب أو خطيئة لامته وعاتبته، حتى ترده إلى جادة الصواب.

أما الإمام الغزالي فقد كان له فهم آخر للنفس اللوامة، حيث يرى لها مقاما أرفع، ومكانة أعلى، فهي لا تلوم صاحبها على زلة أو تزجره عن هفوة، وإنما تلومه على تقصير في عمل الخير، أو تهاون في صنع معروف؛ فيقول: "سُمِّيت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه"[461]. فهنا

---

[459] انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**، 654/3، بتصرف.

[460] الجرجاني، **التعريفات**، 243.

[461] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 4/3.

النفس متيقظة موفزة[462]، كلما قصر صاحبها بالطاعات، لامته على تقصيره، وعاتبته على تقاعسه؛ فهي دائمة الحضور، لا تبرح ولا تنفك تعاتب وتؤنب، وتلوم وتهذب، حتى يترقى صاحبها في مدارج الكمال، فيجتهد في الطاعات، ويبادر للخيرات، تفاديًا للَّوم والعتاب.

هذه النفس التي تأخذ بلوم صاحبها ومعاتبته، على مخالفة شرعية، أو اقتراف معصية، أو نزوة طائشة، ولربما كان لومها على غفلة عن طاعة، أو تقصير في جنب الله سبحانه؛ إنها تردع صاحبها كي يرجع إلى ربه ويتوب، ويستغفره ويؤوب. وقد عظَّم الله هذه النفس، ونبه عباده لمكانتها عنده، فأقسم بها بعد أن أقسم بيوم القيامة، يوم الفزع الأكبر، فقال:﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:1-2]؛ وعند تفسير هذه الآية طرح الفخر الرازي في تفسيره تساؤلًا: "ما المُنَاسِبَةُ بَيْنَ الْقِيَامَةِ وَبَيْنَ النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، حيث جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي الْقَسَمِ؟"[463] ثم أجاب إجابة شافية، بعد أن عرض تفاسير السلف لهذه الآية فقال:" وَالْجَوَابُ مِنْ وُجُوهٍ، أَحَدُهَا: أَنَّ أَحْوَالَ الْقِيَامَةِ عَجِيبَةٌ جِدًّا، ثُمَّ الْمَقْصُودُ مِنْ إِقَامَةِ الْقِيَامَةِ إِظْهَارُ أَحْوَالِ النُّفُوسِ اللَّوَّامَةِ. أَعْنِي سَعَادَتَهَا وَشَقَاوَتَهَا، فَقَدْ حَصَلَ بَيْنَ الْقِيَامَةِ وَالنُّفُوسِ اللَّوَّامَةِ هَذِهِ المناسبة الشديدة. وَثَانِيهَا: أَنَّ الْقَسَمَ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ تَنْبِيهٌ عَلَى عَجَائِبِ أَحْوَالِ النَّفْسِ: فمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ..."[464]

إن القسم الإلهي بالنفس بعد القسم بأعظم يوم يخطر بالبال، حري أن ينتبه الإنسان لهذه النفس ويُعنى بها، ويتلمس السبيل إلى فهم خطراتها، لأنها هي ميزان صاحبها يوم العرض الأكبر عند الحساب. يوم تنصب الموازين للنفوس، فلا ظلم ذلك اليوم ولا جور. في ذلك اليَوْم تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ، وسيناقش كل امرئٍ بما كسب. فَمَنْ رجع إلى نَفْسه في هذه الحياة الدنيا، وأصغى إلى حديثها في

---

[462] موفزة: متهيأة

[463] محمد بن عمر فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، 721/30.

[464] الرازي، **مفاتيح الغيب**، الصفحة السابقة نفسها. (أما القول المأثور: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» فقد نسبه كثير من الصوفية إلى النبي عليه السلام، ولم أجد له أصلًا).

خطراتها، فراجع حسابه قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ، خَفَّ عليه المقام يوم العرض، وَحَسُنَ خطابه وجَوَابُهُ، وَمَنْ لَمْ يُحَاسِبْها وقضى عمره باللذات والغفلات، عضَّ على أصابع الندم، ودَامَتْ له الحَسَرَاتُ، ولات ساعة مندم.

جـ – النفس المطمئنة:

وهي النفس التي رضيت بالله تعالى، ورضي الله بها، فبلغت من كمال الإيمان وذاقت لطائف الإحسان، وترقَّتْ في مدارج العرفان، فاطمأنت بموعود الله، ورغبت فيما عنده دون سواه، قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً*﴾ [الفجر:7-28]. وعند تفسير هذه الآية قال سهل التستري –رحمه الله–: "هذا خطاب لنفس الروح الذي به حياة نفس الطبع، والمطمئنة المصدقة بثواب الله وعقابه"[465].

لقد اعتبر التستري النفس المطمئنة هي الروح التي تُصَدِّق بموعود الله وثوابه، رغم أن النفس تباين الروح في التصور الراجح لدى الكثير من العلماء؛ فالنفس تذوق الموت بمصداق قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185] أما الروح فهي سرٌّ اختص الله–سبحانه وتعالى–نفسه به، ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه. وقد رُوي تسليم النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على القبور التي فنيت أجساد أصحابها، وسلامه يصح أن يكون حجةً لمن يقول: إن الأرواح باقيةٌ لا تفنى بفناء الأجسام..."[466]

---

[465] التستري، **تفسير التستري**، 194.

[466] انظر: عياض بن موسى اليحصبي السبتي، **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تحقيق: يحْيَى إِسْمَاعِيل (القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع 1419هـ)، 47/2.

أما الشريف الجرجاني فقد عرفها في كتاب التعريفات بقوله: "النفس المطمئنة: هي التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة" [467]. إذن: هي التي اطمأنت لسلوكها منهج الفطرة، الذي فطرها الله عليه، فأبصرت الحق واتبعته، كما أبصرت الباطل واجتنبته.

ولأبي طالب المكي[468] رأي في حقيقة النفس المطمئنة، فهي عنده النفس الأمارة نفسها، التي جاهدها صاحبها حتى استسلمت، وساسها حتى انقادت، فلما ملكها صاحبها، وذاقت لذة المناجاة، وسعدت بمقام الملاقاة، اطمأنت لموعود الله، وسكنت لقضائه ومقدوره، يقول -رحمه الله-:" ثم ليصبر على مجاهدة النفس في هوى إن بلي به، فهذه الخصال من أفضل أعمال المريدين وأزكاها، ومعها تلهم النفس المطمئنة رشدها وتقواها، وبها تخرج من وصف الأمّارة بالسوء إلى وصف المطمئنة إلى أخلاق الإيمان...»[469].

وأما فخر الدين الرازي فإنه يجعل النفس المطمئنة في مقام التحقيق، وهو مقام المقربين الذين سكنت نفوسهم لمقادير الله، فاستوت عندهم السراء والضراء، واطمأنوا لتدابير الله سبحانه؛ ليقينهم أن الله لا يأتي عبده المؤمن إلا بخير. قال رحمه الله: " الإِنْسَانُ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَقَامِ الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ مَقَامُ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ وَمَقَامُ الْمُقَرَّبِينَ، فَهَهُنَا لَا يَسْكُنُ إِلَّا إِلَى اللَّه، وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا بِكِتَابِ اللَّه، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرَّعْدِ: 28]"[470].

---

[467] الجرجاني، **التعريفات**، 243.

[468] محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب: واعظ زاهد، فقيه. من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال. ثم سكن بغداد فوعظ فيها، وله كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، في التصوف، قدم بغداد واجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ فخلط في كلامه، فبدعه الناس وهجروه، وامتنع من الكلام بعد ذلك، توفي ببغداد سنة 386هـ. انظر: صلاح الدين، **فوات الوفيات**، 303/4. محمد بن الحسين بن محمد بن خلف المعروف بـ ابن الفراء، التوكل، تحقيق: يوسف بن علي الطريف (الرياض: دار الميمان للنشر والتوزيع 2014م)، 58.

[469] الحارثي، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، 316/1. أما خبر «أفضل الأعمال ما أكرهتم عليه النفوس» فلم أعثر له على سند في كتب الحديث.

[470] الرازي، **مفاتح الغيب**، 470/29.

أما أبو عبد الرحمن السلمي فقد نقل أقوالًا شتى عمن سبقه من أهل العلم، كل منهم له فهم لمعنى النفس المطمئنة، منهم الإمام الجنيد –رحمه الله– حيث عَرَّفَها بقوله: "النفس المطمئنة ألبسها الحق أوصاف الهداية، فصارت نفسًا لوامة" [471]. لقد جعلها الشيخ في مرتبة دون النفس اللوامة، وبهذا يخالف سائر من عرَّفها من علماء الصوفية.

أما ابن عطاء الآدمي فقد رفعها إلى أعلى المراتب، وألبسها أبهى الحلل فقال: "المطمئنة هي العارفة بالله التي لا تصبر عن الله طرفة عين" [472] وكأن ابن عطاء يريد أن يجعلها نقية صافية لا تشوبها شائبة؛ ولربما لا نبعد كثيرًا إن سميناها النفس الكاملة التي لا تعتريها الوساوس، ولا تشغلها الخواطر؛ فلا سلطان للشيطان عليها، وليس عندها له حيز ولا مكان، فهي دائمة الشخوص إلى مولاها –جل في علاه– فلا ترى إلا الله، ولا تأنس بسواه. فهذه هي النفس المطمئنة التي سميت بهذا الاسم من الأمن والأمان، الذي يعتريها بعد التعرف على مولاها، فهي آمنة لا يخالجها خوف ولا حزن، مؤمنة بالله وقضائه، مطمئنة لما قد استقر في أعماقها من حكمته، لا ينتابها شك ولا ريب، مستسلمة لمقاديره خيرها وشرها.

---

[471] انظر: السلمي، **حقائق التفسير**، 294 بتصرف.

[472] انظر: السلمي، **حقائق التفسير**، 294 بتصرف.

المطلب الثاني: مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، ومعالجتها

لقد أُمرنا بمجالدة النفس الأمارة بالسوء ومجاهدتها، وإعلان الحرب عليها، وذلك من علامات الإيمان بالله، وإيثاره على من سواه، لقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[473]. لقد عرَّف النبي الكريم المجاهد الحق بأنه هو الذي يجاهد هوى نفسه، يحجبها عن الشهوات المحرمة، مبتغيًا مرضاة الله تعالى.

فجهاد النفس هو الجهاد الأكبر، وحربها واجب على كل إنسان يبتغي مرضاة الله –تعالى– ويرجو رحمته، فهي العدو اللدود الذي يلازم الإنسان ولا ينفك عنه؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى *﴾ [النازعات: 40، 41] فنهي النفس عن الهوى يحتاج إلى صبر ومصابرة، وجهاد ومجاهدة، ودوام مراقبة ومحاسبة. وقد روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم– أنه قال لأصحابه، وقد انصرفوا من الجهاد: «أتيتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: "وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟" قال: «مجاهدة النفس»[474]. فقد عدَّ النفس خصمًا عنيدًا، لابد من دوام مجاهدته ومصاولته. وفي هذا المعنى يقول سفيان الثوري: "ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك به أجر، إنما عدوك نفسك التي بين جنبيك، فقاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك"[475].

ولما قرأ الإمام التستري قول الله –تعالى–: ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:92] سأله أحد تلاميذه عن معنى الآية، وأي إنفاق يبلغنا مراتب البر ومقامات القرب؟ فقال: " أي لن تبلغوا التقوى كلها حتى تحاربوا أنفسكم، فتنفقوا بعض ما تحبون،

---

[473] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 386/39، رقم: 23965.

[474] انظر: ابن بطال، شرح **صحيح البخاري**، 210/10.

[475] ابن بطال، شرح **صحيح البخاري**، 210/10.

ولا إنفاق كإنفاق النفس في مخالفتها، وطلب مرضاة الله عزَّ وجلَّ"[476]. لقد وضع الشيخ -رحمه الله- النفس الأمارة بالسوء، في موضع العدو اللدود، والخصم العنيد، وحث على مخالفتها ومحاربتها، كما يفعل بالخصم الذي يناهض خصمه ويجالده، فمخالفة النفس في مراداتها من أعظم الجهاد، ومن أقرب القربات إلى الله تعالى.

ويقف الشيخ محي الدين بن عربي عند قول الله تعالى: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف:53]. ليحذر كل مؤمن من شراسة هذه النفس، وشدة عداوتها، ولزوم مجاهدتها ومقاومتها، فالانهزام أمامها هلاك وخسران، وخيبة وخذلان، والانتصار عليها شرف وإيمان، ورفعة وسلطان. يقول رحمه الله: " واعلم أن النفس أشد الأعداء شكيمة، وأقواهم عزيمة، فجهادها هو الجهاد الأكبر، فمن ثبت قدمه في هذا الزحف، وتحقق بمعنى ذلك الحرف، انتهض بأعضائه في الملكوت مليكًا، وكان له المِلكُ جليسًا ..."[477].

يقر الشيخ بعداوة النفوس الأمارة بالسوء لأصاحبها، وخطرها الذي يتهدد هم إن لم ينتبه كل منهم لأسلحتها، فهي تقاتل بسيوف الشهوات، وأشهرها سيفان صقيلان: سيف البطن وسيف الفرج، فشهوة المأكولات والمشروبات، وشهوة الغريزة والجنس، التي تستهدف أعتى الرجال فتصرعهم، وأكثر الصرعى من الناس يكون بهذين السلاحين الفتاكين؛ والعاقل من تنبه لخطر هذا العدو والسلاح الذي بيده، فيحترس ويدفع ما استطاع.

ويقف الإمام القشيري عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً﴾ [الفرقان: 68] ليستنبط إشارة لطيفة في قتل النفس بغير حق حيث يَعْبُرُ من قتل الإنسان لأخيه الإنسان إلى تعامل الإنسان مع ذاته؛ وقتله

---

[476] التستري، **تفسير التستري**، 49.

[477] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 388/2.

نفسه، إما بحق وإما بغير حق؛ فقتل النفس بغير حق، تركها تسرح في وديان الشهوات، وترتع في ملذاتها، وتمرح في رغباتها؛ ويكون ذلك سببًا في إهلاكها وإتلافها، لأن تمكينها من هواها يؤدي إلى خيبتها وخسرانها، بل وعذابها في الآخرة، قال – رحمه الله–: " وقتل النّفس من غير حقّ تمكينك لها من اتباع ما فيه هلاكها في الآخرة"[478].

أما قتلها بحق فحجبها عن المخالفات والمنهيات، ومنعها من اتباع الأهواء والشهوات، ودوام مجالدتها حتى تسكن فورتها، وتخمد جذوتها، قال رحمه الله: "ثم دليل الخطاب أن تقتلها بالحقّ، وذلك بذبحها بسكين المخالفات، فما فلاحك إلا بقتل نفسك التي بين جنبيك"[479]. وهكذا نراه يهتم اهتماما ملحوظا بالحث على التغلغل في بواطن النفس، لمعرفة جوهرها ومكنونها، ومجالدة شهواتها ونزواتها، ويعتبر انتصار الإنسان على نفسه، وتمكنه من لجمها وإسكات صوتها، هو قتلها بحق، ويُعدُّ فلاحًا له وفوزًا؛ لأن تمكنها من صاحبها مدعاة للهلاك والخسران.

كما يقف عند قوله –تعالى–: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾[الأنفال:41]، ليستنبط إشارة لطيفة، يربط من خلالها بين الغنائم التي يحوزها المنتصر في المعركة، وبين المنتصر على نفسه في كبح جماحها، ولجم هواها، فيقول: "...وكما أن للجهاد الأصغر غنيمة عند الظفر، كذلك للجهاد الأكبر غنيمة، وهو أن يملك نفسه التي كانت في يد عدوّيه: الهوى والشيطان...»[480]. إنها غنائم الباطن التي ينالها المؤمن بانتصاره على نفسه بعد مجاهدتها، يغنم الرضا والقبول من الله، يغنم السكينة والطمأنينة في الحياة، يغنم سلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ تنقاد له نفسه فتطمئن لطاعة مولاها، وتستريح من شبق الشهوات، ونوازع المغريات، تسلم مقاليدها لصاحبها، فلا صراع معها ولا نزاع.

---

[478] القشيري، **لطائف الإشارات**، 650/2.

[479] القشيري، **لطائف الإشارات**، 651/2.

[480] القشيري، **لطائف الإشارات**، 31/1.

ولأَبي مُحَمَّدٍ الْجريرِي[481] فهم خاص للتعامل مع النفس التي يُحَذِّر من الركون إليها، ويدعو لجهادها ودفع رغباتها ومطالباتها، حتى لا تتغلب على صاحبها، وتوقعه في أسرها، وتحبسه في سجون شهواتها ونزواتها، يَقُول: " من استولت عَلَيْهِ النَّفس صَار أَسِيرًا فِي حكم الشَّهَوَات، محصورا فِي سجن الْهوى، وَحرَّمَ الله على قلبه الْفَوَائِدَ، فَلَا يستلذ كَلَامه وَلَا يستحليه، وَإِن كثر ترداده على لِسَانه؛ لِأَن الله –تَعَالَى– يَقُول: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الْأَعْرَاف:146][482] .

فيستنبط الشيخ من مفهوم الآية الكريمة إشارة طريفة، يبن من خلالها غلبة هوى النفس على فريق من الخلق، وانتصارها عليهم بشهواتها ورغباتها، فتغطي قلوبهم سحب الغفلات، وتغلفه حجب المعاصي بالظلمات، ويغرقون في مستنقعات الآثام؛ حتى لم يعودوا يفهمون مراد الله في كتابه العزيز، ولا يفقهون مقاصد شريعته، وأصبحوا ينفرون من سماع كلامه، ولا يلتذون بخطابه.

ويعقب على الآية بقوله:" أَي حَتَّى لَا يفهمونه وَلَا يَجدونَ لَهُ لَذَّة، لِأَنَّهُم تكبروا بأحوال النَّفس والخلق وَالدُّنْيَا، فصرف الله عَن قُلُوبهم فهم مخاطباته، وأغلق عَلَيْهِم سَبِيل فهم كِتَابه، وسلبهم الِانْتِفَاع بالمواعظ، وحبسهم فِي عُقُولهمْ وآرائهم، فَلَا يعْرفُونَ طَرِيق الْحق وَلَا يسلكون سَبيله"[483]. فالله عزيز لا يقبل من خلقه إلا من خضع لعظمته، واستكان لعزته، كما أن الطريق إليه لا يهتدي إليها من طغى وتكبر، واستعلى وتجبر. لذلك لا ينتفعون بموعظة، ولا يعتبرون بعبرة، قد صُرفوا عن سبيل الهداية، فهم في عماية الضلال، لا يهتدون ولا يبصرون حتى يروا العذاب الأليم.

---

[481] الجريري هو: أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن، كَانَ من كبار أَصْحَاب الْجُنَيْد، وَصَحب أَيْضا سهل بن عبد الله التسترِي، وَهُوَ من عُلَمَاء مَشَايِخ الْقَوْم، أقعد بعد الْجُنَيْد فِي مَجْلِسه لتَمام حَاله وَصِحَّة علمه. مَاتَ سنة إِحْدَى عشرَة وثلاثمائة. انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 203، رقم:41.

[482] السلمي، **طبقات الصوفية**، 205.

[483] السلمي، **طبقات الصوفية**، 205.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾[فصلت:25] ينقل السلمي عن الإمام الجنيد ما يتهم فيه بعض النفوس البشرية التي تأنس بالآثام، وتألف المعاصي، وتتسم بكراهية الحق، والنفور منه، حيث يقول: "النفس لا تألف الحق أبدًا."[484] لعل الشيخ هنا يخص النفس الأمارة بالسوء، فهي قرينة الشيطان وحليفته في هذا الحال، تستوحش من نور الهداية وتستأنس بظلام المعصية، لذلك يحذر من غائلتها، ويدعو إلى لجمها عن شهواتها، وحبسها عن تطلباتها. كما ينقل عن ابن عطاء الآدمي ما يتهم النفس البشرية بمحالفة الشيطان ومتابعته، للتجافي عن الحق ومخالفته، سعيًا لإهلاك الإنسان وخسرانه، حيث يقول: "النفس قرين الشيطان وأليفه، ومتبعه فيما يشير عليه، مفارقًا للحق مخالفًا له، لا يألف الحق ولا يتبعه"[485].

وهكذا نجد أئمة التصوف وعلماءهم يحذرون الناس من غوائل النفس وجرائرها، ويحرضون على محاربتها ومجاهدتها، ومخالفتها في نزواتها ورغباتها؛ لأنها حليفة الشيطان في تسويلها ووسوستها؛ فلربما -إن أصغى إليها صاحبها- سكن عقله، وانشرح صدره بالهوى، فغلب الهوى على القلب، وقوي سلطان النفس والشيطان؛ حينها يقبل الإنسان على رغبات نفسه وشهواتها وأمانيها؛ ويضعف سلطان الإيمان، ويخبو نور اليقين، فيرتفع الحياء، ويحتجب الإيمان؛ فتظهر المعصية، ويربو الفساد، فلا حياء يردعها، ولا إيمان يمنعها.

ولاسبيل لهم إلى مجاهدة النفس إلا بالاقتداء بكتاب الله وسنة رسوله، وهو الأصل الأول في سلوكهم وسيرهم إلى الله، فذلك الذي يقمع هوى النفس ورغباتها، وينور القلب وينعش الروح. يقول سَهْلٌ التستري-رحمه الله-: "كُلُّ عَمَلٍ بِلَا اقْتِدَاءٍ فَهُوَ عَيْشُ النَّفْسِ، وَكُلُّ عَمَلٍ بِاقْتِدَاءٍ فَهُوَ عَذَابٌ عَلَى

---

[484] السلمي، **حقائق التفسير**، 217.

[485] السلمي، **حقائق التفسير**، 217.

النَّفْسِ "[486]. فلا راحة للنفس الأمارة إلا بالانغماس في وحول الشهوات، والسياحة في غياهب الظلمات، يسعدها الهوى، وتريحها الغواية، ويحزنها نور الهداية، ويتعبها اتباع الحق؛ والاقتداء برسول الله، والسير على منهاجه، والعمل بكتاب الله، وبما فيه من أحكام، وهو أصل في السلوك، فلا غنى لسالك طريق الحق عنه في سائر شؤون حياته.

[486] ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، 331/5.

المطلب الثالث: تزكية النفس البشرية وترقيتها

كيف يتسنى للمؤمن تزكية نفسه، ونشلها من وحول الشهوات، ورفعها إلى أعلى المقامات؟ لابد للإجابة عن هذا السؤال أن ندرك معنى التزكية في اللغة والفقه. قال ابن سيده في المحكم والمحيط الأعظم:" الزَّكاء، مَمْدُود: النَّمَاء والرَّيْع ... والزِّكاة: مَا أخرجته من مَالك لتطهّره بِهِ..."[487]

نفهم من هذه التعريفات اللغوية أن التزكية تطهير وإنماء، ولعلها للنفس كما للمال، فتزكيتها تطهيرها من كل رجس ودنس، وإنماؤها زيادتها وتحليتها بالأوصاف الحميدة، وترقيتها إلى المقامات الرفيعة، والسمو بها إلى مصاف الملائكة بالنقاء والصفاء، والطهر والزكاء.

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات القرآنية بالأمر بتزكية النفس وتهذيبها، قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 14-15] وكأن هذه الآية ترشد إلى طريق التزكية، الذي ينحصر في كثرة ذكر الله، ومداومة الصلاة، حيث يكون العبد خلالها دائم الصلة بالله -سبحانه وتعالى- مما يجلو صدأ قلبه، وينقي ثنايا روحه من كدر الآثام، ويكشف عنها ظلمات المعاصي.

كما يقول -جل في علاه-:﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها *فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها*﴾ [الشمس: 7-8-9-10]. ولا يقسم الحق -سبحانه- بشيء من مخلوقاته إلا لينبه على مكانته، ويدل على أهميته، وها هو يقسم بالنفس، ويدعو عباده لترقيتها وتزكيتها، لكي تسمو إلى المكانة التي يرضاها لها ربها.

---

[487] علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م)، 126/7، بإيجاز.

وهنا تبدو أهمية النفس التي يُعنى صاحبها بتزكيتها، فتجد حظها من الفلاح والنجاح بسبب تزكيها وإصلاحها، ويحذر من الخيبة والخسران، الذي ينتظر كل من يترك نفسه تسرح كما تشاء في أودية الغفلات واللذات، مستغرقة في لجج المعاصي والشهوات. لكن السؤال الذي يطرح نفسه، كيف يتسنى للعبد المؤمن تزكية نفسه وترقيتها؟ وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي ترضي ربها؟ سئل النبي –صلى الله عليه وسلم –: ما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أن الله –عز وجل– معه حيث كان»[488]. خلاصة المنهج النبوي لتزكية النفس، مراقبة الله في الحركات والسكنات، واستحضار معيته على كل الأحوال. وذلك كفيل بتزكية النفس وترقيتها، ووقوفها عند حدود الله، وعدم تعديها أو اقتحامها المخالفات.

يقف الإمام التستري عند قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[الانفطار:6] ليستنبط إشارة لطيفة في مراقبة النفس لباريها، وذلك باستحضارها معيته على كل حال، فيتساءل أمام هذه الآية: ما سبب هذه الغفلة من العبد عن ربه: "أي ما غرك بدونه فقطعك عنه مع لطفه وكرمه؟"[489]. وعندما قيل له: ما القاطع الذي يقطع العبد عن ربه؟ أفصح عن منهج محكم يربط العبد بربه، ويجعله دائم التواصل به، يستحضر وجوده معه في سائر شؤونه، فقال:"العبد لله والله لعبده، وليس شيء أقرب إليه من قلب المؤمن، فإذا حضر الغير فيه فهو الحجاب، ومن نظر إلى الله بقلبه بَعُدَ عن كل شيء دونه..." [490].

إذن لا يحجب نور الله عن قلب الإنسان إلا صور الأكوان، فمن أعرض عنها باشر الإيمان قلبه، فاستغنى عن سائر الخلق، وتولى الله أمره، فحبب إليه الطاعات، وكره إليه المعاصي، وحرسه من مكايد

---

[488] سليمان بن أحمد الطبراني، **الروض الداني "المعجم الصغير"**، تحقيق: محمد شكور أمرير (بيروت: المكتب الإسلامي، 1985م)، 334/1، رقم: 555.

[489] التستري، **تفسير التستري**، 188.

[490] التستري، **تفسير التستري**، 188.

الشيطان، فما عاد له عليه سلطان: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء:65].

ثم يتوجه التستري إلى كل من يبتغي تزكية نفسه وترقيتها، ونقاء روحه وتطهيرها، ليوجه الاهتمام إلى دوام المراقبة لله، والمثابرة على طاعته، مع التبرؤ من الحول والقوة، والافتقار إلى حول الله وقوته، والإعراض عن كل ما في الكون من أعراض، فيقول: "ألزموا قلوبكم، نحن مخلوقون وخالقنا معنا...، فإن من لزمها كان الهواء والفضاء والأرض والسماء عنده سواء"[491]. إي والله! من عرف الله فقد عرف الحق، الذي له البقاء والدوام، وما عاد ينظر إلى ما سواه، لأن كل ما سواه عرض زائل مآله الفناء. ومدار ذلك كله على النفس الإنسانية التي ترفع صاحبها وتكسبه الفلاح إن زكاها، وتورده المهالك والخسران إن خلى بينها وبين هواها.

وقد أقسم الله –عز وجل – في كتابه العزيز بالكثير من عظائم مخلوقاته على فلاح من زكى نفسه، وخسران من أهملها وتركها مستغرقة في غمراتها، قال تعالى: ﴿...وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها *﴾[الشمس:1...10]. قد أفلح من علم ما يراد منه وما يخاطب به، وخاب من أهمل ذلك، قد فاز من أقبل على ربه، وخسر من أعرض عنه. لذلك قال أبو بكر بن طاهر[492] معقبًا على هذه الآية: "قد أفلح من طهر سره عن التدنس بالدنيا، وخاب من شغل سره بها"[493].

لقد قرن الفلاح والفوز بطهارة السر (وهي النفس)، فلا فلاح للمؤمن إلا بتزكيتها وتطهيرها. والأهم من هذا كله أن الله –سبحانه– قد جعل تزكية النفس شرطًا لدخول الجنة؛ والطريق إليها منوط

---

[491] التستري، **تفسير التستري**، 188.

[492] أَبُو بكر طَاهِر الْأَبْهَرِيّ اسْمه عبد الله بن طَاهِر بن حَاتِم الطَّائِي، كَانَ من أجل الْمَشَايِخ بِالْجَبَلِ وَهُوَ من أَقْرَان الشبلي، كَانَ عَالما ورعاً، مَاتَ قرب الثَّلَاثِينَ وثلاثمائة وَأسْندَ الحَدِيث، انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 295، رقم:72.

[493] السلمي، **حقائق التفسير**، 397.

بردعها عن أهوائها وحجبها عن شهواتها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النازعات: 40-41].

ويقف ابن عربي -رحمه الله-عند الآية السابقة، ليستنبط إشارة ترسم للمؤمن منهج الفوز والنجاة، وأسباب دخول الجنة، رغم مشقة العمل ومكابدة السبيل إلى ذلك؛ حيث يقول: "ومخالفة النفس هو الموت الأحمر، وهو حال شاق عليها، ولا تخالف النفس إلا في ثلاثة مواطن: في المباح، والمكروه، والمحظور لا غير... "[494].

فلا تتأتى سعادة الإنسان إلا بتزكية النفس وترقيتها، فعندما تزكى النفس وتهذب يصبح هوى العبد في مراد الله، وميله إلى محاب الله ومراضيه، وكل إنسان فطر على حب الكمال، ولا يبلغ الكمال إلا بتربية نفسه وتزكيتها وترقيتها، وكما أن الأبدان تصاب بالأعراض والأمراض، كذلك النفوس تصاب بما تصاب به الأبدان، فهي محتاجة إلى رعاية ومتابعة لاكتساب الخير والتحلي به، لأنها وعاء إيمانه، وهذا الإيمان رأس مال الإنسان، فإذا خسره فما الفائدة من حياته؟ لذلك لا بد من العمل على تنمية هذا الإيمان وزيادته عن طريق تزكية هذه النفس وتهذيبها، وتطهيرها من أمراضها وأخلاقها الرذيلة. فمن حسن عمله وصلحت سريرته وتزكت نفسه، نال الرضا والقبول من الله، فحاز الفوز والنجاح في سائر شؤون الدنيا وأمور الآخرة، حيث تواردت عليه المبرات، واستدامت له المنن والأعطيات، وتواصلت له الهبات والمكرمات.

والعبد يمضي في الوجهة التي يرتضيها لنفسه، فإذا أطلق لها العنان، وتركها وهواها جرته إلى أسفل سافلين، وإن هو راضها وقادها إلى محاب الله ومراضيه ارتقى بها إلى أعلى المراتب؛ ورياضتها تزكيها؛ وذلك يجعلها مُلكًا لصاحبها، يستطيع توجيهها نحو الخير، إن دعاها إلى عبادة انقادت له

---

[494] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 447/4.

واستسلمت، وإن دُعيت إلى شر وجد منها تأبياً ونفوراً، وتعويدها على ترك الأخلاق الذميمة، واكتساب الأخلاق الحميدة يجعلها كالدابة المطيعة المنقادة، يحمل عليها ما يشاء، وتسير به إلى حيث شاء، أما إذا أرخى لها الحبل على الغارب، وتركها وهواها، فإنها تكون شروداً حروناً، إذا احتاج إليها لم يستطع إمساكها، وإذا أحست بأي حمل سيحمله عليها نفرت وتأبت. وشتان بين من ملك نفسه ومن ملكته نفسه. فمن ملك نفسه ملك الزمام لسائر شؤون حياته، أما من ملكته شهوات نفسه ونزواتها فهو عبد رقيق عندها، تسيره نفسه حيث شاءت، وترميه في مهاوي الردى متى أرادت. يقول الحسن البصري[495] رحمه الله بهذا المعنى: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ»[496].

ولربما اشتد مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ[497]، في ضرورة محاسبة النفس ومخاصمتها، فلكي يتصف المؤمن بالتقوى لابد له من التشدد في التعامل مع نفسه، فيقول: "لَا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ"[498]. إذن لا بد من مراقبة هذه النفس ومتابعتها، واختبار مدى استعدادها لأوامر الله وفعل الخير، وانصياعها لكل مراضي الله، وتحاشيها كل مساخطه.

---

[495] الحسن البصري: هو: الحسن بن أبي الحسن. واسم أبيه «يسار»، مولى «الأنصار» واسم أمه: «خيرة» مولاة ل «أم سلمة» زوج النبي- صلّى الله عليه وسلم. قالوا: وكانت «خيرة» أمه ربما غابت، فيبكي، فتعطيه «أم سلمة» ثديها تعلله به، إلى أن تجيء أمه، فيدر ثديها فيشربه. فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك. انظر: عبد الله بن عبد المجيد بن قتيبة الدينوري، **المعارف**، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م)، 440.

[496] عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، **محاسبة النفس**، تحقيق: المستعصم بالله مصطفى بن علي بن عوض (بيروت: دار الكتب العلمية، 1406هـ)، 25، رقم:6.

[497] ميمون بن مهران: كان «ميمون» مكاتبا لبنى نصر بن معاوية، فعتق، وكان «ميمون» واليا لعمر بن عبد العزيز، على خراج «الجزيرة»، وكان «ميمون» بزّازا، فكان يجلس في حانوته، وهو يتولى الخراج. ومات سنة سبع عشرة ومائة، انظر: ابن قتيبة، **المعارف**، 449.

[498] ابن أبي الدنيا، **محاسبة النفس**، 25، رقم: 7.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– ينبه إلى هذه الحقيقة، فيقول: « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[499]، فقوله دان نفسه: أي راقبها وحاسبها واتهمها، ولم يعطها مرغوباتها ومتطلباتها من شهوات الدنيا ونزواتها.وهناك فريق من الناس معتز بنفسه، معجب برأيه، يرى عيبها حُسناً، وخطأها سدادًا، فيرضى عن سلوكاته، ويستصوب آراءه، وهذا الطبع من أقبح الطباع، وأسوأ الأخلاق، يسمه الله –سبحانه –بالكذب والافتراء، فيقول في محكم التنزيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً *﴾ [النساء:49].

يقف السلمي عند هذه الآية ليشير إلى أن نور الإيمان الذي لا يباشر قلب من يمدح نفسه ويعتز بها، فيقول: "ليست الأنفس محل التزكية، فمن استحسن من نفسه شيئًا فقد أسقط عن باطنه أنوار اليقين"[500].وذلك لأن الله عزيزٌ مستغنٍ عن خلقه، وهم فقراء إليه؛ فلا يقبل عبدًا يرى لنفسه حظًا يعجب به، ولا يهب –سبحانه–نور اليقين إلا لمن وقف بباب عزه مفتقرًا منكسرًا، متهمًا نفسه بالتقصير والعجز.

ويقف القشيري –رحمه الله – عند الآية السابقة ليستنبط إشارة لطيفة يعتبر فيها أن من يركن إلى تزكية الناس له، فيرضى عن نفسه ويعجب بها، فقد جعل بينه وبين الله –سبحانه — حجابًا مستورًا، يتوهم الصلاح في حاله ومآله، وهو بعيد عنه بعد المشرقين يقول: " من ركن إلى تزكية الناس له، واستحلى قبول الخواص له– فضلا عن العوام– فهو من زكّى نفسه، ورؤية النّفس أعظم حجاب ..." [501].

---

[499] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 350/28، رقم: 17123.

[500] السلمي، **حقائق التفسير**، 149.

[501] القشيري، **لطائف الإشارات**، 338/1.

فلا تنفعه كثرة الأوراد، كما لا تفيده مكابدة الاجتهاد، مادام يرى في نفسه الكمال فيعجب بها، يغسل أطرافه من الأذى، وفي قلبه صنوف القذى. فما نفع طهارة الظاهر إذا لم يصحبها طهارة الباطن؟ إذ لا يستقيم طهر الباطن إلا بالإخلاص لله، والتنزه عن الحقد والحسد، والغل والغش، وتخلية القلب عما سوى الله، يعبده لذاته لا لعلة أو غرض، يفتقر إليه، ويسلم مقاليده لديه؛ فإذا أخلص لله بما كلفه به وارتضاه، حفته العناية حيثما سار أو اتجه، وعلمه الله من لدنه ما لم يكن يعلم.

وعند قول الله –سبحانه–:﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقُوا اللَّه...﴾[الحشر: 18] يقف القشيري ليفصل في أحوال النفس، ويميز بين الموضعين لكلمة التقوى المتكررة في الآية: "فالتقوى الأولى تمثل الحال والفكر في العمل خيره وشرّه، والتقوى الثانية تمثل تقوى المراقبة والمحاسبة". ثم يمضي في الإشارة ليبين أن "من لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله... فعن قريب سيفتضح." [502]

وهنا يميز القشيري بين المحاسبة والمراقبة، فالمحاسبة إحصاء لكل شاردة وواردة على النفس، في خطراتها وغفلاتها، أما المراقبة: فمتابعتها في كل أحوالها بالحركات والسكنات، وربطها بالله، ليدوم ستره– سبحانه–لها، وعدم كشف نقصها وعوارها للخلق، وإلا فلا يأمن صاحبها من هتك الستر عنه، لأن الله –سبحانه– يمهل عبده ولا يهمله.

ويفصل –رحمه الله — في بيان منهج المحاسبة والمراقبة، الذي ينبغي أن يسلكه العبد المؤمن بقضاء الله في الحياة الدنيا، والموقن بلقائه وجزائه في الآخرة، فيقول: "وعلامة من نظر لغده أن يحسن مراعاة يومه، ولا يكون كذلك إلّا إذا فكّر فيما عمله في أمسه، والناس في هذا على أقسام: مفكّر في أمسه: ما

[502] القشيري، **لطائف الإشارات**، 566/3.

الذي قسم له في الأزل؟ وآخر مفكّر في غده: ما الذي يلقاه؟ وثالث مستقل بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت"[503].

فالعباد في المحاسبة والمراقبة فرقاء، فريق منهم ينظر فيما قدم أو أخر، يحاسب نفسه على ما أسلفت من قول أو عمل، وما قُدِّرَ لها في علم الله وقضائه المبرم، وفريق يتفكر فيما سيؤول إليه حاله، وما سيكون منه فيتدبر، وفريق شغله بربه واستغراقه بذكره، يغنيه عن ماضيه ومستقبله، فهو في شهود دائم لمقام الجلال والجمال، مستغرق في حضرة القدس الأسمى.

ويرى الإمام التستري أن ترك النفس تسرح في وديان الغفلات، وتمرح في مرابع الشهوات واللذات، ولا يردعها صاحبها عن غيها، ولا يحاسبها على تفريطها، ما ذلك إلا قتل لها مع سابق عمد وإصرار، ويستنبط ذلك بإشارة لطيفة من قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [النساء:29] فيقول: "يعني لا تهلكوا أنفسكم بالمعاصي والإصرار، وترك التوبة عند الرجوع إلى الاستقامة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ حيث حرم عليكم المعصية، كي لا تهلكوا" [504]. وكأن الله ينهى العبد عن قتل نفسه بتركها من غير تزكية، لأن الأمور بمآلاتها، فمآل الغافلين الهلاك والشقاء في العذاب، كما أن مآل الذاكرين الفوز والفلاح، والحياة الرغيدة في االنعيم.

ويتفق القشيري مع التستري، في تفسير قوله تعالى:﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ : بأن قتل المرء نفسه يكون بارتكابه المعاصي والخطايا، التي تتسبب بإهلاكها، وتعريضها لسخط الله وعقوبته، فيقول: " يعنى بارتكاب الذنوب، ويقال تعريضها لمساخطته سبحانه" [505]. لكنه يضيف إشارة لطيفة يثري من خلالها المعنى ويزيده بيانًا، فيرى أن قتل العبد نفسه مرهون بالنظر إليها واستحسان فعلها، والإعجاب بسلوكها،

---

[503] القشيري، **لطائف الإشارات**، 566/3.

[504] التستري، **تفسير التستري**، 53.

[505] القشيري، **لطائف الإشارات** 327/1.

وهي تسلك مسلكًا لا يرضاه الله فلا يردعها، بل يرخي لها العنان، ولا يكبح جماحها، فيتسبب لها بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم. يقول -رحمه الله-:" ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها. ويقال باستحسانكم شيئا منها بإيثارها دون رضاء الحق. ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فإنّا لا نخليه من عقوبة شديدة، وهو أن نكلها إلى صاحبها، ونلقي حبلها على غاربها"[506]. وهكذا يرى علماء الصوفية أن قتل النفس مرهون بعدم تزكيتها، وبتركها تندس في غفلاتها ومعاصيها، فيكون ذلك سببًا في إهلاكها.

أما كيف يزكي العبد نفسه؟ وما سبل تزكيتها؟ فلابد من اتباع منهج: "التخلية ثم التحلية"؛ والتخلية تطهير النفس من الأخلاق الذميمة كالرياء، والعجب، والشح، والبخل، والحرص، والطمع، والأمن من مكر الله، بعد التوبة النصوح، وملازمة الاستغفار واستدامة الضراعة والابتهال، عملًا بقول النبي-صلى الله عليه وسلم- «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[507]، والإقلال من النوم والهجود، فمن عرف ربه اشتاق لمناجاته ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ [الذاريات: 17، 18]، وكذلك التخفف من الطعام، فالجوع مزرعة الفكرة، والبطنة تذهب الفطنة؛ لذلك أدام السالكون الصوم، واستأنسوا بالجوع، وتقللوا من الطعام، وكذلك دوام الصمت وقلة الكلام، " فمن سكت فسلم، كان كمن تكلم فغنم.

ومن علامات العاقل حسن سمته، وطول صمته"[508] والتحلي بالصبر على مداومة الطاعة، والصبر عن المعصية، واليقين على الله بأن كل ما ينزل بالمؤمن من المحن والبلاء، وكل ما يحل به من المصائب واللأواء، ما هو إلا خير له، فلا جزع ولا فزع، ولا ضجر ولا هلع.﴿ إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً *

---

[506] القشيري، **لطائف الإشارات**، 327/1.

[507] الترمذي، **سنن الترمذي**، 456/5، رقم 3371 من حديث أنس بن مالك.

[508] عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، **اللطائف والظرائف** (بيروت: دار المناهل، د.ت)، 107.

إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَاّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ *﴾[المعارج: 19...23].

أما التحلية فهي اكتساب الأخلاق الحميدة الفاضلة: كالإخلاص والإنابة، والخوف من الله، وشكره على دوام نعمه، والتواضع لخلقه، مع ملازمة الذكر والتسبيح، والمراقبة والمحاسبة. وهذا المنهج هو الذي عمل به السادة الصوفية في سيرهم وسلوكهم إلى الله تعالى. مستبصرين بآيات القرآن العظيم، وأحاديث النبي الكريم.

وهكذا يتجلى في هذا المبحث دور التفاسير الإشارية في إصلاح النفوس وتزكيتها وترقيتها؛ حيث يعرض المفسرون الربانيون من خلال استنباط الإشارات والدلالات من الآيات القرآنية مكانة النفس وأهميتها، ويشيرون إلى مسؤوليتها عن سلوكات الإنسان وأفكاره ونزواته، وأخلاقه، وانفعالاته، وتوجهاته. ومن رحمة الله وعدله أن جعل للإنسان سلطانًا على نفسه، يمكنه كبح جماحها، وضبط نزواتها وشهواتها.

وقد قسم العلماء طبائع النفوس وجبلاتها إلى طبقات ثلاث:

– فمنها النفس الأمارة بالسوء: وهي الحريصة على دفع صاحبها نحو اقتراف الخطايا والمعاصي، وتزيين الشهوات لإيقاع صاحبها في المهلكات.

– ومنها النفس اللَّوَّامَةُ: التي تلوم صاحبها إذا زلَّ أو كلَّ، أو قصَّر في جنب الله، فهي تراوح بين الخير والشر، تغالب شهواتها تارة، وتسقط في حمأة المعصية تارة أخرى.

– ومنها النفس المطمئنة: التي رضيت بالله تعالى، ورضي بها، فبلغت كمال الإيمان وذاقت لطائف الإحسان، وترقَّتْ في مدارج العرفان، فاطمأنت بموعود الله، ورغبت فيما عنده.

فالنفس الأمارة تحتاج إلى تزكية وإصلاح، لأن انشغالها بالشهوات، وتعلقها بصور الأكوان يحجبها عن أنوار الفيوضات، أما من أعرض عن الشهوات، وانتبه من رقدة الغفلات، يباشر قلبه الإيمان، ويستغني عن سائر الأكوان، فيتولى الله أمره، ويحبب إليه الطاعات، ويكره إليه المعاصي والنزوات، ويحرسه من مكايد الشيطان، فما يعود له عليه من سلطان. فعندما تزكى النفس وتهذب يصبح هوى العبد في مراد الله، وميله إلى محاب الله ومراضيه، وكل إنسان فطر على حب الكمال، ولا يتأتى له الكمال إلا بتربية نفسه وتزكيتها وترقيتها، فهي محتاجة إلى رعاية ومتابعة لاكتساب الخير والتحلي به، لأنها وعاء إيمانه.

أما كيف يزكي العبد نفسه؟، وما سبل تزكيتها؟ فلابد من اتباع منهج: "التخلية ثم التحلية"؛ وذلك بتطهير النفس من الأخلاق الذميمة كالرياء، والعجب، والشح، والبخل، والحرص، والطمع، والأمن من مكر الله، بعد التوبة النصوح، وملازمة الاستغفار واستدامة الضراعة والابتهال، واكتساب الأخلاق الحميدة الفاضلة: كالإخلاص والإنابة، والخوف من الله، والشكر والتواضع، مع ملازمة الذكر والتسبيح والمراقبة والمحاسبة.

مخطط توضيحي لأنواع النفوس ودرجاتها

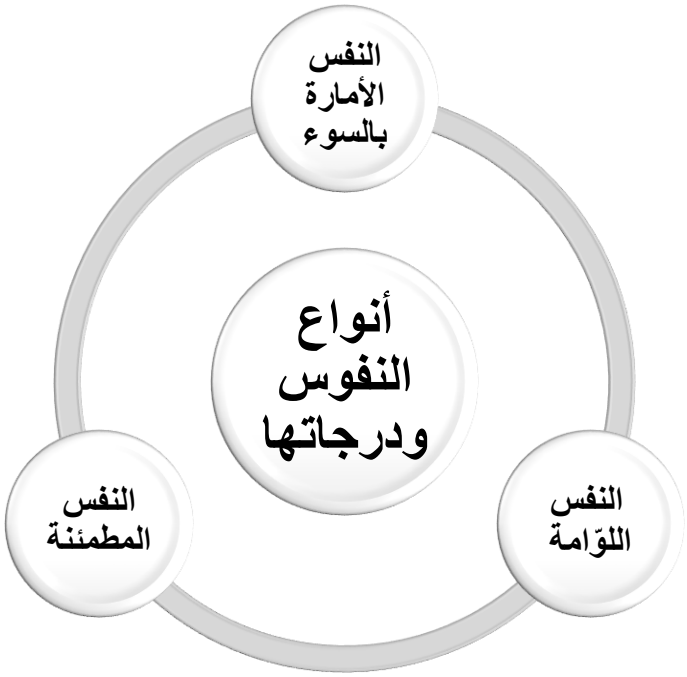

المبحث الثالث: دور التفاسير الإشارية في الاستقامة، وحسن التعامل مع الخالق والمخلوق.

تهدف الشريعة الإسلامية بمقاصدها إلى استمرار التعايش في الحياة الدنيا بين البشر، بالتعاون على البر والتقوى، وحسن التواصل لفعل المعروف وتحاشي المنكر، والعمل على إعمار الكون بالصلاح، لكي تستمر الخلافة الإنسانية في الأرض على مراد الله – سبحانه – ولا يتم ذلك له إلا باتباع المنهجين العظيمين اللذين شرعهما الله لخلقه، في كتابه العزيز، الذي بين فيه كل أسباب السعادة البشرية في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام، الآية:38]. فقد وضع الله –سبحانه–لخلقه منهج الفلاح والنجاح في الدنيا، وكذلك منهج نيل مرضاة الله في الآخرة، حيث عبر عنهما بقوله:﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد: 10].

والنجدان في القرآن العظيم هما: دستور الحياة الدنيا المعهودة، ودستور الحياة الآخرة الموعودة، أما دستور الحياة الدنيا ففيه بيان سبل معاملات الخلق فيما بينهم؛ حيث بين لهم تشريع الحلال والحرام، والمستحب والمكروه في سائر تعاملاتهم، أما دستور الآخرة ففيه بيان مفهوم عقيدة التوحيد، وتزكية النفوس وسلامة القلوب، وتشريع العبادات المنوطة بالعباد، وصِدْقُ التوجهِ في كل ذلك إلى الخالق المعبود الذي لديه مقاليد الوجود، وإليه المرجع والمآل في كل أمر، وعلى كل حال. وقد تنبه العلماء الربانيون لهذه الحقيقة، فلم تفتهم آية يتلمسون فيها إشارة لحسن التعامل مع الخلق والخالق، إلا كان لهم فيها بصمة مؤثرة، تُسهم في إسعاد العباد، وبث الطمأنينة والسكينة في أنفسهم.

وذلك من خلال تعزيز القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، التي ينبغي أن يكتسبها المؤمن، ليحسن التعامل مع الخالق ومع الخلق، ولا يتأتى له ذلك إلا بصحبة الأخيار الصالحين، والتخلق بأخلاقهم،

واكتساب طباعهم، لكي يمتلك العبد المؤمن الطاقة النورانية، التي يمكنه حينها حسن التعامل مع الخالق جل في علاه، ومع المخلوق الذي ارتضاه لخلافة الأرض مولاه.

المطلب الأول: تعزيز القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة.

جاء الإسلام ليرسي القواعد الراسخة للنواميس الرفيعة، التي تتيح للإنسان الحياة الكريمة في أسمى معانيها؛ فالقرآن الكريم يدعو المجتمع البشري إلى غرس هذه القيم النبيلة، وإسباغ تلك الأخلاق الحميدة، ويسعى لتعزيزها ونشرها، بين أفراده، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– يأتي ليتمم ما تعارف عليه الناس منها، فيقول: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[509].

فهذا الإمام التستري يقف متأملًا قول الله –تعالى–: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] ليُجَلِّي قيمة الأخلاق وأهميتها، وأثرها في الحياة العاجلة والآجلة من خلال منطوق الآية الكريمة فيقول: " تأدبتَ بأدب القرآن، فلم تتجاوز حدوده ... فمن أوتي الخلق الحسن فقد أوتي أعظم المقامات، لأن ما دونه من المقامات ارتباط بالعامة، والخلق الحسن ارتباط بالصفات والنعوت." [510].

فمن تأدب بآداب القرآن وتخلق بأخلاقه، فقد بلغ أسمى الغايات وأرقاها من الأخلاق والصفات، وذلك لأنها صفات الله السامية العلية، وأخلاقه المقدسة الزكية. فأعظم الخُلُق خُلُقُ الله عز شأنه، وحينما وصف –سبحانه– نبيه بالخلق العظيم فقد رقَّاه بذلك إلى أسمى الأخلاق، وشَرَّفَه بالتحلي بأكرم الصِّفَات، وهذا متاح لكل مسلم يبتغي مرضاة الله وحبه، ويسعى للقرب منه.

---

[509] أحمد بن الحسين البيهقي، **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م)، 323/10، رقم: 20782.

[510] التستري، **تفسير التستري**، 174.

وحينما سئل سهل التستري عن الكرامات، قال: " وما الكرامات؟ إن الكرامات شيء ينقضي لوقته، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود"[511]. فتبديل الخلق الذميم بالخلق الحميد أول خطوة في سلوك طريق الحق الصراط المستقيم. وناموس التجلي قائم على أساس أن التحلية لا تكون إلا بعد التخلية، فما حجب عن القلوب فيوضات الأنوار إلا بما شغلها من ظلمة الأغيار، لذلك يقول ابن عجيبة –رحمه الله–: "فرّغْ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار"[512].

كما سئل سهل –رحمه الله –عن حسن الخلق، فقال أدناه الاحتمال وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه، وألا يتهم الحق في الرزق ويثق به..."[513]. فاحتمال أذى الخلق، والصبر على التعامل مع شرارهم، بل الإحسان إلى من أساء منهم، ووصل من قطع، وإعطاء من منع، يمثل أسمى القيم، وأرقاها، وهو ما دعا إليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم – حيث قال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَنْ ظَلَمَكَ» [514].

وهذه الأخلاق الكريمة التي تكسب الإنسان مكانة رفيعة في الحياة، يكاد المرء لا يحصيها، منها: الكرم، والأمانة، والصدق، والوفاء، والصبر، والشكر، والشجاعة، والمروءة، والرحمة، والرأفة... وسنتناول بعضها، نتلمس المعاني القرآنية، واللطائف الربانية، التي استنبطها أئمة التفسير الإشاري، والتي تسهم في تعزيز هذه القيم النبيلة، وتنمي تلك الخصال الحميدة.

---

[511] التستري، **تفسير التستري**، 174.

[512] ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، 317/1.

[513] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 53/3.

[514] المتقي الهندي، **كنز العمال**،766/3، رقم: 8693.

"فعند قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾[الذاريات:24] يترفق الإمام التستري في تفسيرها فيقول: "سماهم مكرمين لأنه خدمهم بنفسه، وكان منذ سبعة أيام لم يطعم شيئاً، ينتظر ضيفاً، فلما أرسل الله تعالى ملائكته إليه، استبشر بهم وخدمهم بنفسه ..."[515]. إنه يدعونا للتخلق بهذا الخلق الكريم، الذي يتمثل بالبذل والجود والإحسان، لمن نعرف ومن لا نعرف من بني الإنسان، بل وإيثار الآخرين على النفس في حاجاتها؛ ويضرب لنا بذلك المثل الأعلى أبو الضيفان إبراهيم الخليل–عليه السلام– الذي يصوم عن الطعام، ويواصل الصيام لعدة أيام لا يذوق قوتًا حتى يظفر بالضيف، الذي يؤانسه ويأكل معه.

وينقل السلمي –رحمه الله– عن بعض العارفين إشارات لطيفة عند الآية السابقة، كلها تعزز خصلة الكرم، وأدب الضيافة، المتمثلة في استقبال إبراهيم لأضيافه الغرباء، الذين يكرمهم أعظم إكرام، من غير أن يعرف أحدًا منهم. فابن عطاء الآدمي يشير إلى تسمية الأضياف بالمكرمين لنزولهم بالنبي الكريم إبراهيم يقول: "ضيف الكرام لا يكون إلا كريمًا، فلما نزلوا بإبراهيم وكان سيد الكرام سماهم المكرمين" [516]. يعزز الشيخ في هذه الإشارة خُلُقَ الكرم، ويعلي من قيمة الجود، حتى تتعدى هذه القيمة من المضيف إلى الضيف، فيغدو الضيف مُكرمًا مُعززًا ببركة من أضافه، حيث يستمد من كرمه خصلة الكرم، فيكون من المكرمين.

وإذا سَخَّرَ الإِلهُ أُناسًا *** لِسَعيدٍ فَإِنَّهُمْ سُعَداءُ

[515] التستري، **تفسير التستري**، 154.

[516] السلمي، **حقائق التفسير**، 275.

وعند هذه الآية نفسها يقف يعقوب السوسي[517] –رحمه الله– ليضيف إشارة لطيفة، تُجَلّي خلق الكريم، الذي لا يتكلف بجوده مالا يطيق، حتى لا يضجر من ضيفه ولا يضيق، فيقول واصفًا حال نبي الله إبراهيم: "ما تكلف لهم ولا اعتذر إليهم، وهذا من أخلاق الكرام" [518].

يعزز بهذه الإشارة سجية الكرم الخالية من التصنع والتكلف، تأسيًا بخلق نبينا محمد–عليه السلام– الذي يضرب المثل الأعلى في الكرم والجود، حتى يصفه ابْن عَبَّاسٍ بقوله: «كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ،... فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[519]. وقد كان – صلى الله عليه وسلم– ينهى عن التكلف للضيف، حيث يقول أنس بن مالك –رضي الله عنه–: «كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ».[520]

أما عن خُلُقِ الوفاء فقد كان للمفسرين الإشاريين عنده وقفات لطيفة، تُرَسِّخُ في نفس المؤمن هذه القيمة السامية، وتنقلها من الوفاء بعهود الناس ومواثيقهم إلى الوفاء بعهد الله، في كل شاردة وواردة من حياته، في عقيدته، وأحكام دينه، وسائر مقاصده. فعند قول الله –عز شأنه–: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها ...﴾ [النحل: 91]. يستنبط الإمام القشيري إشارات للوفاء تجتاز حدود المنظور من المتعارف عليه بين الناس، إلى وفاء كل إنسان بطبعه ومسلكه، وبما قطع على نفسه من عهود مع الله، فيقول: "يفرض على كافة المسلمين الوفاء بعهد الله في قبول الإسلام والإيمان،

---

[517] النهرجوري وَهُوَ أَبُو يَعْقُوب إِسْحَاق بن مُحَمَّد، من عُلَمَاء مشايخهم صحب الْجُنَيْد وَعَمْرو بن عُثْمَان الْمَكِّيّ وَأَبَا يَعْقُوب السُّوسِي وَغَيرهم من الْمَشَايِخ. أَقَامَ بِالْحرم سِنِين كَثِيرَة مجاورا وَبِه مَاتَ وَكَانَ أَبُو عُثْمَان المغربي يَقُول مَا رَأَيْت فِي مَشَايِخنَا أنور من النَّهر جوري مَاتَ سنة ثَلَاثِينَ وثلاثمائة. السلمي، **طبقات الصوفية**، 286.

[518] السلمي، **حقائق التفسير**، 275.

[519] مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل، 1803/4، رقم: 2308.

[520] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، 2659/6، رقم: 6863.

فتجب عليهم استدامة الإيمان. ثم لكلّ قوم منهم عهد مخصوص عاهدوا الله عليه، فهم مطالبون بالوفاء به. .."[521].

لقد تجاوز الشيخ ما تعارف عليه الناس من العهود والمواثيق، إلى الترقي في مدارج الكمال الروحي، من الثبات على الإسلام، واستدامة الإيمان، والعزوف عن زينة الدنيا وزخرفها، والإعراض عن اللذات، والفطام عن الشهوات، بل والإعراض عن كل ما سوى الله والتجرد لعبادته والتبتل إليه، والاستغراق في ذكره، والفناء في محبته.

كما يقف – رحمه الله– عند قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.﴾ [البقرة:40]. ليستنبط إشارات تصور صلة العبد بربه عندما يفي بعهد الله فيخالف هواه، ويوجه قلبه إلى الله، فيوازن بين عهد الخالق وعهد المخلوق، فيقول على لسان الحضرة الإلهية: "أوفوا بعهدي بحفظ السر، أوف بعهدكم بجميل البر، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق، أوف بعهدكم الذي ضمنت لكم يوم التلاق ..."[522].

وعند هذه الآية المباركة يعود ابن عربي إلى العهد القديم الذي سبق في علم الله، يوم قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ [الأعراف: 172] وذلك في عالم الذر، يوم أخذ الله –سبحانه– العهد والميثاق، من كل نسمة توالدت وتوارثت الحياة جيلًا بعد جيل، من لدن آدم إلى يوم القيامة، فيقول –رحمه الله– " الذي هو تذكر العهد السابق وتجديده بالعقد اللاحق، بالبقاء على حكمه في الإعراض عن الغير والتجرّد عن العوائق والعلائق في التوجه إليه ﴿إذا عاهَدْتُمْ﴾ أي: تذكرتموه بإشراق نور النبيّ عليكم، وتذكيره إياكم"[523]. إنه العهد القديم بين الله وخلقه، والذي يبرزه للوجود على لسان رسوله

---

[521] القشيري، **لطائف الإشارات**، 315/2.

[522] القشيري، **لطائف الإشارات**، 41/1.

[523] محمد بن علي الطائي، محي الدين، المعروف بمحي الدين بن عربي، **تفسير ابن عربي**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)،

محمد –صلى الله عليه وسلم– بقوله: «أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ – يَعْنِي عَرَفَةَ – فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ [الأعراف: 172] [524].

ويقف القشيري عند قوله تعالى:﴿فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الأعراف : 190].ليكشف حال الإنسان مع ربه، فيعرض شريحة كبيرة من الناس، يعاهدون الله، ثم ينقضون العهد؛ يعاهدونه على إخلاص الطاعة له وحده، ويكون ذلك في حال الشدة وحين نزول البلاء؛ فإذا كشف عنهم الشدة ونزع البلاء، وأحل بهم السراء والرخاء، نكثوا العهد ونقضوه؛ ونسوا المنعم وعاندوه، يقول رحمه الله: "شرّ الناس من يبتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء، وشدة التضرع والبكاء، فإذا أزيلت شكاته، ودفعت– بمنّته– آفاته ضيّع الوفاء، ونسي البلاء، وقابل الرّفد بنقض العهد..." [525].

وهذا ديدن طبع الإنسان في حياته، إذا ضاقت به الحياة تضرع إلى الله، فإذا كشف عنه الضراء والبلاء أعرض وجحد؛ ومصداق ذلك قوله –تعالى–:﴿ وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ...﴾[يونس: 12]

ويتبع الوفاء خلق الصدق، فلا وفاء بالعهد، ولا إنجاز للوعد إلا بالصدق في القول والعمل، ولا إيمان لمن لا يتحلى بالصدق في سلوكه، وقد نفى النبي الكريم الإيمان عن الخائن والكاذب فقال: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ»[526]. فالكذب عماد الخيانة، كما أن الصدق عماد الوفاء.

.366/1

[524] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 264/4، رقم: 2455.

[525] القشيري، **لطائف الإشارات**، 595/1.

[526] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 504/36، رقم: 22170.

ويمتاز علماء التصوف عن غيرهم من العلماء، بفهم بعيد لخلق الصدق ومفهومه، فعندهم ثمرة الصدق إخلاص النية فيه، فهو مرتهن بالنية المحتسبة عند الله –سبحانه– فلا خير في صدق غرض صاحبه طلب الدنيا وتعلقاتها، فكم من تاجر صدوق غرضه جلب الزبائن، وكسب الأرباح، لذلك يسأل الله –سبحانه– الصادقين يوم القيامة عن مقاصدهم في صدقهم. يقول –عز من قائل–: ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾ [الأحزاب:8].

قال سهل: "لا يشم أحد رائحة الصدق ما دام يداهن نفسه أو غيره. بل الصدق أن يكون في سره أنه ليس على وجه الأرض أحد طالبه الله بالعبودية غيره..." [527]. يسألهم وهو يعلم سرهم ونجواهم، ويعلم مقاصدهم وما توسوس به أنفسهم، يسألهم لينعم عليهم بالتصديق والرضا والقبول، ليسعدهم بخطابه لهم، فيضفي عليهم لطائف الحبور وعبق السرور، ليفصحوا عن مكنون سرائرهم، وخبيء ضمائرهم، ولكي تصل هذه الرسالة من عالم الغيب إلى كل مؤمن مازال على قيد هذه الحياة، ويبتغي الفوز بلذيذ الخطاب، ونعيم الشهود، في دار المقامة والخلود؛ كي يصحح نيته ويطهر سريرته.

ويعقب التستري –رحمه الله– على هذا الحوار، وتلك المنادمة بين العبد وربه، فيقسم جازمًا أن متعة المناجاة، ولذة الشهود، عند أهل الجنة، أعظم سعادة وسرورًا، وأجلُّ بهجة وحبورًا من كل لذائذ الجنة وسائر نعيمها. فيقول: " فوعزته! قوله لهم في المشاهدة: «صدقتم» ألذ عندهم من نعيم الجنة" [528].

لقد كانوا يعملون الصالحات في الدنيا، يبتغون مرضاة ربهم، وقلوبهم وجلة خائفة، يخشون رد العمل، هم في الطاعة والعبادة دائبون، وخوف الرد والرفض من ربهم يسكن وجدانهم، فهم دائمًا قلقون. وتشير الآية الكريمة الآتية إلى الحال النفسية التي كانت تعتريهم في حياتهم الدنيا، حيث يقول –سبحانه–: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَة أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60]. فلا تطمئن قلوبهم إلا

[527] التستري، **تفسير التستري**، 126.

[528] التستري، **تفسير التستري**، 126.

حينما يسمعون من بارئهم ومعبودهم "أن قد صدقتم"، فيعتريهم من الفرح والسرور مالا يعدله كل ما ذاقوه من لذائذ وأفراح دار النعيم.

ولا يبلغ العبد مقام الصدق إلا بالزهد في الدنيا وشهواتها، والتجافي عن متعها ولذائذها؛ فإذا تحقق بمقام الصدق فتح الله له أبواب الكرامة، فولج في أوسعها، ونال من الفيوضات النورانية مالا يخطر بالبال، وتحقق له من المطالب مايشاء، واندفع عنه مايخشى من العناء واللأواء، والفتنة والبلاء، وكل ما أهمه وأغمه. قال التستري –رحمه الله–" من زهد في الدنيا أربعين يوما صادقا من قلبه، مخلصا في ذلك، ظهرت له الكرامات..."[529].

ويقف القشيري عند قوله تعالى: ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً ﴾[الأحزاب:8] ليضفي على مشهد المساءلة جوًا لطيفًا طريفًا، فالسؤال سؤال ملاطفة ومنادمة ومؤانسة، كملاطفة المحب لحبيبه، ومؤانسة المنادم لنديمه، غرضه التشريف والتكريم، والتحبب والتقريب، لا العتاب ولا التعنيف، يقول رحمه الله: " يسألهم سؤال تشريف لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب." [530]

ثم يعرف حقيقة الصدق عند العارفين، فهو إخلاص لله في سائر الشؤون: إخلاص بالقول والعمل، ولاحظّ للنفس في شيء من متاع الدنيا، ولا يداخل النوايا والأعمال شيء من الهوى، ليس لأحد من الخلق فيه سهم، ولا نصيب، مع الافتقار الخالص لله وحده، والتبرؤ من كل حول أو طول، بل محو كل الأكوان من النفس، لكي يتجلى في سمائها نور الهداية، وتعتريها الفيوضات الربانية: "والصدق ألّا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب...."[531].

---

[529] يحي بن شرف النووي، **بستان العارفين** (القاهرة: دار الريان للتراث، د.ت)، 27.

[530] القشيري، **لطائف الإشارات**، 153/3.

[531] القشيري، **لطائف الإشارات**، 153/3.

فإن وافقنا التوفيق لعمل صالح حسن فذلك بفضل من الله ومنة، ولا كسب للنفس في شيء منه، فلا ينبغي أن يغيب عن فكر المؤمن فضل الله ومِنَنِهِ على خلقه وعباده أن هداهم للإيمان، ووفقهم لصالح الأعمال، ولا يتأتى له ذلك إلا بمحاسبة نفسه وتزكيتها، واتهامها ومعاتبتها.

يقول ابن عطاء الآدمي: "لم يبلغ أحد إلى مقام الصدق بالصوم والصلاة ولا شيء من الاجتهاد، ولكن وصل إلى مقام الصدق بأن طرح نفسه بين يديه وقال: أنت أنت ولابد لنا منك."[532] يبدو فهم العارفين لِخُلُقِ الصدق يتجاوز المصطلح المعهود لدى علماء الشريعة؛ لأن الصدق لدى علماء الشريعة يقتصر على قول الحق وفعله، في العقود والمعاملات، ولكن الصدق لدى أئمة التصوف يمثله استقامة السلوك ونقاء الوجدان، وصفاء السريرة؛ فهو يصل إلى النوايا والمقاصد، ويتعدى إلى السرائر والضمائر. فلا خير في صدقٍ غاية صاحبه الدنيا ومتعها، وحظوظ النفس وشهواتها، وكسب رضا الناس ومصالحهم.

ولأبي عبد الرحمن السلمي –رحمه الله– مقال في حقيقة الصدق حينما يتأمل الآية الكريمة: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23] حيث يستنبط إشارة لطيفة في الاختيار والاصطفاء للصادقين؛ فيرى أن الله قد كرم بني آدم على العالمين، واصطفى منهم المؤمنين، واختار من المؤمنين الصادقين. وللصادقين سمات وعلامات لا ينازعهم فيها أحد من الخلق، وللصدق ضوابط يلتزمها الصادقون، ولا يخرجون عنها.

فمقام الصدق عزيز رفيع، لايبلغه إلا من اجتباه الله –سبحانه– واصطفاه، ومن علامات الصدق الوصول إلى مقام معية الأنبياء: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء:69]. ولا يتأتى ذلك للإنسان

[532] السلمي، **حقائق التفسير**، 145

إلا بإسقاط قدر الدنيا من نفسه، والإعراض عن زينتها وزخرفها وبهرجها من مال وبنين، حتى يستوي عنده الذهب والتراب، والفضة والمدر، ويسقط كل تعلق بالخلق، يستوحش منهم ليأنس بخالقه، ويحكم ضبط النفس ورغباتها، وخواطرها ونزواتها، ويعاملها بالجفاء والعداوة، وكأنها خصم لدود؛ حتى لا يزيد مدح الناس له إلا تواضعًا، ولا ذمهم إلا حلمًا وترفعًا، وتبقى علاقته بالله وحده خالصة دون خلقه.[533]

[533] انظر: السلمي، **حقائق التفسير**، 143 بتصرف.

المطلب الثاني: صحبة الأخيار والتخلق بأخلاقهم

إن صلاح المجتمع المسلم، وتآلف أفراده وتعاونهم على البر والتقوى، أصل من أهم أصول الشريعة الإسلامية، ومقصد من أسمى مقاصدها. وصحبة الصالحين وسيلة لتحقيق هذه المقاصد العلية؛ لأن مصاحبة الأخيار والطيبين تؤدي إلى صلاح المجتمع، والدين الإسلامي يدعو أفراد المجتمع المسلم إلى حسن التعامل والتعاطف فيما بينهم، لذلك نجد النبي-صلى الله عليه وسلم- يرشد المؤمنين إلى هذه الخصلة من مكارم الأخلاق، ويدعو الأمة إلى التحلي بمحاسنها، فيقول: «لا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ»[534].

وتأتي الآيات القرآنية المباركة لتدعو الإنسان إلى التسامح والتعاطف والتراحم مع أخيه الإنسان، فيقول عز وجل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: 96)]. ادْفَعْ الْقَوْلَ الْقَبِيحَ وَالأَذَى بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ. إنَّ دفع السيئة بالحسنة يجعل العدو اللدود وليًا حميمًا، ليكون أفراد المجتمع أولياء وإخوانًا في حادث الأوقات، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت:34] [535].

ومن حسن الأدب مع الله، حلمك على عباده لأجله، ومعاملتهم بالإحسان، حتى ولو أساء بعضهم إليك، فلا تنتقم لنفسك، بل تعفو وتصفح عن خلق الله كرامة لله.[536] ومن أسمى مقاصد الشريعة التآخي في الله، والتعاطف والتراحم بين أفراد المجتمع المسلم، ومن مظاهر هذا التآخي ألا يحوج الأخ أخاه إلى طلب المعونة والتماس المساعدة، بل يتفقد أحوال إخوانه ويسد حاجاتهم قبل أن يطلبوها، ويبادر إلى قضائها قبل أن يسألوها. وإذا ما بدر من بعضهم إساءة، فالصفح الجميل

---

[534] مالك بن أنس، **الموطأ**، 78/2، رقم: 1894.

[535] انظر: الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 491/7 بتصرف.

[536] انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**، 331/3-332 بتصرف.

عنه، قبل أن يلجئه الحرج لطلب الصفح أو الاعتذار، بل تلمس له العذر، ولا تحرجه باللوم، ورحم الله من قال: «التمس لأخيك عذراً»[537].

وإن أشكل عليك شيء من أمره، ولم تجد له وجه عذر فعد بالملامة على نفسك؛ وكذلك من حقه عليك أن تستغفر له إذا أذنب، وتعوده إذا مرض، وإن أشار عليك بأمر فاقبل مشورته ولا تطالبه بالدليل. ومن حقّه أيضًا أن تحفظ عهده القديم، وأن تراعي حقّه في أهله المتصلين به في المشهد والمغيب، وفي حال الحياة وبعد الممات[538]

ولقد أمر الله نبيه أن يصحب الصالحين من عباده، لايفارقهم ولايهجرهم، بل يصبر نفسه معهم، ولايغادرهم فقال له: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ﴾[الكهف:29] ولقد تأمل الشيخ محي الدبن بن عربي هذه الآية، فعَرَّف الأصحاب الصالحين لمن يجهلهم: "فهم الموحدون من الفقراء المجرّدون الذين لايطلبون غير الله، فالصبر معهم هو الصبر مع الله، ومجاوزة العين عنهم المنهي عنها، هو الالتفات إلى الغير"[539].

إذن فالصحبة الصالحة تقاس بمقدار التجرد من حظوظ الدنيا وتعلقاتها، والإخلاص في التوجه إلى بارئها ومولاها، والعاقل من يحرص على صحبة هؤلاء المخلصين الذين تنقت نفوسهم من شوائب الدنيا، وباعوا قلوبهم وأرواحهم لله رب العالمين. فهم خلفاء الله في الأرض، لزومهم مرضاة لله، والإعراض عنهم غفلة عنه. لذلك ينبه ذو النون المصري[540]–رحمه الله– لأهمية هذه الصحبة الكريمة، مبينًا أن سعادة الدنيا والآخرة مقرونة بملازمتهم حيث يقول : "بصحبة الصالحين تطيب الحياة، والخير مجموع

---

[537] انظر: ناصر الدين الألباني، **صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان** (الرياض: دار الصميعي، 1422هـ)،80/1.

[538] القشيري، **لطائف الإشارات**، 441/3.

[539] ابن عربي، **تفسير ابن عربي**، 404.

[540] ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، 444/2.

في القرين الصالح، إن نسيت ذكَّرَك، وإن ذكرت أعانك" [541]. ويعلق ذو النون على الآية التي طلب الله فيها من نبيه –عليه السلام–أن يصبر نفسه مع الذين يداومون ذكر ربهم بالغداة والعشي، فيقول:"هو أمر للأغنياء بمجالسة الفقراء والصبر معهم والاستنان بسننهم"[542].

ولماذا رأى ذو النون لزوم صحبة الأغنياء للفقراء ودوام مجالستهم؟ لعل العلة في ذلك أن الله – سبحانه– حماهم من الدنيا وملذاتها الفانية، ليكرمهم في الآخرة بملاذِّ الجنة نعيمها، فمن جالسهم جانسهم، ولأن الطباع تتساقى، فصبر النفس مع الصالحين مآله الصلاح، ولأن القرين بالقرين يقتدي، والصاحب بالصاحب يعرف.

والنبي –عليه الصلاة والسلام– ضرب مثلاً لقرين الخير وقرين السوء و أثر مجالسة كل منهما، فقال: «مَثَلُ جَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».[543] يحرص النبي–عليه السلام– على إرشاد كل فرد من أمته ليختار الصحبة الطيبة الصالحة لكي تكسبه المزايا الطيبة، والخصال الحميدة، على خلاف الصحبة السيئة،التي تعود على صاحبها بالوبال وسوء المآل.

ولعمرو المكي[544] في هذه المسألة فهم طريف؛ حيث يرى أن من صَحِبَ الصالحين والفقراء الصادقين ولازمهم، فقد لازم عين أهل الجنة، يتقلب من الرضا إلى اليقين، ومن اليقين إلى الرضا.[545]

---

[541] ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، 444/2.

[542] السلمي، **حقائق التفسير**، 409.

[543] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الذبائح والصيد، 2104/5، رقم 5214.

[544] عَمْرو الْمَكِّيّ وَهُوَ عَمْرو بن عُثْمَان بن كرب بن غصص وكنيته أَبُو عبد الله، كَانَ ينتسب إِلَى الْجُنَيْد فِي الصُّحْبَة، وَلَقِي أَبَا عبد الله النباجي، وَصَحب أَبَا سعيد الخراز وَغَيره من الْمَشَايِخ القدماء، وَهُوَ عَالم بعلوم الأصول، وَله كَلَام حسن، روى عَن مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل. وَيُونُس بن عبد الْأَعْلَى وَسليمَان بن سيف الْحَرَّانِي وَغَيرهم، مَاتَ بِبَغْدَاد سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَمِائَتَيْنِ وَيُقَال سبع وَتِسْعين، وروى الحَدِيث. انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 162.

[545] انظر: السلمي، **حقائق التفسير**، 409، بتصرف.

فصحبة الصالحين تورث العبد اليقين، وإذا تحقق باليقين رُزق الرضا من رب العالمين، وإذا حلَّ الرضا قلبًا غمرته السعادة، ودام لصاحبه السرور.

لقد أمرنا ربنا بصحبة الصادقين، القائمين على الحق، المقيمين على منهاجه، الذين استوت سريرتهم بعلانيتهم، وظاهرهم بباطنهم، الحافظين لحقوق الصحبة بصفاء المودة؛ فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119]. والكينونة مع الصادقين تنفع العبد في الدنيا، وتنفعه في الآخرة، وكل الصداقات الدنيوية التي بنيت على مصالح وأغراض خسيسة تنقلب في الآخرة إلى عداوات وملاعنات، إلا ما كان من أهل الصلاح والتقوى، قال تعالى:﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]. فالْأَخِلَّاءُ فِي الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِي الْآخِرَةِ إِذَا كَانَتْ خُلَّتهم عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْكُفْرِ، حيث تنقلب المحبة إلى عَدَاوَة يَوْمَ الْقِيَامَة، إِلَّا الْمُوَحِّدِينَ الَّذِينَ يُخَالِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَإِنَّ خُلَّتَهُمْ تستمر، بل ويشفع بعضهم لبعض. [546]

وعندما يتأمل القشيري الآية السابقة، يصل إلى حقيقة ربانية علية، وسنة إلهية سنية، قامت عليها نواميس الكون، وهي أن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله تلاشى واضمحل، بل كان وبالًا على صاحبه في الآخرة، وهذا ما ينطبق على الصحبة والصداقة، القائمة على الإخلاص والصلاح، أو القائمة على الشهوات والمصالح الدنيوية. يقول رحمه الله:"...والأخلاء الذين اصطحبوا على مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو، وأمّا الأخلاء في الله فيشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض..."[547].

ويفصل في بيان ثوابت الصحبة الصالحة وشروط قبولها فيرى : " أن الشرط الرئيسي للخلّة الرابحة، والصداقة الصالحة ألا يكون لأمور الدنيا فيها حظ ولا نصيب، وتكون العلاقة بين الصديقين

---

[546] انظر: الرازي، **مفاتح الغيب**، 641/27 بتصرف.

[547] القشيري، **لطائف الإشارات**، 373/3.

خالصة لوجه الله، ليس فيها مداهنة ولا نفاق، وبقدر ثبات الصاحب على طاعة الله والتزامه الصراط المستقيم تدوم صحبته وتستمر صداقته، فإن مال عن طريق الحق، وزاغ عنه، وظهر منه مالا يرضي الله نصحه صاحبه، فإن سدر في غفلته وضلاله، وأدام انحرافه وبعده، هجره صاحبه وجافاه، ولم يجامله أو يداهنه؛ فإن عاد إلى طاعة الله، وانتبه من رقدته عاد صاحبه إلى مودته ومصافاته.[548]

وعند هذه الآية: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]

يسهب ابن عربي –رحمه الله– في شرح أصناف الخلة وأنواعها، فيذكر الخلة الخيرية، والخلة اللاخيرية، فالخلة الخيرية تستند إلى المحبة الروحية، واللاخيرية تستند إلى اللذائذ النفسية، والرغبات الجسدية؛ ثم يوضح معالم الصحبة الصالحة، التي تكون لله وفي الله، وتأتي هذه الصحبة من المحبة الروحانية، المستندة إلى تناسب الأرواح من عهد ألست بربكم، حينما تتعارف الأرواح فيما بينها أو تتناكر؛ يقول النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :« الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ »[549]، فتحابت الأرواح لتآلفها وتجانسها، وقربها من الحضرة الأحدية، وتوافقها في الوجهة والطريقة السديدة، وتشابهها في السيرة والسريرة، وتجردها عن الأغراض الفاسدة، والأعراض الذاتية، التي هي سبب الاختلاف والعداوة، حيث تنشأ المحبة بين الأخلاء الصالحين من تناسب الأوصاف والأخلاق والمعتقدات.[550]

والعاقل الفطن يختار الصحبة الصالحة التي تنفعه في دنياه وأخراه، فينتقي خيار الناس، ويصطفي لصحبته من ينهض به حالهم، ويدله على الله مقالهم، ويحذر المظاهر الخادعة، ويجتنب أهل الغفلة، وإن

---

[548] انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**، 373/3، بتصرف.

[549] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 319/13، رقم:7935.

[550] انظر: ابن عربي، **تفسير ابن عربي**، 220/2 بتصرف.

كانوا علماء في الدين، فقهاء في الشريعة، كما يجتنب حملة القرآن الذين يتزلفون إلى الخلق، ويتطلبون قربهم، والتكسب منهم، كما يتحاشى أدعياء التصوف الجاهلين بأحكام الشريعة ومقاصد الدين.

يقول يحي بن معاذ [551] رحمه الله: "اجْتنبت صُحْبَة ثَلَاثَة أَصْنَاف من النَّاس: الْعلمَاء الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الْجَاهِلين"[552]. يُلاحظ أن يحي بن معاذ –رحمه الله– حذَّر من صحبة من اصطبغ بصبغة الدين، من فقهاء وقراء ومتصوفين، وذلك حينما تكون شعائر الدين وسيلة لكسب الدنيا، تتمثل في المظهر وتفتقر إلى المخبر، فإذا كان العالم غافلاً، والصوفي جاهلاً، وحامل القرآن مخاتلًا، لم يبق من الدين إلا اسمه، ولا من القران إلا رسمه، أولئك الذين عناهم النبي عليه السلام بقوله: «...رجال يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ...»[553] فصحبة هذه النماذج من الناس وبال وعناء، وشر مستطير.

وينصح أبو بكر الطرطوشي الملوك بمجالسة العقلاء، وصحبة الأتقياء، وملازمة أولي النهى من الحكماء، ويذكر قول الله –تعالى–: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]. ويتمثل قوله –سبحانه–: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً*لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي...﴾[الفرقان:28 –29]. ليعزز رأيه ويوثق نصيحته، مؤكدًا على اصطحاب ذوي الرأي والحسب، وذوي التجارب والعبر، ويبالغ في الحث على دوام مجالسة الشيوخ العقلاء، فيقول: "عليكم بآراء الشيوخ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر، وتصدت لأسماعهم آثار الغِيَر" [554].

---

[551] يحي بن معَاذ بن جَعْفَر الرَّازِيّ الْوَاعِظ، تكلم فِي علم الرَّجَاء وَأحسن الْكَلَام فِيهِ، وروى الحَدِيث، خرج إِلَى بَلخ وَأَقَام بهَا مُدَّة ثمَّ رَجَعَ إِلَى نيسابور وَمَات بهَا سنة ثَمَان وَخمسين وَمِائَتَيْنِ. انظر: السلمي، **طبقات الصوفية**، 98.

[552] السلمي، **طبقات الصوفية**، 102.

[553] الترمذي، **سنن الترمذي**، 604/4.

[554] انظر: محمد بن محمد الطرطوشي، **سراج الملوك** (القاهرة: من أوائل المطبوعات العربية، 1289هـ)، 72.

وبهذا يتبين لكل متبصر منصف أن للصحبة أثر بالغ في تكوين الشخصية الإنسانية، لأنها تطبعها بطابعها، وتسهم في رسم منهج سلوكها؛ فكما أن صحبة الأخيار تسمو بصاحبها إلى مراقي الخير والفلاح، كذلك صحبة الأشرار تهوي بصاحبها في مهاوي الردى والضلال.

المطلب الثالث: حسن المعاملة مع الخالق والمخلوق

يطيب الحديث عن المعاملة الحسنة بين العبد وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، فلا تستقيم الحياة ولا تنتظم إلا بحسن التعامل، وطيب التواصل، واستقامة السلوك. وإن حسن المعاملة مع الخالق استحضار جلاله وعظته، والخشية من سخطه وغضبه، والافتقار لمدده وكرمه، والتذلل لحضرته وكبريائه، والخضوع لأحكامه، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والتأسي بنبيه ورسوله، والسير على نهجه وسنته، والتوكل عليه في سائر مجريات الحياة.

أما حسن المعاملة مع المخلوق فبحسن التواصل معه، بالتواضع له، وعدم التكبر عليه، وتقديم النفع له، ودفع الضرر عنه، وإرشاده إلى الخير، وتبصيره بالحق والصواب. وقد لخص النبي الكريم مفهوم التعامل في الدين بهذه العبارة، الموجزة في مفرداتها، الواسعة في معانيها، حيث قال: «إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قَالُوا: لِمَنْ يا رسول اللهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[555].

وقد أوضح أصحاب المعجمات اللغوية مفهوم النصيحة بالتفصيل والإسهاب وكلها تعني: "إحسان التعامل". يقول الزبيدي في التاج: "النُّصْحُ والنَّصِيحةُ والمنَاصَحةُ: إِرادةُ الخَيْرِ للغَيرِ وإِرْشادُه لَهُ... ورجُلٌ ناصحُ الجَيْبِ: نَقِيُّ الصَّدْرِ ناصِحُ الْقلب، لَا غِشَّ فِيه"[556].كما يلخصها ابن منظور في اللسان: بكلمتين لا ثالث لهما: "الإخلاص والصدق" فيقول: "نَصَحْتُ لَهُ نَصيحتي نُصوحاً أَي أَخْلَصْتُ

[555] ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 138/28، رقم: 16940، إسناده صحيح على شرط مسلم.

[556] انظر: الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، مادة (نصح) باختصار.

وصَدَقْتُ".[557] وما ورد في تعريف النصيحة لدى المعجمات لا يتعدى التعامل مع الخلق بالصدق والإخلاص والإرشاد؛ ولكن كيف يتسنى للمخلوق استقامة سلوكه مع الخالق العظيم، والتوجه بالنصيحة له، ولكتابه الحكيم، ولرسوله الكريم؟ هذا ما سيتم تناوله في شطر هذا المطلب.

[557] ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (نصح).

1- حسن التعامل مع الخالق:

لكي يحسن التعامل مع الخالق، ومن أجل أن يستقيم السلوك بالتواصل لبلوغ مرضاته – سبحانه– لابد من مراعاة الأمور الآتية: **أ –** تعظيم مقام الله –جل في علاه– وإجلاله، وخشيته، والحياء منه. إنَّ أول أصل من أصول التعامل مع الخالق –سبحانه–تعظيمه وتقديسه، ومخافة سخطه، والحياء من جلاله، ولا يتأتى ذلك إلا لمن وقر في قلبه الإيمان، وتمكنت في نفسه مخافة الله. ولكن كيف يتأتى للمؤمن التخلق بالحياء، هذا الخلق العظيم؟، وكيف يبلغ هذه المنزلة السامية؟

ولكي يدرك المؤمن حقيقة الحياء من الله يتأمل قول ذي النون –رحمه الله–: "لله عباد تركُوا الذَّنب استحياء من كرمه، بعد أَن تَرَكُوهُ خوفًا من عُقُوبَته..." [558].

وأكثر الناس حياء من الله أشدهم خشية منه، وأكثرهم إجلالاً له، وأشدهم خشية منه –سبحانه – أعلمهم به. لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28] ويتأمل القشيري هذه الآية ليستنبط إشارة لطيفة، يثير همة المؤمن، ويدعوه للتعرف على الله وتدابيره، وسننه في خلقه وعوائده، ويعزز دواعي الخشية من الله، والخوف من غضبه وعقابه، فهو يرى أن خشية العلماء بسبب تقصيرهم في أداء حقّه، أو بسبب استحيائهم من اطِّلَاعِ الله على أعمالهم.

"ولربما تكون خشيتهم حذرًا من أن يحصل لهم سوء أدب، وترك احترام لجلال الله، وانبساط في غير وقته بإطلاق لفظ، أو ترخُّصٍ بالتهاون وترك الأَوْلى" [559]. فالْعَالِمَ بِاللَّهِ دائم الخوف منه، إذ لا تتَحَصَّلُ الخشية من جلال الله إِلَّا لِلْعُلَمَاءِ. وفي ذلك تَخْوِيفٌ شَدِيدٌ من الجهل، وتحذير لكل من انتسب

---

[558] السلمي، **طبقات الصوفية**، 33.

[559] انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**،203/3.

لهذا الدين وادعى عبادة الله، كما أنَّ فيه تحفيز للإقبال على العلم والفقه؛ لِأَنَّ الْخَشْيَةَ مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ، وعَدَمِ الْخَشْيَةِ من لوازم الجهل. [560]

وعند قول الله -سبحانه- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر:3] يقدم الماوردي إشارة طريفة يدعو من خلالها لامتثال الأوامر الإلهية، وتمثُّلِ الحياة الإيمانية، فأمره -سبحانه- لنبيه أن يُكَبِّرَ ربَّهُ، يوحي بالسلوك العملي في المنهج الرباني فلا يكفي عنده التعظيم باللسان مع غفلة الجَنان؛ بل لابد للعبد أن يستجيب لمولاه فيما دعاه، ويطيعه فيما أمره أو نهاه، وأن يتحمل كل ما ألزمه به، و أن يشكر نعمه ومننه وعطاياه، فذلك هو تعظيمه؛ لا أن يقول بلسانه: " يا عظيم " وقلبه يهيم في وديان الغفلات، ويسرح في مراتع الشهوات[561].

ب- الافتقار والاحتياج: لو أمعن المتأمل النظر في الكون بأسره، لوجد هناك حقيقة لا يختلف فيها اثنان، ولا يماري فيها إلا جاهل أو معاند، هي حقيقة الافتقار إلى الله، الذي أوجدنا من العدم، فكل كائن يفتقر إلى مكونه في الإيجاد والإمداد، فالسموات والأرض وما بينهما محتاج إلى الله -سبحانه- ومفتقر إليه؛ والعبد الذي يريد التعامل مع الرب لابد له من التخلق بخلق الافتقار والاحتياج. ويصدق هذا قول الله جل في علاه:﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:15].

ويتأمل التستري -رحمه الله- هذه الآية ليستنبط إشارة لطيفة مفادها: أن الله حكم على خلقه بالافتقار إليه، وألزمهم الاحتياج إليه؛ وكل دعوى بالاستغناء عنه مناطها الجهل والعناد؛ أو الضلال والفساد، ولا يدَّعي الاستغناء عنه إلا كل محجوب بغرور أو كبر أو جحود. فالغني بحقٍ هو الله، وكل ما سواه مفتقر إليه. فمن أظهر افتقاره إلى الله أغناه بغناه، وأمده من عطاياه، والعاقل يظل مفتقراً إلى مولاه، ومتوجهاً إليه في السر والعلن، مستغنيًا عمن سواه؛ وحتى تكون العبودية خالصة، لابد أن

[560] انظر: الرازي، **مفاتح الغيب**، 407/2.

[561] انظر: الماتريدي، **تفسير الماتريدي**، 300/10.

يتسم صاحبها بالخضوع التام لمرادات الملك العلَّام. وكل من ادعى الفقر ولم يمتثل لأوامر الخالق ونواهيه، ويلازم طاعته، والوقوف عند حدوده، فافتقاره كاذب، وادعاؤه باطل؛ وذلك لأن الافتقار الصادق ينبع دائمًا من الثقة المطلقة بالله، والرجوع إليه في كل مناحي الحياة"[562].

أما الإمام القشيري –رحمه الله– فيرى في تلك الآيات السابقة معانٍ مختلفة للفقر والافتقار؛ فالفقر عنده نوعان: فقر الخلقة وفقر الصفة، فأمّا فقر الخلقة فهو عامّ يشمل كل الخلق؛ فكلّ مخلوق مفتقر إلى خالقه، لأنه أوجده من العدم؛ فهو مفتقر إليه ليبديه وينشيه، ثم بعد ذلك فهو مفتقر إليه ليمده ويقيه. فالله– سبحانه– هو الغني بذاته، والعبد فقير بعينه.

وأمّا فقر الصفة فهو التجرّد؛ والتجرد إما من المال، وإما من التعلق بالأحوال، ففقر العوام تجرّدهم من المال، أما فقر الخواص فتجردهم وانعتاقهم من أغلال الأحوال، وكل تعلق بما سوى الله غُلٌّ في عنق صاحبه؛ لا يتجرد حتى ينعتق منه؛ ولا يسلم الافتقار إلى الله مادام للعبد يتعلق بما سواه. لأن من افتقر إلى شيء استغنى بوجوده؛ وكل افتقار إلى غير الله وهم واحتياج، أما الفقير إلى الله فهو في الحقيقة غنيّ به. [563]

والفقر المحمود شهود الحقّ في مواضع المنع والعطاء، والشدة والرخاء، ويستشعر فقره إلى مولاه في كل حال. فسليمان النبي –عليه السلام – عندما شهد تمام نعمة الملك، وقد أوتي من كل شيء؛ نسب الفقر لنفسه والغنى إلى الله، وسأله أن يلهمه شكر النعم، فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ ...﴾ [النمل:19] وأيوب عليه السلام استشعر فقره إلى مولاه في شدته وبلائه فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]. والفقير المخلص هو الذي يعلم أنه لا يملك من أمره شيئًا، وإن كان يملك كلّ شيء. والفقير الصادق هو الذي

---

[562] انظر: التستري، **تفسير التستري**، 129 بتصرف.

[563] انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**، 198/3 بتصرف.

يظهر التّشكّر في حال التكسّر، يشكر على البلاء والضراء، كما يشكر على الرخاء والنعماء، فهو دائم الشكر على كل حال.

ويرى ابن عربي في الآية السالفة الذكر أن العالَم كله خُلق على قدم واحدة، قدم الافتقار؛ فالفقر مكنون في كل ذات مخلوقة، وما ينسب إلى العبد من الغنى ما هو إلا صفة عرضية. لأن الفقر المطلق له، ولسيده الغنى المطلق؛ ولايزال العبد مفتقرًا إلى سيده في الدنيا والآخرة، لا يستغني عن مدده وعطائه. لأن الله-سبحانه- لم يخصص مؤمنا دون غيره من خلقه في قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِّ﴾ [فاطر:15] فكل مخلوق يفتقر في سائر شؤونه إلى خالقه؛ وكل شيء ملك له -سبحانه- وبيده مقاليده؛ فإليه الافتقار لا إلى سواه؛ وكل من تذلل وافتقر إلى غير الله -تعالى- واعتمد عليه، وسكن في أمره إليه، فهو عابد وثن[564].

قال يحيى بن معاذ: "الفقر خير للعبد من الغنى لأن المذلة في الفقر، والكِبْرَ في الغنى، والرجوع إلى الله بالذلة والفقر خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال"[565]. وكل ماسبق من إشارات هذه الآية المباركة يدعو المتأمل إلى الاتجاه إلى الله بحسن الأدب في التعامل، واستقامة السلوك في منهج الحياة، الذي أراده الله لعباده، لتستقيم حياتهم في دنياهم وأخراهم. وذلك لأن الله -سبحانه- غني عزيز، لا يقبل عمل عبد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا اعتبار عنده بالأعمال إن خالطتها حظوظ النفس، ومازجتها الأهواء. وما افتقر عبد إلى مولاه إلا أغناه، وأسعده وما أشقاه، وما استغنى بحوله عن حول الله إلا خذله وأرداه.

ولا يحصل للعبد الاستغناء إلا بالافتقار؛ وقد سئل الجنيد عن الافتقار إلى الله أتم، أم الاستغناء به؟ قال: "إذا صح الافتقار إلى الله كمل الاستغناء بالله؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر، فمن

---

564 انظر: الغراب، **رحمة من الرحمن**، 449/3، بتصرف.

565 السلمي، **حقائق التفسير**، 159.

صح له الافتقار إليه صح له الغنى به" [566]. وإذا اكتسب العبد صفة الافتقار زكت نفسه، ورقَّ طبعه، وحسن تعامله. لأن سلوكه في الحياة ما هو إلا انعكاس لمشاعره وأحاسيسه.

جـ- الذل والانكسار وصدق التوكل: من شرَّفه الله بالافتقار يجد في نفسه الخضوع لأمر الله، والامتثال لأحكامه، أما من ابتلي بآفة الاستغناء والاستكفاء بما سوى الله، فيعتريه الشعور بالزهو والعجب والاستكبار، الذي يردي صاحبه ويهلكه.

ويستنبط القشيري من قوله -جل في علاه -:﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:55] قيمة إنسانية رفيعة تتمثل في حسن السلوك بالتعامل مع الله؛ حيث يعلمنا -سبحانه- كيف نخاطبه؟، وكيف نطلب منه؟ وكيف نسأله حاجاتنا؟ قال -رحمه الله-:" علّمهم آداب الدعاء حيث قال: ﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ وهذا أدب الدعاء، أن يدعو بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطرار."[567] ويرى أن من سوء أدب العبد مع الرب التمادي في مطالب الحياة، بالاعتماد على الأسباب دون اللجوء إلى الله بالدعاء والرجاء، فيقول: "ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك، أنه جعل إمساكك عن دعائه- الذي لا بد منه- اعتداء منك" [568]

وعند الآية المباركة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾[هود: 23] يشير علماء التفسير الإشاري إلى حقيقة يتمتع بها المؤمنون المخلصون؛ وهي اتصافهم بالخضوع والخشوع، ودوام التذلل والانكسار، وعدم الاغترار بالأعمال، أو الرضا عن النفس بالأحوال؛ فإخبات المؤمن إلى مولاه عند مباشرة العمل الصالح، ما هو إلا شعور بالاستسلام

---

[566] انظر: السلمي، **حقائق التفسير**، ص 159، بتصرف.

[567] القشيري، **لطائف الإشارات**، 540/1.

[568] القشيري، **لطائف الإشارات**، 540/1.

لمجريات المقادير، والخوف من الرفض وعدم القبول، لذلك يديم الاستغاثة والضراعة بالسر والعلن، وأقصى أمانيه من مولاه الرضا والقبول[569].

ويلازم الذل والانكسار إلى الله حسن التوكل عليه، والثقة بموعوده، والتسليم لمراداته، والرضا بمقاديره، فعند قوله تعالى: ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159] يستشعر الثقة بالله، ويفوض إليه جميع أموره، ويفتقر إليه دون غيره، ونداء في وجدانه يهتف به: كل أمر إذا أردت إمضاءه بعد المشورة فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.[570]

ويستنبط الإمام القشيري من هذه الآية إشارة لطيفة تريح نفس المؤمن، وتذيقه برد الكفاية، ليزول عنه كل هم ولغب، وكل تعب ونصب، لأن الله سبحانه يعامل كل إنسان بما يستوجب ويستحق، فيغني كل مؤمن بما يحب ويرغب؛ فبعضهم- عند توكلهم- يغنيهم بعطائه وجوده، ويكفي آخرين- عند توكلهم- بلقائه وشهوده، ويرضي آخرين بسائر أحوالهم وشؤونهم، حتى يكتفون ببقائه، ويقفون معه به وله، على سائر تقلبات وتلوينات قدره وقضائه[571].

وعند قوله -تعالى-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:200] يقف الإمام التستري ليستنبط إشارة لطيفة مفادها تحديد الأركان التي يقوم عليها الإيمان، وهي أربعة: أولها: التوكل على الله في كل أحواله، وثانيها: الانقياد لأمره، والتوكل عليه في كل تعلقاته، وثالثها: الاستسلام لمقدوره، والرضا بقضائه في شؤون حياته، ورابعها: الشكر لنعمائه، والاعتراف بآلائه[572]. ولا يتحقق التوكل على الله إلا بشهود التقدير، واستراحة القلب من كدِّ التدبير.

---

[569] انظر: علي بن أحمد الواحدي، **التفسير البسيط**، تحقيق: لجنة علمية من جامعة محمد بن سعود (الرياض: عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1430هـ)، 387/11. والقشيري، **لطائف الإشارات**، 130/2.

[570] التستري، **تفسير التستري**، 51.

[571] انظر: القشيري، **لطائف الإشارات**، 291/1، بتصرف.

[572] التستري، **تفسير التستري**، 52.

2–حسن التعامل مع المخلوق:

أما التعامل مع المخلوق فمرجعه إلى الخالق؛ إذ لابد للعبد المؤمن أن يكون سلوكه وتدبيره مع الناس منبثق من التعامل مع بارئهم؛ لأن إكرامهم والإحسان إليهم مرضاة لربهم، وكل ما تقدمه لهم مرده إلى مليكهم وسيدهم. لأن الإحسان إلى العبد إجلال وتعظيم لسيده. ولما سئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن أحب الناس إليه قال: «أنفعهم للناس» ولما سئل عن أحب الأعمال إلى الله –تعالى– قال: «سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة أو تقضى عنه، أو تطرد عنه خوفا»[573].

ومن أسمى مقاصد الشريعة القول الحسن، الذي يخاطب به الناس، والفعل الحسن الذي يُسدى إليهم، ويُقدم لهم، وصنائع المعروف مع الخلق ترضي الخالق سبحانه.. ولابد من الإحسان إلى كل من يتم التعامل معه، لحصول التآلف والتحابِّ بين الناس؛ فقد جبلت الْقُلُوب على حب من أحسن إِلَيْهَا، ومن عَلامَة الألفة بين الناس قلَّة الْخلاف في التعامل بينهم، وبذل الْمَعْرُوف في كل الأحوال لهم. ولما وصف الله–سبحانه– نبيه محمدًا بحسن التعامل وبذل المعروف قال:﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] وهنا ينقل لنا التستري –رحمه الله– إشارة لطيفة تكشف سبب إطلاق هذه الصفة على رسول الله؛ إذ ما وصفه الله بهذه الصفة إلا أنه " تأدب بأدب القرآن، وهو التخلق بأخلاق الرب جل جلاله"[574].

كما ينقل لنا محبة الله للأخلاق الحسنة بما خاطب به داود –عليه السلام– حيث أوحى الله تعالى إليه فقال: «تخلق بأخلاقي، فإني أنا الصبور»[575]. فمن أوتي الخلق الحسن فقد أوتي أعظم المقامات، لأن الخلق الحسن ارتباط بصفات الله سبحانه. ولما سئل سهل عن الكرامات، وما أعظمها؟،

---

[573] انظر: المتقي الهندي، **كنز العمال**، 595/6، رقم: 17043، والحديث ضعيف، فيه سُكين بن أبي سراج، اتهمه ابن حبان.

[574] التستري، **تفسير التستري**، 174.

[575] التستري، **تفسير التستري**، 174.

قال: "وما الكرامات؟ إن الكرامات شيء ينقضي لوقته، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود".[576] وهكذا يبدو للمتأمل مدى حرص التستري على حسن السلوك في التعامل مع الخلق، ليعمر الكون بالتآلف والتراحم والتواد بين الناس.

وعند هذه الآية المباركة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يستنبط ابن عربي –رحمه الله– قواعد جليلة في الأخلاق وحسن التعامل، فيقول: " واعلم أن الأخلاق على ثلاثة أنواع :خلق متعد، وخلق غير متعد، وخلق مشترك، فالمتعدي على قسمين: متعد بمنفعة كالجود والفتوة، ومتعد بدفع مضرة كالعفو والصفح، واحتمال الأذى مع القدرة على الجزاء والتمكن منه، وغير المتعدي كالورع والزهد والتوكل؛ وأما المشترك فالصبر على الأذى من الخَلْق، وبسط الوجه ".[577]

وهكذا يقدم الشيخ للمجتمع الإسلامي منهجًا تربويًا يكفل لهم التعامل فيما بينهم بروح التسامح والعفو والصفح، لكي تتشكل لديهم بيئة إنسانية متآلفة، لا يشوبها خصام؛ متعاطفة متراحمة لا تعتريها الشحناء ولا البغضاء.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[فصلت: 34]، يقف القشيري – رحمه الله– ليستنبط قاعدة إنسانية تربوية في كيفية تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان، فيقول: "ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة، يعنى بالعفو عن المكافأة، وبالتجاوز والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف"[578]. ثم يرد ذلك الخُلُقَ الحسنَ في التعامل مع الخصم المسيء إلى حسن التعامل مع الله سبحانه، فيستنبط إشارة لطيفة عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فيقول: ".. وهذا من جملة حسن الأدب في الخدمة في حقّ صحبتك

---

[576] التستري، **تفسير التستري**، 174.

[577] الغراب، **رحمة من الرحمن**، 366/4.

[578] القشيري، **لطائف الإشارات**، 331/3.

مع الله، تحلم مع عباده لأجله"[579]. فالإحسان إلى الخلق، والحلم عليهم من جميل التعامل مع الرب سبحانه، وحسن الأدب في خدمته.

وفي تأويلات أهل السنة للماوردي وعند قوله –جل شأنه–: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ [الإسراء:53] يقرأ المتأمل إشارات يتجلى خلالها المنهج الرباني الحكيم للتعامل مع الخلق في وجوه ثلاثة: أحدها: الدعوة إلى الله واتباع سبيله؛ وذلك في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125] حيث أمر– سبحانه– عباده أن يختاروا أحسن الأقوال فيقولوها للناس، ويتخاطبوا بها فيما بينهم.

والوجه الثاني: أمر الرب –سبحانه– عباده بحسن المجادلة والمحاجة في التعامل مع الخصوم فقال: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:125]، فلا يكون الغضب في الجدال سيد الموقف، بل الروية والحكمة، واللطف والحلم. أما الوجه الثالث وهو أهمها: ففي حسن المعاملة والعفو والصفح عما كان من غير المسلمين إلى المسلمين من أنواع الأذى، حيث أمرهم أن يحسنوا معاملتهم، ويصفحوا عنهم، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:13]. فقد أمرهم أن يعاملوا أُولَئِكَ الخصوم أحسن المعاملة، وذلك لأن الله يمهلهم، ولا يكافئهم بسوء صنيعهم، فقد أراد من عباده التخلق بأخلاقه؛ وذلك بالعفو عنهم، والصفح عن إساءاتهم، فلربما بعد ذلك يكونون أولياء حميمين، ويصيرون إخوانًا للمؤمنين، ولا يتأتى ذلك إلا من بعد هذا الصفح والعفو. [580]

وأخيرًا يقف المفسرون الإشاريون عند خلق من أهم الأخلاق في التعامل مع الخالق وخلقه، يقفون عند قول الله جل في علاه:﴿ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:

---

[579] القشيري، **لطائف الإشارات**، 331/3.

[580] انظر: الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 62/7، بتصرف.

17]. ليوثقوا قيمة الصبر في التعامل مع الرب سبحانه، الصبر على أمره، والتراحم بين خلقه، وذلك برهان الإيمان، ومن ألزم لوازمه.

يقول الماتريدي في التأويلات: "والتواصي بالصبر والمرحمة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ التواصي مأخوذ من الوصية، وهذا يوجب أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في اعتقاد الإيمان"[581]. وهكذا يفهم الماتريدي أن التواصي بالمعروف والنهي عن المنكر أصل في الاعتقاد الحق، وأساس من أسس الإيمان. ويعلق-رحمه الله-في تأويله على كلمتي الحق والصبر عند قول الله تعالى:﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[العصر:3] فيقول: "والصبر: هو الكف عن كل ما يذم عليه فاعله؛ فكأن التواصي بالحق تواصٍ بكل ما يحمد عليه، والتواصي بالصبر تواصٍ عن كل ما يذم عليه"[582].

وكأنه بهذه المعادلة "التواصي بالحق والصبر" يرسم منهجًا واضحًا للتوازن في حياة الناس، وذلك ببعدهم عن المكروهات والمحرمات وتحاشيها، ومباشرتهم المباحات والمستحبات والمداومة عليها؛ لكي تستقيم لهم الحياة السعيدة، ويصلح تعاملهم مع خالقهم، ومع بني جنسهم. وهكذا يبدو للمتأمل أثر الإشارات النورانية في تأويل كلام رب البرية، في رسم منهج سلوكي تربوي، يهدف لقيام مجتمع إنساني، مبني على أسس حسن التعامل بين بني الإنسان، ليحيا بنو آدم حياة مستقرة هنية، في ظل التشريع الرباني، الذي يرضى للعباد الخير في اتباع المنهج القويم، وانتهاج سلوك الصراط المستقيم.

---

[581] الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 538/10.

[582] الماتريدي، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، 612/10.

وهكذا يبرز دور التفاسير الإشارية في تعزيز استقامة الإنسان وحسن تعامله مع الخالق وخلقه، من خلال بيان الدستور الإلهي الذي يرضاه –سبحانه–لعباده في سائر معاملاتهم، وسبل التواصل فيما بينهم؛ حيث بين لهم تشريع الحلال والحرام، والمستحب والمكروه في سائر التعاملات في الحياة الدنيا، أما دستور حياة الآخرة ففي بيان مفهوم عقيدة التوحيد، وتزكية النفوس وسلامة القلوب، وتشريع العبادات المنوطة بالعباد، وصِدْق التوجهِ في كل ذلك إلى الخالق المعبود –جلَّ في علاه – الذي لديه مقاليد الأمور كلها، وإليه المرجع والمآل في كل شأن، وعلى كل حال.

وقد تنبه العلماء الربانيون لهذه الحقيقة، فلم تفتهم آية يتلمسون فيها إشارة لحسن التعامل مع الخالق ومع الخلق، إلا كان لهم فيها بصمة مؤثرة، وإشارة معبرة، تُسهم في إسعاد العباد، وبث الطمأنينة والسكينة في أنفسهم. وذلك من خلال تعزيز القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، التي ينبغي أن يكتسبها المؤمن، ليُحسن التعامل مع الربِّ –جل جلاله– ومع خلقه، ولا يتأتى له ذلك إلا بصحبة الأخيار الصالحين، والتخلق بأخلاقهم، واكتساب طباعهم، ولكي يمتلك العبد المؤمن الطاقة النورانية، التي تمكنه من حسن التعامل، من أجل خلافة الأرض بالمنهج الذي ارتضاه الله لعباده، وليقوم الناس بالقسط في سائر سلوكاتهم وتعاملاتهم.

الخاتمة

يتبين كل منصف من أهل العلم مدى حاجة الإنسانية في هذا الزمن إلى التفسير الإشاري لآيات القرآن الكريم، وذلك بعد التقدم العلمي والتكنلوجي في الحياة المعاصرة، ومع طوفان الاكتشافات الحضارية، ودوي الانفجارات المعرفية، ونضج التفكير البشري، وانعتاق الإنسان من قيد السكون للتقليد، وتطوافه في فضاءات العلوم المختلفة؛ ليجد في القرآن الكريم السراج المنير للإنسانية، يُبَصِّرُها طريق الحق، ويهديها سبيل الرشاد؛ كي تسلك المسلك الأمثل، وتنهج النهج الأرشد، فتسير في ضوء المعاني الربانية، والفيوضات الإلهية، ولكي يجد كل مسلم بغيته فيها، فيكون أهلًا للخلافة في الأرض، يحسن التعامل مع شؤون الحياة بما يرضي الله، فيتحقق له دوام الاطمئنان والقرار في أرض الله وبين عباده.

وقد قدم الباحث في هذه الأطروحة نماذج من التفسير الإشاري، بيَّن خلالها أثر هذا اللون من التفسير في تقويم السلوك، وتهذيب النفوس، وعلاج العيوب التي تعتري الحياة البشرية، وكشف عن كنوز دفينة للتربية الأخلاقية، والقيم الروحية في طيات هذه التفسيرات الإشارية، وأشار إلى دلالاتها التربوية. فبين المقصود بالتفسير الإشاري، وأظهر مدى ارتباطه بمنهج التصوف، كما عرض آراء العلماء بالتصوف وبالتفسير الإشاري، وقدَّم رأي الموافق منهم والمعارض والمحترس، وتناول بعض ملامح الحياة الاجتماعية، والسياسية في العصر العباسي، حيث كانت سببًا مباشرًا وغير مباشر في ظهور التفسير الإشاري. وركز الباحث على أهمية دور هذا اللون من التفاسير في نشر الوعي الديني والأخلاقي في ذلك العصر، ومدى تأثر شريحة عريضة من المجتمع بهذا النهج، وعزوف الكثيرين عن حياة اللهو والترف، وإقبالهم على حياة الزهد والشظف.

ودرس الباحث حياة أربعة من أشهر المفسرين الإشاريين في ذلك الزمن، وعرَّف بتفاسيرهم ودورها في تقويم السلوك الإنساني، وإسهامها في إفراز منهج عملي أخلاقي، يهدف إلى إصلاح ما

أفسدته حياة الترف واللهو في ذلك العصر، وبين أثرها في إرشاد الناس إلى الفطرة السليمة، التي فطرهم الله عليها. ثم عرض الباحث نماذج من التفسير الإشاري لبعض الآيات، التي تدعو إلى التربية الأخلاقية؛ كتزكية النفوس البشرية، وتطهير القلوب المريضة، وتنقيتها وتوجيهها إلى بارئها، من أجل أن يعمر الكون بالتوازن الذي أراده الله، لإسعاد الإنسان في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة.

نتائج البحث:

- لقد تبين للباحث أن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقدم للإنسانية عبر الأجيال منهجًا أخلاقيًا وسلوكيًا مكتمل العناصر، يصلح لكل زمان وكل مكان.
- وأن التفسير الإشاري للقرآن الكريم يسهم في بيان مقاصد الشريعة التي لا يدركها إلا العالمون.
- وأن للتفسير الإشاري الأثر الإيجابي الفاعل في تزكية النفس البشرية، وتقويم السلوك الإنساني، وعلاج أمراض القلوب.
- وأن التفسير الإشاري يسهم في إثراء الذوق الإنساني لتدبر كلام الله تعالى، وفهم مراميه، وإدراك مكامن أسراره.
- وأن التفسير الإشاري يهدف إلى إصلاح ما أفسده الترف واللهو في كل قطر وكل عصر، ويوجه الناس إلى الفطرة السليمة التي فطرهم الله عليها.

التوصيات:

يوصي الباحث العلماء المعاصرين القائمين على التربية والتعليم في هذا العصر بالاستفادة من هذا اللون من التفسير، وذلك بخلق آليات عملية تطبيقية في المناهج الدراسية الحديثة المعاصرة؛ بحيث تتخذ من هذه الإشارات اللطيفة، والاستنباطات الطريفة منارات مضيئة، تكشف معالم الطريق لهذا الجيل الواعد. فتؤلف الكتب المختلفة التي تتوافق مع مستويات الأجيال، في سائر المراحل العمرية، وتبوب هذه الكتب حسب الحاجات الإنسانية، وتوظف إشاراتها في تقويم السلوك، وتنقية القلوب، وإصلاح النفوس؛ أملًا في إنشاء جيل إنساني صالح لإعمار الأرض بالقيم النبيلة، والأخلاق الحميدة.

والباحث إذ يقدم هذه الأطروحة، الحاوية لبعض المفاهيم والدلالات الطريفة اللطيفة لمعاني القرآن الكريم، الذي "لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد". لعله يضيف إلى المكتبة الإسلامية رافدًا جديدًا، يثري فصولها، ويغني فنونها. فإن أحسن وأفاد فمن الله وبتوفيقه، وإن قصَّر وعجز فمن جبلته وطبيعته، فقد جبل الإنسان على العجز والقصور. هذا وبالله التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- إبراهيم مصطفي/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار. **المعجم الوسيط**. إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة إستانبول: دار الدعوة، د.ت.
- ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد. **محاسبة النفس**. تحقيق: المستعصم بالله مصطفى بن علي بن عوض، بيروت: دار الكتب العلمية، 1406هـ.
- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد. **المصنف في الأحاديث والآثار**. تحقيق: كمال يوسف الحوت. الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ.
- ابن أبي يعلى، محمد بن محمد. **طبقات الحنابلة**. بيروت: دار المعرفة، د.ت.
- ابن إسماعيل، محمد خير بن رمضان. **تكملَة مُعجم المُؤلفين**. بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م.
- ابن الأشعث، أبو داود سليمان السجستاني. **الزهد**. تحقيق: ياسر بن ابراهيم غنيم، حلوان: دار المشكاة للنشر والتوزيع، 1993م.
- ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي. **تلبيس إبليس**. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 2001م.
- ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي. **صفة الصفوة**. تحقيق: أحمد بن علي، القاهرة: دار الحديث، 2000م.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. **اللطائف**. د.م، 5 .

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفي عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. **صفوة الصفوة**. تحقيق: أحمد بن علي، القاهرة: دار الحديث، 2000م.
- ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري. **فتاوى ابن الصلاح**. تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر، بيروت: عالم الكتب، 1407هـ.
- ابن العديم، عمر بن أحمد. **بغية الطلب في تاريخ حلب**. تحقيق: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، د.ت.
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير، 1986م.
- ابن الفراء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف. **التوكل**. تحقيق: يوسف بن علي الطريف، الرياض: دار الميمان للنشر والتوزيع، 2014م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر. **التبيان في أقسام القرآن**. تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار المعرفة، د.ت.
- ابن الملقن، عمر بن علي. **طبقات الأولياء**. تحقيق: نور الدين شريبه، القاهرة: مكتبة لخانجي 1415هـ.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق. **الفهرست**. تحقيق: إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة، 1417هـ.

- ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك. **شرح صحيح البخاري**. تحقيق: ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، 1423هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني. **مجموع الفتاوى**. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1995م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني. **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**. تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1986م.
- ابن حبان، محمد البُستي. **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408هـ.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، حيدر أباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1972م.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة، 1379هـ.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. **لسان الميزان**. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2002م.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن هلال الشيباني. **الزهد**. تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**. تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، 1988م.

- ابن خلف، محمد حسين التبريزي. **برهان قاطع (مخطوط)**. طهران: مكتبة مجلس الشورى الإسلامي، د.ت.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1971م.
- ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي. **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم**. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001م.
- ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي. **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**. بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، 2004م.
- ابن زروق، أحمد بن أحمد الفاسي. **قواعد التصوف**. تحقيق عبد المجيد خيالي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م.
- ابن عابدين، محمد أمين بن عمر الدمشقي. **حاشية ابن عابدين**. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1966م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الطاهر التونسي. **التحرير والتنوير**. تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1387 هـ.
- ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**. تحقيق: أحمد عبد الله القرشي، القاهرة: الدكتور حسن عباس زكي، 1419هـ.

- ابن عدي، وكيع بن الجراح. **الزهد**. تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، المدينة المنورة: مكتبة الدار، 1984م.
- ابن عربي، محمد بن علي الحاتمي. **الفتوحات المكية**. تحقيق: أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999م.
- ابن عربي، محمد بن علي الحاتمي. **تفسير ابن عربي**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله. **تاريخ دمشق**. تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
- ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد. **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**. تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار التراث للطبع والنشر، د.ت.
- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد. **طبقات الشافعية**. تحقيق: عبد العليم خان، بيروت: عالم الكتب، 1407هـ.
- ابن قتيبة، عبد الله بن عبد المجيد الدينوري. **الشعر والشعراء**. القاهرة: دار الحديث، 1423هـ.
- ابن قتيبة، عبد الله بن عبد المجيد الدينوري. **المعارف**. تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1996م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.
- ابن مسلم، عبد الله بن وهب المصري. **تفسير القرآن من الجامع**. تحقيق: ميكلوش موراني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003 م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، 1414هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**. تحقيق: روحية النحاس، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع، 1402هـ.
- ابن نقطة، محمد بن عبد الغني الحنبلي البغدادي. **التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد**. تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت: دار الكتب العلمية، 1988م.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل. **معجم اللغة العربية المعاصرة**. بيروت: عالم الكتب، 2008.
- الأصبحي، مالك بن أنس. **الموطأ**. تحقيق: محمد مصطفي الأعظمي، أبو ظبي: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، 2004م.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**. القاهرة: مطبعة السعادة، 1974م.

- الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل. **سير السلف الصالحين**. تحقيق: كرم بن حلمي بن فرحات، الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، د.ت.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد المرواني. **الأغاني**. القاهرة: طبعة بولاق، د.ت.
- الألباني، ناصر الدين. **صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**. الرياض: دار الصميعي، 1422هـ.
- الآلوسي، محمود بن عبد الله. **تفسير الآلوسي (روح المعاني)**. تحقيق: علي عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ.
- الألوسي، نعمان بن محمود. **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**. القاهرة: مطبعة المدني، 1981م .
- الأنصاري، زكريا بن محمد. **على هامش الرسالة القشيرية**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت.
- الأنصاري، عبد الوهّاب بن أحمد. **الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء الصوفية)**. تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وغيره، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2005م.
- البابانى، إسماعيل بن محمد البغدادي. **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**. اسطنبول: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، 1951م.
- الباخرزي، علي بن الحسن. **دمية القصر و عصرة أهل العصر**. بيروت: دار الجيل، 1414هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**. تحقيق: مصطفى البغا، دمشق: دار ابن كثير 1993م.
- البغدادي، أحمد بن علي الخطيب. **تاريخ بغداد**. تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002م.

- البغدادي، الجنيد بن محمد بن الجنيد. **تاج العارفين**. تحقيق: سعاد الحكيم، القاهرة: دار الشروق، 2004م.
- بلوط، عليّ الرضا قره، وأحمد طوران قره. **معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)**. قيصري: دار العقب، 1422هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين. **السنن الكبرى**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**. تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، 2003م.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن الضحاك. **سنن الترمذي**. تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975م.
- التُستري، سهل بن عبد الله. **تفسير التستري**. تحقيق: باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، 1423هـ.
- التلمساني، أحمد بن محمد المقري. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1968م.
- التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد. **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**. تحقيق: مصطفي السقا وآخرون، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939م.
- التميمي، محمد بن حبان بن أحمد. **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**. المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. **اللطائف والظرائف**. بيروت: دار المناهل، د.ت.

- الثعلبي، بن إبراهيم. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**. تحقيق: عدد من الباحثين، جدة: دار التفسير،2015م.
- الثوري، سفيان بن سعيد. **تفسير الثوري**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ.
- الثوري، سفيان بن سعيد. **تفسير الثوري**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م.
- الجرجاني، علي بن محمد الشريف. **التعريفات**. تحقيق: جماعة من العلماء، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ.
- جعفر، محمد كمال إبراهيم. **من التراث الصوفي/ لسهل بن عبد الله التستري**. بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1974م.
- الجواليقي، موهوب بن أحمد. **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم**. تحقيق: ف. عبد الرحيم، دمشق: دار القلم، 1990م.
- الجويني، مصطفي الصاوي. **مناهج في التفسير**. الإسكندرية: منشأة المعارف، 1971م.
- الجيلاني، عبد القادر بن موسى. **الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل**. تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني. **سلم الوصول إلى طبقات الفحول**. تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، إستانبول: مكتبة إرسيكا، 2010م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1941م.
- حسين، محمد الخضر. **موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين**. جمعها وضبطها: عليّ الرضا الحسيني، دمشق: دار النوادر، 1431هـ.

- حلو، محمد يحيى. **البردة شرحا وإعرابا وبلاغة**. دمشق: دار البيروتي، 1426هـ.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. **معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)**. تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. **معجم البلدان**. بيروت: دار صادر، 1995م.
- الحميرى، نشوان بن سعيد. **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**. تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وغيره، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1999م.
- الحنبلي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي. **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**. تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت.
- الخطيب، أحمد بن علي البغدادي. **المنتخب من كتاب الزهد والرقائق**. تحقيق: عامر صبري، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2000م.
- خوجه، لطف الله عبد العظيم، **موضوع التصوف**. مكة المكرمة: مجلة جامعة أم القرى، 1427هـ.
- درنيقة، محمد أحمد. **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**. بيروت: دار الهلال، 2003م .
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، 1413هـ.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. **تذكرة الحفاظ**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. **سير أعلام النبلاء**. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة 1985م.
- الذهبي، محمد السيد حسين. **أرشيف ملتقى أهل التفسير**.

- الذهبي، محمد السيد حسين. **التفسير والمفسرون**. القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت.
- الذهبي، محمد حسين. **التفسير والمفسرون**. القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت.
- الذهبي، محمد حسين. **تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره**. المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، 1431هـ.
- الرازي، عبد الرحمن بن أحمد. **فضائل القرآن وتلاوته**. تحقيق: حسن صبري، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1994م.
- الرازي، محمد بن أبي بكر. **مختار الصحاح**. تحقيق: يوسف الشيخ محمد، بيروت: المكتبة العصرية، 1420هـ.
- الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، فخر الدين. **مفاتح الغيب = التفسير الكبير**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.
- الرازي، محمد بن عمر فخر الدين. **مفاتيح الغيب**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.
- الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان. **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**. الرياض: طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية، 1406هـ.
- الزبيدي، محمّد بن عبد الرزّاق المرتضى الحسيني. **تاج العروس من جواهر القاموس**. تحقيق: مجموعة من المحققين، الكويت: دار الهداية للطباعة والتوزيع، 1965م .
- **الزبيري**، وليد بن أحمد الحسين، وآخرون. **الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة**. مانشستر-بريطانيا: مجلة الحكمة، 1424هـ.

- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي. **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ.
- الزركلي، خير الدين بن محمود. **الأعلام**. بيروت: دار العلم للملايين، 2002م.
- الزقاني، محمد عبد العظيم. **مناهل العرفان في علوم القرآن**. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1943م.
- الزمخشري، محمود بن عمر. **أساس البلاغة**. تحقيق: باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.
- الزهري، محمد بن سعد بن منيع. **الطبقات الكبير**. تحقيق: علي محمد عمر. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2001م.
- السبتي، عياض بن موسى اليحصبي. **إكمال المعلم بفوائد مسلم**. تحقيق: يَحْيَى إِسْمَاعِيل، القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزْأُوغلي. **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**. تحقيق: محمد بركات وآخرين، دمشق: دار الرسالة العالمية، 2013م.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين. **طبقات الشافعية الكبرى**. تحقيق: محمود محمد الطناحي وغيره، نشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1431هـ.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت.
- السلمي، محمد بن الحسين. **حقائق التفسير**. مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.

- السلمي، محمد بن الحسين. **سؤالات السلمي للدارقطني**. تحقيق: فريق من الباحثين، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1427هـ.
- السلمي، محمد بن الحسين. **طبقات الصوفية**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ.
- السنيكي، زين الدين أبو يحيى. **الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة**. تحقيق: مازن المبارك، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1411هـ.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **الإتقان في علوم القرآن**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **طبقات الحفاظ**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **طبقات المفسرين العشرين**. تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة وهبة، 1396هـ.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. **الاعتصام**. تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الرياض: دار ابن عفان، 1992م.
- الشدي، عادل بن علي (معاصر). **الاتجاهات المنحرفة في التفسير في العصر الحديث**. الرياض: مدار الوطن للنشر، 2010م.
- شرف، محمد ياسر. **حركة التصوف الإسلامي**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

- الشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001م.
- الصابوني، محمد علي. **التبيان في علوم القرآن**. كراتشي: مكتبة البشرى، 2010م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. **الوافي بالوفيات**. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وغيره، بيروت: دار إحياء التراث، 2000م.
- صلاح الدين، محمد بن شاكر. **فوات الوفيات**. تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1974م.
- الصناوي، محمد أمين. **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ.
- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام. **المصنف**. تحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات، القاهرة: دار التأصيل، 2013م).
- الصيّادي، بهاء الدين محمد مهدي، المعروف بالرواس. **ديوان مشكاة اليقين ومحجة المتقين**. بيروت: دار الفكر، د.ت.
- الضبي، المفضل بن محمد. **المفضليات**. تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، د.ت.
- الطبراني، سليمان بن أحمد. **الروض الداني "المعجم الصغير"**. تحقيق: محمد شكور أمرير، بيروت: المكتب الإسلامي، 1985م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الكبير**. تحقيق: فريق من الباحثين، د. م.
- الطبري، محمد بن جرير. **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**. تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، 1982م.

- الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الجيزة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 2001م.
- الطرطوشي، محمد بن محمد. **سراج الملوك**. القاهرة: من أوائل المطبوعات العربية، 1289هـ.
- الطوسي، محمد بن محمد الغزالي. **إحياء علوم الدين**. بيروت: دار المعرفة، د.ت.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**. القاهرة: مكتبة القدسي، 1351هـ.
- العقاد، أحمد سعد. **ضياء الأكوان في تفسير القرآن**. الإسكندرية: مطابع عابدين، 1970م.
- عمرو بن بحر الجاحظ، **المحاسن والأضداد**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1423هـ.
- العيني، محمود بن أحمد. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- الغراب، محمود محمود. **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم من كلمات الشيخ الأكبر محيي الدين محمد ابن العربي الطائي الحاتمي**. (د.م، د.ت).
- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد. **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**. تحقيق: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م.
- الفاسي، محمد بن أحمد بن علي أبو الطيب. **ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد**. تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م.
- الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله. **حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العبادة والدين**. الرياض: دار العاصمة، 1412هـ.

- الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2005م.
- القرشي، أسد بن موسى بن إبراهيم، الملقب بأسد السنة. **الزهد**. تحقيق: أبو اسحق الحويني الأثري، الجيزة: مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، 1993م.
- قره بلوط، عليّ الرضا، وأحمد طوران، **معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)**. قيصري: دار العقبة، 1422هـ.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن. **الرسالة القشيرية**. تحقيق: عبد الحليم محمود، القاهرة: دار المعارف، 1994م.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن. **لطائف الإشارات = تفسير القشيري**. تحقيق: إبراهيم البسيوني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.
- القِنَّوجي، محمد صديق خان البخاري. **أبجد العلوم**. بيروت: دار ابن حزم، 1423هـ.
- القِنَّوجي، محمد صديق خان البخاري. **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007م.
- القيرواني، إبراهيم بن القاسم الرقيق. المعروف بالرقيق النديم، **قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور**. د. م.
- كاتبي، محمد عدنان. **رابطة العلماء السوريين**.
- كبريت، محمد بن عبد الله. **رحلة الشتاء والصيف**. تحقيق: محمَّد سَعيد الطنطاوي، بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 1385هـ.

- الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس الحسني. **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة**. تحقيق: محمد المنتصر بن محمد الزمزمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1421هـ.
- كحالة، عمر رضا. **معجم المؤلفين**. بيروت: مكتبة المثنى، 1376 هـ.
- الماتريدي، محمد بن محمد. **تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة**. تحقيق: مجدي باسلوم، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م.
- الماوردي، علي بن محمد. **أعلام النبوة**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1409هـ.
- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**. تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981م.
- مجموعة من الباحثين بإشراف عَلوي بن عبد القادر السقاف، **موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام**، نشر: موقع الدرر السنية، (https://dorar.net، 448/6).
- محفوظ، محمد. **تراجم المؤلفين التونسيين**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994م .
- محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. **جمهرة اللغة**. تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، 1987م.
- محمود، منيع عبد الحليم. **مناهج المفسرين**. القاهرة: دار الكتاب المصري، 2000م.
- المخزومي، مجاهد بن جبر. **تفسير مجاهد**. تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، القاهرة: دار الفكر الإسلامي الحديثة، 1989م.
- مخلوف، محمد بن محمد. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**. علق عليه: عبد المجيد خيالي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م.

- المرسي، علي بن إسماعيل بن سيده. **المحكم والمحيط الأعظم**. تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م.
- المروزي، إسحاق بن منصور، المعروف بالكوسج، **مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه**. المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، 1425هـ.
- المكي، محمد بن علي. **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**. تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1426 هـ.
- المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين. **فيض القدير**. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1356هـ.
- الموسوعة الحرة، **ويكيبيديا**. على العنوان التالي: ديلم
- الموصلي، معافي بن عمران. **الزهد**. تحقيق: عامر حسن صبري، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1991م.
- النووي، يحيى بن شرف. **بستان العارفين**. القاهرة: دار الريان للتراث، د.ت.
- نويهض، عادل. **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»**. بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1988م.
- النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم. **المستدرك على الصحيحين**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م.

- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري. **صحيح مسلم**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1955م.
- الهروي، أحمد بن محمد. **الغريبين في القرآن والحديث**. تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الرياض: مكتبة نزار مصطفي الباز، 1999م.
- الهروي، القاسم بن سلاّم. **الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن**، تحقيق: محمد بن صالح المديفر، الرياض: مكتبة الرشد، 1418هـ.
- الهروي، القاسم بن سلاّم. **غريب الحديث**. تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1964م.
- الواحدي، علي بن أحمد. **التفسير البسيط**. تحقيق: لجنة علمية من جامعة محمد بن سعود، الرياض: عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1430هـ.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**. وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م.
- اليحصبي، عياض بن موسى. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**. بيروت: دار الفكر الطباعة والنشر، 1409هـ.

- اليحصبي، عياض بن موسى. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**. تحقيق: ابن تاويت الطنجي وآخرون، المغرب: مطبعة فضالة المحمدية، د.ت.

- Süleyman Ateş. **TASAVVUFUN ANA İLKELERİ SÜLEMİ'NİN RİSALELERİ Ebu Abdurrahman es-Sülemi**. (Ankara Üniversitesi Basımevi, 1981).

السيرة الذاتية

أكمل الباحث التعليم الأساسي سنة 1997م في الامارات العربية المتحدة، واجتاز المرحلة الثانوية سنة 2000م، ثم أكمل الدراسة الجامعية في الشريعة الإسلامية وتخرج من جامعة الأزهر بجمهورية مصر العربية عام 2006م، وحصل على درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية من جامعة كارابوك بتركيا عام 2017م، وبدأ دراسة الدكتوراه في جامعة كارابوك عام 2018م، معهد الدراسات العليا، قسم العلوم الإسلامية الاساسية.

İŞÂRÎ TEFSİR VE İNSAN DAVRANIŞLARININ DÜZELTİLMESİNDEKİ ROLÜ (ABBASİ DÖNEMİNDEKİ BAZI TEFSİRLER ÜZERİNE BİR İNCELEME)

2023
DOKTORA TEZİ
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ

Ömer ALALİ

Tez Danışmanı
Doç. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU